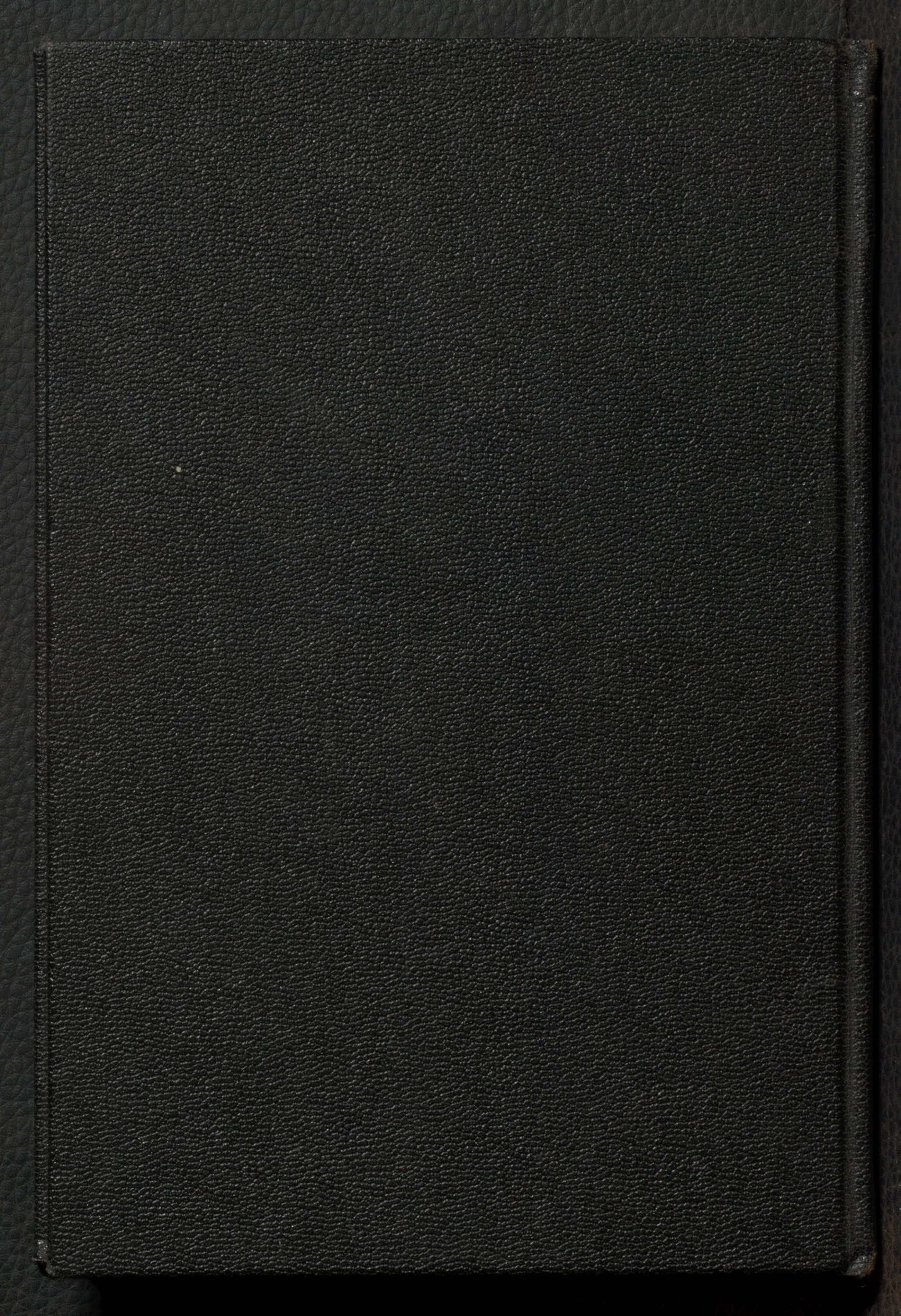
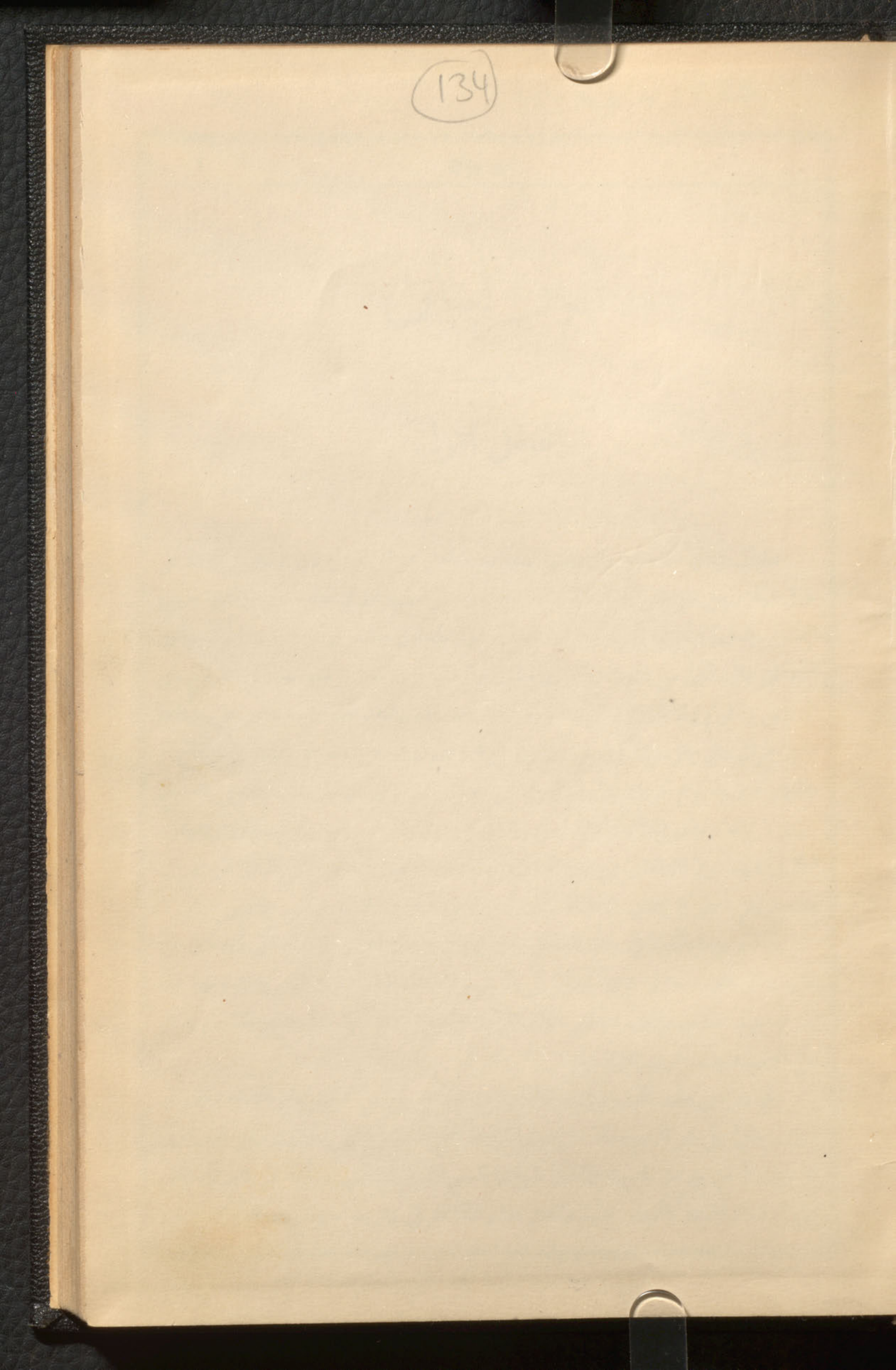
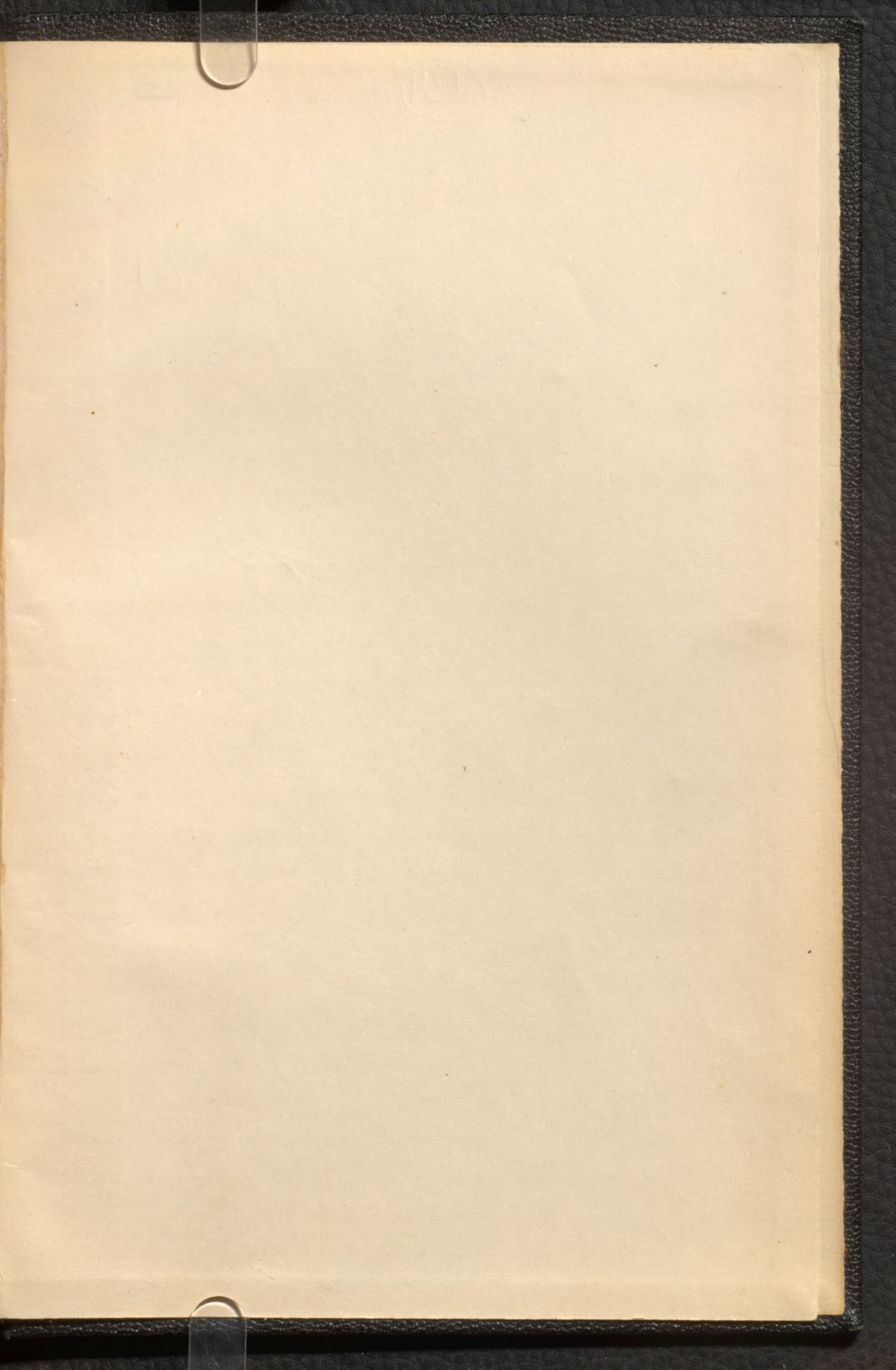






امير لبنان

الفصل الاول

النصح بالاخلاص

هضاب لبنان آكام يعلو بعضها بعضاً من ساحل بحر الروم الى قنن صنين مرتصفة على طول البلاد من طرابلس الشام الى ساحل صيداء . رصَّعتها القرى والدساكر ووشحتها حراج الصنوبر والبلوط وتخللتها اودية وفجوات تنساب فيها الجداول والغدران وقد قامت على جوانبها الحدائق والبساتين من التوت والزيتون والتين والرمان . ودُبجت ارضها بطرائق الديباج من النرجس والخزام والاقحوان . بلاد المروَّة والضيافة والشهامة والعفاف . مضى على سكانها دهور طوال وهم يغرسون كرومهم ويجنون ثمارهم ويذودون عن ذمارهم بالبيض الصفاح . جانبهم عزيز وحرزهم حريز . يمرُّ بهم الغزاة من مصر وبابل واليونان والرومان كالطيور القواطع تلتهم ما تراه ُ وتغادر البلاد واهلها فيعودون الى زرعهم وضرعهم يغرسون البساتين ويزرعون الحقول ويسومون القطعان ويبنون البيوت ويشيدون القصور آمنين ناعمي البال الى ان ينتابهم غازٍ آخر كما تنتاب الاوبئة البلدان فيظاهرونهُ او يشاغبونهُ حسب مقتضى الحال

لما كثر مرور الغزاة في بلاد الساحل بين بيروت ولبنان انحدر الامراء آل ارسلان من الشوف الى الغرب ونزلوا قرىً تطلُّ على طريقهم لاستكشافها فُسمّيت الشويفات وبنوا فيها دورهم حيث ضافهم سلطان دمشق الملك المؤيد المحمودي الخاصكي منذ خمس مئة عام ونزل على الامير سيف الدين ثلاثة ايام

في دار من هذه الدور وقف الامير احمد صباح يوم من اواخر عام ١٨٥٩ وقف في رواق يطلُّ على بحر الروم وغابة الزيتون المعروفة بصحراء الشويفات . وكانت سفن الصيادين قد خرجت من بيروت للصيد ونشرت شراعها لنسيم الصبا وقد هب صباحاً من البر الى البحر قبل اشتداد الهجير فجازت خلدة وشقت صدر الماء فارغي وازبد . ونشرت الغزالة اشعتها

على الرمال بين الصحراء والبحر فعصفرتها وعبثت بما تجمع على اوراق الزيتون من ندى الليل فطار ضباباً لطيفاً كانفاس المحبين

وقف الامير هنيهة يقلّب طرفهُ في ما يراهُ من جمال الطبيعة ويستنشق نسيم الصباح ويصغي الى تغريد الطيور وهمَّ بالخروج للصيد ثم عاد الى التفكير في كتاب ورد عليهِ في الليل الفائت من الكولونل روز قنصل انكلترا في بيروت وقال في نفسهِ لامرٍ دعاني القنصل اليهِ ولا بدَّ من تلبية دعوتهِ . ولم يستغرب دعوة القنصل لهُ وتخصيصهُ اياهُ دون ابناء عمهِ لانهُ كان يعتمد عليهِ بعد ابيهِ والكتاب ليس من القنصل نفسهِ بل من ترجمانهِ . ثم دخل غرفتهُ وافتقد الكتاب وقرأهُ ثانية فاذا هو يقول فيهِ

"الجناب الاكرم والملاذ الافخم الامير احمد ارسلان المحترم دام بقاهُ

بعد اداء واجب التحية والاكرام اعرض ان سعادة القنصل امرني لكي اكتب اليكم ادعوكم الى دار القنصليَّة غداً صباحاً للمذاكرة في بعض الشؤون الهامَّة والمرجو تشريفكم في الوقت المعيَّن وادام الله بقاءكم"

فقال في نفسهِ ما هذه الامور الهامَّة يا ترى ولماذا لم يكتب القنصل نفسهُ اليَّ بالفرنسويَّة او يظن انني اكون آلة في يدهِ كما كان المرحوم والدي تلك ايام مضت ولن تعود . نعم ان انكلترا وفرنسا ساعدتا دولتنا على الروس في حرب القرم ولكن تلك المساعدة لا تقضي علينا بالاستعباد وليس من صواب الرأي ان نجاري خورشيد باشا في ما طلبهُ ولكن لا يليق بنا ان نستميت الى هذا الحد

ثم نظر الى ساعتهِ ونادى مسروراً عبدهُ وامرهُ ان يشدَّ على جوادهِ ولبس ثيابهُ بذلةً من الجوخ الكحلي وطاقاً مزركشاً بالقصب وتقلد سيفهُ وهو لجدهِ الاعلى الامير جمال الدين قلّدهُ بهِ السلطان سليم الفاتح في مدينة دمشق يوم دخلها ظافراً . وتنكّب قربينة صنعت لابيهِ في بيت شباب صنعها لهُ اولاد نفاع من فضلات نعال الخيل المطرَّقة فجاءت مجوهرةً كالسيوف الدمشقية يطلق بها عشرين حوَّاشة معاً فتنطلق منها كالمدفع الرشاش ولا يستطيع اطلاقها الاَّ من كان ساعدهُ من الحديد مثل ساعدهِ . والقى على كتفيهِ برنساً ابيض من نسج دمشق ثم اعتلى صهوة جوادهِ ووضع فردين صغيرين في قربوصهِ وهما هدية لابيهِ من ابرهيم باشا اهداهما اليهِ قبل واقعة النجاة . وسار وامامهُ عبداهُ مسرور وسالم وهما بالعدَّة الكاملة مع كلٍّ منهما يطقان وزوج طبنجات وبندقية نظامية ابرهيمية من البنادق التي القتها جنود ابرهيم باشا وهي عائدة الى مصر . فمرَّ في طريق متعرّج بين البيوت والحوانيت وكانت نساء

القرية ذاهبات يستقين وجرارهنَّ على اكتافهنَّ او رؤوسهنَّ والبراقع مسدولة على وجوههنَّ لا يبين منها الاَّ عين واحدة يكشفنها لينظرن طريقهنَّ . فلما دنا منهنَّ وقفن كاسرات الطرف هيبةً ووقارًا وكذلك كان الرجال يقفون في حوانيتهم ويضعون اكفهم على صدورهم ويحيونهُ

وسار من تحت كفرشيما والحدث الى الشياح والناس ينظرون اليهِ شزرًا لان قلوبهم كانت موغرةً بالاحقاد . ومرَّ في حراج بيروت وكان الهجير قد اشتدَّ وعلا صوت الصراصير فوقف هنيهة في ظل صنوبرة كبيرة مما بقي من الصنوبر الذي غرسهُ الامير فخر الدين المعني وهي منتصبة بين الاشجار التي غرسها ابرهيم باشا كالجبار بين الاطفال حتى اذا كثر رفس الجواد من كثرة الذباب استأنف السير ومرَّ في طريق الميدان فالباشورة . وعرف اصحاب الحوانيت انهُ من امراء الجبل من قيافتهِ وعدّتهِ لكنهم لم ينهضوا للسلام عليهِ لاعتقادهم ان اهالي لبنان فلاحون كلهم حتى امراؤُهم ولو كانوا من نسل الملوك . ولا هو بادأَهم بالسلام انفةً وعتوًّا . ودار من عند السور (عصور) وصعد في طريق المصيطبة الى بيت الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال فبادر اليهِ قواسَّان كانا واقفين عند الباب وامسكا بركاب جوادهِ فنزل عنهُ ونفح كلاًّ منهما بريال ودخل غرفة كبيرة كواها تطل على حديقة غناء نسقت فيها اشجار البرتقال والتفاح والرمان وانواع الورد والياسمين وكانت الغرفة مفروشة بالبسط الفارسيَّة وفيها مقاعد مكسوة بالحرير المطرز من نسج دير القمر ومكتب كبير من خشب الجوز مطعم بعرق اللولوء من عمل دمشق وكراسي انكليزيَّة كبيرة مكسوة بالجلد البني امامها موائد صغيرة . فلاقاهُ القنصل الى الباب ورحب بهِ ثم أُتي بالقهوة ودار الحديث بينهما على شؤُون الجبل وثورة الخواطر فيهِ فشكا الامير من ان نصارى المتن والعرقوب وزحلة ودير القمر قد اكثروا من ابتياع الاسلحة ولا عمل لهم الاَّ سبك الرصاص ولف الفشك فلا عجب اذا فعل دروز الشوفين فعلهم . قال ويبلغني ان كسروان كلها متحفزة للثورة وان يوسف بك كرم قابل قنصل فرنسا فشدَّ القنصل ازرهُ واكدَّ لهُ ان فرنسا لا تتخلى عن الموارنة بوجه من الوجوه . فقال القنصل ولكن بلغني ان خورشيد باشا قال لكم مثل ما قال قنصل فرنسا ليوسف بك . فقال الامير اما انا فلم اقابل خورشيد باشا . فقال القنصل نعم لم تقابلهُ انت ولكن قابلهُ جماعة من بيت عماد وبيت نكد ومضى اثنان منهم الى خلوات البياضة لهذا الغرض وقد استدعيتك الآن لكي احذرك من عواقب الثورة فانهُ اذا استفحل الخطب فلا يبعد ان تحتل بلادكم دولة اجنبيَّة وهذا لا نرضاهُ لكم ولا للدولة العثمانية وامس كان عندي سعيد بك فاخبرتهُ بما اخبرتك بهِ الآن وليس الخوف من عقَّالكم بل الخوف من جهالكم وانا اعلم

شدة طاعتهم للعقال ولكن ما كل وقت يكون العقّال على يقظة من امرهم

وطالت المذاكرة نحو ساعتين حتى اذا حان وقت الغداء دعا القنصل الامير للغداء معهُ وتغدى معهما شاب انكليزي اسمهُ السر هنري بدمونت في غرفة مجاورة لغرفة الاستقبال وجلسوا بعد الغداء يدخنون التبغ و يشربون القهوة و يتكلمون في مصالح الجبل وتاريخ امرائهِ وسبب الخلاف بين اليزبكية والجانبلاطية و بين النصارى والدروز الى غير ذلك مما يهتم بهِ قناصل الانكليز خاصة وكان كلامهم بالفرنسوية . وقد سُرَّ السر هنري بحديث الامير احمد وطلب اليهِ ان يسمح لهُ بزيارتهِ في دارهِ بالشويفات فقال حباً وكرامة وان سمحت فاني آتي بنفسي واذهب بك . فقال السر هنري اني لا اكلفك الى ذلك وسازورك بعد غدٍ مع احد قواسة القنصلية . ثم استأذن الامير احمد في الانصراف فودعهُ الكولونل روز والسر هنري بدمونت الى باب القنصلية

ومرَّ وهو راجع في طريقهِ ببيت رجل اسمهُ الشيخ درويش و يكنى بابي نخر. وكان هذا الرجل قد رآهُ ذاهباً الى دار القنصل فجلس في رواق بيتهِ ينتظر عودتهُ حتى اذا مرَّ بهِ قام للقائهِ ودعاهُ لينزل و يشرب القهوة . واعتذر الامير عن النزول بفوات الوقت فقال لهُ الأَنزلت فان المرحوم والدك كان يشرفنا كلما نزل الى بيروت و بيتنا مستعد لقبول الزوَّار وامس شرفنا الوالي والسرعسكر . وما زال بهِ حتى ترجَّل وصعد معهُ الى رواق كبير يطل على الطريق فلما جلس قال لهُ الشيخ درويش يا سبحان الله انك جلست على الكرسي الذي كان يجلس عليهِ المرحوم والدك وهو الكرسي الذي يجلس عليهِ دولة الوالي كلما زارنا هات اخبرني اين كنت ولا تخفِ عني شيئاً فان المرحوم والدك كان يطلعني على كل اخبارهِ واسرارهِ وقد كان ابي صديقاً لهُ واوصاني لاكون صديقاً لك قل لي اين كنت . فقال الامير كنت في بيت الكولونل روز لشغل خصوصي

فقال الشيخ اي نعم لشغل خصوصي اسمع يا ابني ولا تملّك الاجانب منك ولا تحد عن خطة ابيك رحمهُ الله ولماذا لم تذهب الى بيت الوالي مثل سائر مناصب الجبل

فقال الامير اني ذاهب اليهِ

فقال الشيخ احسنت احسنت وتفضَّل خذ القهوة . انظر ما اجمل هذه الفناجين فانها من الصيني الحر اشتراها المرحوم والدي من دمشق الشام كل فنجان بعشرة فندقليات اذا رميتهُ على الارض لا ينكسر والظروف من صياغة اسطانبول فضة روباص وذهب بندقي والمرجان من اعلى طبقة . الظروف اشتريتها انا من اسطانبول اخذتها من الدلال بثمن بخس بالنسبة

الى ثمنها الاصلي كانت لازمير لي باشا الصدر السابق وبيعت مع بعض التحف بعد ما قتل . ما اكثر تقلبات الدهر يقال انها كانت للسلطان مصطفى . نعم كانت للسلطان مصطفى فاهداها الى ازمير لي باشا اما انا فاشتريتها بمالي . كل ما عندي اشتريتهُ بمالي لاني اكره المهاداة فان الهدية بلية على ما يقال فانت الآن تشرب القهوة في فنجان من الصين وظرف كان يشرب منهُ السلطان مصطفى غفر الله لهُ

وكان الامير احمد يعرف هذا الرجل وحبهُ للفخر والمباهاة ولذلك لقب ابا فخر فلم يسوءْهُ كلامهُ لكنهُ ودَّ تقصير الزيارة على قدر الامكان فلم يكد يشرب القهوة حتى نهض وقال تعذرني الآن يا ابا فخر لان لا بدَّ لي من رؤْية دولة الوالي

فقال احسنت وان اردت فانا اذهب معك اليهِ ولكن قد حانت صلاة العصر ولا بدَّ لي من الذهاب الى الجامع لاني لا اترك الصلاة مطلقاً فعلى الطائر الميمون

فودعهُ الامير بعد ان طلب اليهِ ان يشرفهُ الى الشويفات وركب جوادهُ وسار الى دار الولاية واقام مع الوالي نصف ساعة دار فيها الحديث على شؤُون الجبل وكان الوالي يتودَّد اليهِ على خلاف عادتهِ وقال لهُ انتم سيف الدولة ولا غنى لنا عنكم ولا غرض لنا الاَّ استتباب الامن في البلاد وكف يد الاجانب عنها ولا بدَّ للدولة من ذلك مهما كلفها ونصيحتي لك ان تكون في خاطرها مثل ابناء عمك

فقال الامير نحن لا نخرج عن خاطر الدولة لان طاعتها فرض علينا ولكن يا حبذا لو فضَّت هذه المشاكل من غير حرب اهلية

فقال الوالي هذا الذي نودهُ ولكن اذا كان لا بدَّ من الحرب الاهلية فالدولة لا تتغاضى عنكم لانها لا تترك الحزب القوي ليفتك بالضعيف وقد ابنت رأْيي بالاسهاب لشيخ العقل ولا بدَّ من ان يجمعكم ويبسطهُ لكم ولا اخفي عليك ان ترددك على القنصل لا يرضينا

فقال الامير كيف ذلك والذي اعلمهُ ان دولة الانكليز من اشد الدول صداقة لدولتنا العلية

فقال الوالي نعم هي كذلك ولكن ليس كل رجالها على رأْي واحد

قال ذلك وصمت فعرف الامير ان مدة الزيارة انقضت فقام وودع فوقف لهُ الوالي وشيعهُ الى باب الغرفة التي استقبلهُ فيها على خلاف عادتهِ . وكان هذا الحديث باللغة التركية لان الامير احمد تعلمها لما كان في الاستانة مع ابيهِ وهو يحسن التكلُّم بها كما يحسن التكلَّم بالفرنسوية وكان العصر قد اذن فركب جوادهُ وعبداهُ معهُ وسار راجعاً الى الشويفات في الطريق الذي جاء فيهِ . وكان يفكر في كلام القنصل المسهب وكلام الوالي الموجز

واحوال الجبل وما يمكن ان تأول اليهِ اذا نشبت فيهِ حرب اهلية تسفك فيها الدماءُ وتحرق البيوت . وراجع ما كان من نتائج الحروب الاهلية السابقة وكلها ضعف على ضعف وذلٌّ على ذل فقال لا بدَّ لي من اتباع نصيحة القنصل وحمل ابناء عمي على اتباعها . ووصل الى نهر الغدير وهو تائه في فيافي الافكار وحانت منهُ التفاتة فرأى نسوةً جالسات وراء مطحنة نخفق فؤَادهُ وغض طرفهُ وظل سائرًا

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب وانتشر ذهب الاصيل على ربى لبنان والبس الافق طرازًا معلمًا من البرفير والارجوان

الفصل الثاني

بارقة الامل

في احوال الناس سرٌّ غامض لا ينطبق على قاعدة معلومة وهو الاتفاقات الكثيرة التي تقع على غير انتظار . يخطر على بالك رجل لم ترهُ منذ سنين كثيرة وفي الساعة التي يخطر على بالك فيها تراهُ آتيًا لزيارتك كأَن قوة روحية تقدمتهُ ووصلت اليك فأَعلمتك بقدومهِ

وتفتش عن عبارة قرأْتها في كتاب فتقع عينك عليها حالما تفتح الكتاب وقد تفتش عنها مرةً اخرى فلا تجدها الاَّ بعد العناء الطويل فكيف اتفق ان عثرت عليها في المرة الاولى

وينشغل بالك بامر هام وترتبك فيهِ ولا ترى وجهًا لحلهِ ثم تقابل احد اصدقائك اتفاقًا او رجلاً لا تعرفهُ ولم ترَهُ قبلاً فتجد عندهُ حل المشكل والخبر اليقين كأَنهُ سُخر لخدمتك وقت حاجتك اليهِ

على هذا النمط كان الامير احمد في نظر السر هنري بدمونت فلم يكد يخرج من دار القنصليَّة حتى دخل السر هنري مكتبهُ وعاد الى اتمام الكتاب الذي شرع في كتابتهِ الى امهِ ذاكرًا فيهِ خلاصة ما جرى لهُ يومًا بعد يوم من حين وصولهِ الى بيروت . وكان قد اخبر امهُ عن كل ما رآهُ وسمعهُ من حين قدومهِ وعن درسهِ جغرافية البلاد من بيروت الى صيداء وتعيينهِ مكان الواقعة التي جُرح فيها جدّهُ الاعلى كونت بدمونت لما اوفدهُ ملك الانكليز الملقَّب بقلب الاسد لفتح بيروت فقد عين مكان الواقعة بالتدقيق وكانت تقاليد عائلتهِ تجعلها قرب نهر الدامور المعروف عند الاقدمين باسم تاميراس او داموراس حيث حدثت المعركة الدموية المشهورة بين انطيوخس ملك سورية ونيقولاوس قائد الجيوش المصرية فدارت الدائرة

على الجنود المصرية وقتل منها الفا رجل وأُخذ الفا اسير وعادت فلولها الى صيداء وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٢١٨ سنة . لكنهُ وجد ان شكل الارض هناك لا ينطبق على الوصف الذي وصفها بهِ ولف خادم جدهِ بل ينطبق على جهات خلدة حيث تكثر نواويس الحجر التي ذكرها ولف في وصفهِ ولا عبرة بما جاء في دليل اورشليم من ان خلدة على اثني عشر ميلاً رومانيًا عن بيروت لان الاسم القديم وهو هلدوى ينطبق على الاسم الجديد فالواقعة حدثت قرب خلدة وجدهُ لجأ الى كهف من الكهوف التي قرب الشويفات ولا بدَّ من ان تكون رفاتهُ هناك حتى الآن لان خادمهُ ولف سدَّ باب الكهف الداخلي عليهِ بعد ان لفهُ بردائهِ

ولما قابل السرهنري الامير احمد وعرف انهُ من امراء الشويفات شعر كأن بارقةً من الامل بدت امام عينيهِ ثم لما علم انهُ من طائفة الدروز اصحاب الطريقة السرية الخاصَّة بهم كادت نفسهُ تطير حبورًا وجعل يسترق اللحظ ويتفرَّس في وجههِ . وكان الكولونل روز يعلم انهُ مغرَم بالمباحث التاريخيَّة والاثرية فاشار الى عائلة الامير وقال للسرهنري لا يبعد ان يكون جدك كونت بدمونت قد التقى بجد الامير منذ سبع مئة سنة في ضواحي هذه المدينة وقد يكون بينكما ثارات واخاف ان تتقاضياها الآن

فتبسم السرهنري وقال اما الآن فاننا في جوار الامير والعرب يرعون الجوار ويحمون الجار . فقال الامير بل انا في حماكم وضيف عليكم

فقال الكولونل ان السرهنري جاء هذه البلاد للتفتيش عن رفات جدهِ لانهُ توفي فيها على قول خادمهِ بعد ان قُتل اكثر رجالهِ وأُسر من بقي منهم حيًّا وارجو ان تبذل جهدك لكي ينال بغيتهُ

فقال الامير حبًّا وكرامة اني من الساعة في خدمتهِ باذل جهدي في تحقيق بغيتهِ

فشكرهُ السرهنري على مروءَتهِ وكرم اخلاقهِ واتفق معهُ على ان يزورهُ بعد يومين ليريهُ ما حول الشويفات من الكهوف القديمة

وذكر السرهنري هذه الامور كلها لامهِ وهو يعجب من هذا الاتفاق الغريب ويقول اني موفَّق باذن الله الى ان قال لها : — فاذا عدت ومعي الوثيقة وختم قلب الاسد عليها فلا يبقى لي منازع في كونتية بدمونت ولا يبقى اعتراض لاقلين ولا لامها . اواه يا اماه لو تعلمين كم اقاسي من هذا البعاد وقد آليت على نفسي ان لا اكتب الى اقلين حتى اجد الوثيقة . قال ولف انها من الفضة وعليها ختم قلب الاسد وانهُ وضعها على صدر سيدهِ لما لفهُ بردائهِ هذا هو الخبر المسلسل في تاريخ العائلة وان باب المغارة الى جهة الشمال الغربي وقد سدها من

الداخل علي اسلوب يظهر منهُ ان نهايتها هناك لا بد وان اهتدي اليها ان شاء الله . وهذا الامير شاب في نحو الرابعة والعشرين تلوح على وجههِ لوائح الشهامة وعزة النفس وهو يحسن الفرنسويَّة ولا بدَّ من انهُ يحسن لغتهُ العربيَّة والكولونل روز يكرمهُ كثيرًا وقال لي ان اباهُ كان من اخلص الناس لنا لكنهُ يخشى ان لا يكون مثل ابيهِ لان الذين علَّموهُ اللغة الفرنسوية اثروا في ذهنهِ فضلاً عن ان اللغة وآدابها تكفي لهذا التاثير . ولا ادري لماذا لا يسعى رجالنا في نشر اللغة الانكليزيَّة وتعليمها لابناء الامراء والعظماء كما يسعى الفرنسويون في نشر لغتهم فاننا اذا فعلنا استفدنا تجارةً وسياسةً . وقد رأيت كثيرين هنا يتكلمون الفرنسويَّة والايطالية ولم ارَ احدًا يتكلم الانكليزيَّة من ابناء البلاد غير اثنين او ثلاثة ولا احد يهتم بتعليم اللغة الانكليزيَّة غير بعض المرسلين الاميركيين . وسازور الامير بعد غد واكتب اليكِ عن زيارتي لهُ بالتفصيل . ثم فصَّل لها كيفية سفرهِ من الاستانة العلية الى بيروت لكنهُ لم يذكر لها شيئًا عن المهمة السياسية التي جاء لاجلها

وكانت الباخرة الفرنسويَّة علي اهبة السفر فطوى الكتاب وارسلهُ مع مكاتيب القنصليَّة وركب هو والقنصل جوادين وخرجا للنزهة علي رمل بيروت الى ان بلغا البحر ورأيا غروب الشمس وقد امتدَّت اصابع الشفق حتى بلغت الافق الشرقي وهو منظر بديع قرأ عنهُ في الكتب ولكنهُ لم يرهُ قبل الآن فقال ما اجمل هذا المنظر وما ابدعهُ للتصوير اين مصورو الطبيعة يأتون هذه البلاد فيرون فيها كل يوم منظرًا بديعًا تعجز الوانهم عن تصويرهِ

فقال القنصل نعم هي كما تقول وفوق ما تقول ومتى جاء فصل الربيع تتعشقها تعشقًا وما هضاب اسكتلندا وجبال سويسرا شيئًا مذكورًا في جنب جبال لبنان وهضابهِ ولكن انظر كيف صار اقرع اجرد من توالي المحن وهذه المدينة التي كانت من اعظم المدائن الرومانية تكاد اعلامها تندرس ولولا الاصلاح القليل الذي نالها في زمن الدولة المصرية لصارت اثرًا بعد عين . اين ارز لبنان وبلوط باشان اين المعاقل والمصانع لا ترى مكانها غير اديرة الرهبان ومزارع الفلاحين . اما دور الامراء والمشايخ فلا تذكر في جنب ما كانت عليهِ قصور الامراء في سالف الزمن . اين المدارس والمشاهد التي كانت بيروت غاصَّة بها في عهد الرومان لم يبقَ منها غير بعض الاعمدة الكبيرة مبثوثة بين الخرائب والانقاض دالة على عظمتها السالفة

فقال السر هنري أَوَ تبقى الحال على هذا المنوال

فقال القنصل كلاَّ لان دوام الحال من المحال فان لم تفلح مساعينا احتلَّت فرنسا البلاد كما تعلم وان افلحت فلا بدَّ لنا من وضع حد لسوء الادارة

الفصل الثالث

الغداء على الغدير

الى الشمال الشرقي من الشويفات قرية كبيرة تفضلها في غزارة مائها وكثرة بساتينها ولو قلَّت عنها في عدد سكانها ونخامة مبانيها وهي قرية كفرشيما او قرية الفضة . نزلها الامراء الشهابيون من قديم الزمان كما نزل الارسلانيون الشويفات . وبنى الشهابيون الدور الكبيرة واعتنوا بغرس الجنائن والبساتين فيها وفي ما جاورها من رياض الغدير وهو نهر شتوي يفيض في الشتاء حتى يطمَّ على الربى ويجفُّ في الصيف حتى لا تبقى فيهِ نقطة ماء

في دار من دور كفرشيما امير من آل شهاب اسمهُ الامير عباس لم يتنصَّر مع اخوتهِ وابناء عمهِ بل بقي على الاسلام مثل اقاربهِ في حاصبيا ووادي التيم وكان عندهُ خطيب يصلي وراءهُ لكنهُ كان سمحاً لا يجادل اخوانهُ الاَّ بالتي هي احسن ولا منع زوجتهُ واولادهُ من التنصُّر بل كانت زوجتهُ شديدة التمسُّك بالنصرانية والاكرام لقسوسها . وكثيراً ما قصدهُ مطران بيروت وتجادلا طويلاً ثم انتهى الجدال بينهما بقولهِ لكم دينكم ولي ديني فيتركان الجدال ويعودان الى وصف الدخان الجبيلي والشقيفي فان المطران كان مولعاً بالاول والامير بالثاني وكانا كلاهما مغرمين بالسعوط ومع المطران حقَّة مرصعة بالماس اهدتها اليهِ الامبراطورة اوجيني زوجة الامبراطور نبوليون الثالث لما زارها في فرنسا فلم يكن يسعهُ الاَّ استنشاق السعوط منها من وقت الى آخر وتقديمها الى الامير حتى يرى حجارة الماس على غطائها والامير يقدم لهُ حقَّة سوداء سادجة من صنع الصين لكن حملة شبقهِ كانت من الكهرباء وتحتها حلقات من الجزع والعقيق مرصعة بالذهب . والشبق نفسهُ قضيب طويل من الورد الاخضر يقطعهُ ويثقبهُ بيدهِ وقد غرس ورداً كثيراً في حديقة دارهِ لهذه الغاية فلا تلبث القصبة في يدهِ يومين حتى يبدلها بغيرها قبلما تجف

وكان للامير عبَّاس ابنان وابنة اسمها سلمى وفي اليوم الذي مضى فيهِ الامير احمد ارسلان الى بيروت لمقابلة الكولونل روز قامت الاميرة سلمى وطالبت امها بوعدها وهو النزول الى الغدير للنزهة وتناول الغداء هناك لان مطر الخريف كان قد كسا الارض بساطاً سندسيًّا وظهر زهر العصفر فدبَّجهُ بطراز معلَم . فنادت امها جاريةً اسمها زهرة وقالت لها قولي لمرجان اننا نازلتان الى الغدير وقولي للخزندار ان يرسل غداءنا الى هناك ويدعو ام يوسف لتوافينا اليهِ . وارسلت سلمى الى صفا ابنة عمها تدعوها الى النزهة معهما . ثم ركبت

الاميرة هند وابنتها وابنة سلفها خيولاً عربية مطهمة تتهادى بما عليها من الحلى ونزلنَ الى الغدير ونزل معهنَّ مرجان وبيدهِ نارجيلة جوزتها من البلور المطرَّش وقلبها من الفضَّة والذهب وقد علَّق على جنبهِ كيس التنباك من المخمل الاحمر المزركش بالقصب ونزلت زهرة ومعها طاس من الفضَّة وجارية اخرى بطاس آخر وخادم يحمل سجادتين وساروا الهوينا وقد تكبَّدت الشمس السماء فلم يصلوا الى الغدير الاَّ قبيل الظهر . ثم تبعهم بعض الخدم والحشم ومعهم ما طهاهُ الطهاة من فاخر الطعام وسلتان من العنب والليمون . فمدُّوا سماطاً للاميرات ووقفت الجواري في خدمتهنَّ حتى اذا اكتفين من الطعام واكلن الحلوى والفاكهة اتكأنَ يتطارحنَ الحديث . وكانت ام يوسف من افكه نساء القرية حديثاً واوسعهنَّ رواية فلا يطيب للشهابيات عيش بدونها فيدعونها من بيت الى بيت ولا يخرجنَ للنزهة الاَّ وهي معهنَّ تطرفهنَّ بالاحاديث المختلفة بعضها صحيح وبعضها مختلق او مزوَّق فحدثتهنَّ تلك الساعة عن اعمال السحر والتعزيم التي كان يعملها الشيخ بشير تلحوق وكان من اعلم اهل زمانهِ وامهرهم وادهاهم . ومما قصَّتهُ عنهُ انهُ كان يضع ابريقاً بين رجلين ويتلو عليهِ بعض الآيات من القرآن والزبور فيدور الابريق من جهة الى اخرى من تلقاء نفسهِ بقوة السحر وانهُ كان يوقف عصاهُ فتقف ثم يأمرها فتدور امام الجلوس من امام واحد الى امام آخر من غير ان يلمسها احد . ويضع ابريقين في زاويتين من زوايا الغرفة واحداً ملآناً والاخر فارغاً ثم يتلو بعض الآيات فينتقل الابريق الفارغ من مكانهِ ويسير الى مكان الابريق الملآن ويسير الابريق الملآن من مكانهِ الى مكان الابريق الفارغ هذا والناس ينظرون ويعجبون ولا يشكُّون انهُ يفعل ذلك بقوة سحرية . ويضع بيضة في اناء ويسلقها فتثب من الماء الغالي من نفسها وتبعد عنهُ . واعجب من ذلك قدرتهُ على شفاء المجانين من جنونهم لكنهُ لا يستطع ذلك ما لم يقفل باب غرفتهِ عليهِ ويبقى فيها عشرة ايام او اكثر صائماً جاهداً واخيراً يأتيهِ ملك الجن ويقول لهُ اطلب ما تريد فيقول الشيخ ان فلاناً اصيب بالجنون واطلب منك ان تساعدني على شفائهِ فيقول لهُ ملك الجن لبَّيك وسعديك قد اجيب طلبك . ولما تورَّمت امرأة الشيخ احمد تلحوق حتى ظُنَّ انها حامل وطال الزمن عليها ولم تلد ولا شفيت من الورم امرَّ الشيخ بشير يدهُ عليها فشفيت للحال وزال الورم كلهُ وأُتي اليهِ بالشيخ يوسف تلحوق وهو مجنون جنوناً مطبقاً فابقاهُ عندهُ يومين ثم ارجعهُ الى بيتهِ صحيح الجسم والعقل

وكانت كلما اوردت قصَّة من هذه القصص تستشهد على صحتها باسماء كثيرين من الرجال المعروفين في البلاد حتى لم تبقَ شبهة في نفس الاميرة هند وابنة سلفها ان كل ما كان الشيخ

بشير يفعلهُ هو من قبيل السحر الحقيقي اما الاميرة سلمى فقالت ان كان الشيخ بشير ماهرًا الى هذا الحد فلماذا لا يستعمل سحرهُ في ما ينفعهُ وينفع ابناء عمهِ وانا لو كنت مكانهُ اقدر ان استخدم الجن لجعلتهم يملكونني الدنيا

فصلَّبت امها على وجهها وقالت اسكتي ولا تتكلمي بهذا الكلام مَن منا ينكر الجنَّ ألم يستحضرهم عمكِ مرة ولما رآهم ملأُوا المكان الذي كان فيهِ وضاق بهم ذرعًا وهم يرقصون حولهُ لم يرَ سبيلاً لصرفهم عنهُ الَّا بان امرهم ليذهبوا وينقبوا لهُ الارض التي فوق نهر بيروت فذهبوا ونقبوها كلها في ساعتين من الزمان ولكنهم جعلوا جلالها ممتدةً عرضًا من اعلى الى اسفل فلا تصلح للزرع ولا لشيءٍ ثم عادوا اليهِ يطلبون عملاً يعملونهُ لهُ فحار في امرهِ واخيرًا التفت الى ما حولهُ فرأى بلاسًا اسود فقال لهم خذوهُ واغسلوهُ لي حتى يصير ابيض فمضوا بهِ يغسلونهُ وحتى الآن لم يعودوا ولولا هذه الحيلة لخطفوا روحهُ

فصادقت ام يوسف على كلامها وقصَّت عليهنَّ قصَّة القديسة هندية التي كان ملك الجان يأتيها ليلاً في شكل تيس من المعزى فتركب عليهِ وتذهب بهِ الى بلاد الصين وتعود منها بالحرير تدفعهُ الى الخواجه جاماتي وتذهب وترجع في ليلة واحدة من غير ان يشعر بها احد. قالت وقد اغتنى الخواجه جاماتي من الحرير الذي جلبتهُ لهُ من بلاد الصين وها دارهُ امامنا على قمة سبنيه ولولا ذلك ما استطاع رجل فلاَّح ان يبني دارًا مثل دور الامراء

فقالت الاميرة سلمى سمعت ابي يقول ان الجاماتي كان يدين الامراء ويستدُّ الحرير منهم بثمن بخس ثم يبيعهُ لتجار الافرنج بثمن غالٍ وهذا سبب غناهُ

فقالت لها امها من اين عرف ابوكِ ذلك والجاماتي نفسهُ يقول ان الحرير يأتيهِ من الصين

فقالت الاميرة صفا الحق مع سلمى وانا سمعت ان ميخائيل طوبيا صار اغنى من قارون من مشتراهُ الحرير من الامراء والفلاحين بثمن بخس وبيعهِ لتجار الافرنج في مرسيليا

فقالت ام يوسف انا لم اسمع ان ميخائيل طوبيا استخدم الجن مثل الجاماتي ولكن لا احد ينكر السحر واستخدام اللعين خزاهُ الله. ثم قصَّت قصة رجل اراد آخر ان يقتلهُ غيلة فاتى احد السحرة وكتب لهُ كتابة سحرية على قطعة من الشحم ومضى وعلقها في مغارة عميقة فجعلت الكتابة السحرية تذيب الشحم رويدًا رويدًا وكلما ذاب منهُ شيءٌ نحل جسم الرجل حتى كاد يموت سلاًّ وعجز الاطباء عن شفائهِ واخيرًا استشاروا لهُ احد السحرة فعرف بسحرهِ امر الشحمة ففتشوا عنها حتى وجدوها ونزعوا الكتابة عنها فسلم الرجل من الموت ثم شفي ولولا ذلك لمات لا محالة

فقالت سلمى اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يستعين الولاة بالسحر على التخلص من اعدائهم بدل المخاطرة بانفسهم ورجالهم . انا لا اصدق شيئاً من ذلك

فقالت ام يوسف هاكِ قصة جرت للمرحوم ابي يوسف بالقرب من المكان الذي نحن فيهِ الآن . كان ذات ليلة راجعاً من بيروت وكان القمر بدراً فلما وصل الى الورواز سمع غناءً وزغردةً فظن ان على الطريق اناساً آتين بعروس ثم لما قرب من المطحنة علا الصوت كثيراً واتاهُ اربعة اولاد وهم يصفّقون ويغنون ويقولون يا ابا يوسف يا ابا يوسف تعال انظر العروس فسار معهم رغماً عنهُ حتى اذا وصل الى قرب الماء رأى عروساً مجلوّةً وحولها جمهور غفير من الرجال والنساء وهم بالحلى والحلل فقبضوا عليهِ وقالوا لهُ هلمَّ نكتب الكتاب فصلَّب يدهُ على وجههِ فانشقّت الارض وابتلعت العروس وكل الذين كانوا معها . ولما قالت ام يوسف ذلك ارتجفت مفاصل الاميرة هند والاميرة صفا واما سلمى فقالت ان معلمي قصَّ عليَّ قصة من هذا القبيل وهي انهُ كان سائراً مرةً في طريق لم يسر فيهِ من قبل فوصل الى بئر سمع صوتاً خارجاً منها فاطلَّ واذا في قعر البئر نساءٌ يستقين ماءً فلم يشكَّ انهنَّ من الجن فاسرع العدو ولما اتمَّ غرضهُ من المكان الذي كان ذاهباً اليهِ خاف ان يعود في الطريق الذي ذهب فيهِ فعاد في طريق آخر يمرُّ من تحت البئر وكان هناك درج يوصل الى اسفل البئر والنساء ينزلن بهِ ويستقين من الماء فلو لم يمرَّ في ذلك الطريق لاعتقد انهُ رأى نساء الجن في البئر

فقالت لها امها لا يمكننا الاَّ التصديق بوجود الجن وابوكِ يصدق بوجودهم والمطران ايضاً وكل احد يصدق بوجودهم وهم الذين رجموا بيت خالكِ بالحجارة فقد فتشنا عن الراجمين كل مكان ولم نرَ احداً . وقالت الاميرة صفا دعونا من هذا الحديث فقد صرت اخاف من خيالي ولا يمكنني ان انام وحدي الليلة

وقصَّت ام يوسف عليهنَّ قصصاً اخرى مضحكة فاطربتهنَّ بعد ان خوَّفتهنَّ بقصص السحر والجن فمضى النهار ومالت الشمس الى المغيب وهن لا يشعرن. ولما مرَّ الامير احمد والتفت اليهنَّ ثم غضَّ طرفهُ نظرت ام يوسف الى الاميرة صفا ثم نظرت كلتاهما الى الاميرة سلمى فرأتاها قد احمرَّت واطرقت الى الارض فتغامزتا ولم تقولا شيئاً . وكان العبيد قد اتوهنَّ بالخيل فركبنَ وعدنَ الى بيوتهنَّ

ودخلت الاميرة هند غرفة ابنتها في المساء وقالت لها اين كان احمد يا ترى الظاهر انهُ لم ينظرنا أَلم تغيري فكركِ من جهتهِ تقول خالتكِ ان عمهُ واولاد عمهِ يحسبونهُ رئيس العائلة وركنها

فقالت سلمى نعم ولكنهُ درزي وفوق ذلك فانا لا اميل اليهِ مهما كان

فقالت امها وابوكِ لا يرضى بمجيد لانهُ شاب خليع

فقالت سلمى وَمن قال اني اريدهُ. انا لا اريد احداً ولا اريد ان افارقكِ وافارق ابي

الفصل الرابع

ما وراء الستار

في دار نخيمة من دور الاستانة العلية التي تطلُّ على البسفور اجتمع جماعة من وكلاء الدولة وكبار العلماء . اتوها خفية الواحد بعد الآخر واوصدوا الابواب وجلسوا ينظرون في احوال السلطنة وما آلت اليهِ من الضعف وجعل كلٌّ منهم يقصُّ القصص المختلفة عن احوال البلاد التي لهُ فيها اصدقاء يكاتبونهُ منها او التي كان مأموراً فيها . وبعد ان نظروا في الداء مليًّا في قلَّة موارد الخزينة وفي ما آلت اليهِ حال الجيش بعد عودتهِ من حرب القرم وفي الاعتداء على الحدود اخذوا ينظرون في الدواء فاشار واحد منهم ان يعيدوا قراءة الفاتحة وقسم اليمين المغلظة بان لا يبوح احد منهم بكلمة مما قيل ويقال في ذلك الاجتماع فقرأُوها واقسموا كلهم على الكتمان واتباع الخطة التي يقع الاجماع عليها . ولا يُعلم حتى الآن ما هي الاقوال التي قالوها والآراء التي ارتأوها ولكن يعلم انهم اجمعوا اخيراً على ان يعملوا عملاً يغيظ الدول الاوربيَّة ويجعلها تساعدهم على تغيير الحالة . وكان بعض المأمورين في سوريَّة من حزبهم فبعثوا اليهم من اطلعهم على القرار الذي اجمعوا عليهِ . واهالي سوريَّة غافلون وسكان لبنان منهم لا ينبذون ضغائنهم واحقادهم التي اضعفتهم واذلتهم فتعبث بهم الاهواء وينقادون صاغرين الى كل من يدعي زعامتهم وكيف لا تكون الحال كذلك وقد تسلط عليهم الجور والظلم قروناً طوالاً ولسان حالهم يقول

احيا الضغائن آباءٌ لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء ابناء

فاتفقت الكلمة في ذلك الاجتماع على ايقاد نار الثورة وان يكون القصد منها التنكيل بالنصارى لا انتقاماً منهم بل لغرض سياسي . وهذا شأن رجال السياسة في كل زمان يبيعون النفوس بيع السماح لاغراض يقصدونها ولولا ذلك ما كان لنصف الحروب والثورات سبب معقول . وهم على هذا النمط من سالف عهدهم وانما يختلفون في الاساليب التي يستدعونها وقلَّ من يستطيع ان يجاهر بالشكوى منهم او يقول كما قال ذاك الاعرابي لعمر بن عبد العزيز

ان الذين بعثتَ في اقطارنا نبذوا كتابك واستُحلَّ المحرمُ
طلسُ الثياب على منابر ارضنا كلٌّ يجور وكلهم يتظلمُ
واردت ان يلي الامانة منهمُ عَفٌّ وهيهات الامين المسلمُ

او مَن يقول ما قالهُ المنصور قبلما ولي الخلافة

حتى متى لا نرى عدلاً نسرُّ بهِ ولا نرى لولاة الحق اعوانا
مستمسكين بحق قائمين بهِ اذا تلوَّن اهل الجور الوانا
يا للرجال لداء لا دواء له وقائد ذي عمًى يقتاد عميانا

ولا تحسبنَّ العمران الغربي مزيلاً لهذه الشكوى وشافياً من هذا الداء كلاَّ بل ان مطامع اهل الغرب تفوق مطامع اهل الشرق ودهاتهم من رجال المال ورجال السياسة يتذرَّعون الى نيل مآربهم بكل وسيلة ويستحلون كلَّ عمل فيدخل روَّادهم بلادًا بعيدة ويخاتلون صاحبها حتى يعاهدهم معاهدة لا بدَّ لهُ من الاخلال بها ثم يتعقبونهُ الى ان يستولوا على بلادهِ او على خيراتها بحجة مخالفتهِ لذلك العهد · ولا بدَّ من ذلك ما دام هذا التنازع للبقاء سنَّةً للكون

في غرفة من غرف الدار الكبيرة التي يسكنها الامير احمد ارسلان وقد سكنها ابوهُ وجدهُ من قبلهِ جماعة من الامراء والمشايخ والعقَّال اجتمعوا على اثر عودة الامير احمد من عند الكولونل روز وتداولوا في احوال الجبل فقصَّ عليهم الامير ما قالهُ لهُ الكولونل وما قالهُ الوالي وجعل كلٌّ يبدي رأْيهُ ويعيد تاريخ الجبل ويذكر اسباب الاحقاد القديمة من عهد آل تنوخ وآل معن وتعرُّض الدول الاوربية لابرهيم باشا وكيف استتبت السلطة للباب العالي على البلاد بمساعدة دولة انكلترا ولولاها ما استطاعت الدولة العلية ان تخرج ابرهيم باشا من بلاد الشام بل كان نصف رجال الدروز الآن منتظمين في سلك الجنود المصرية . وبعد كلام طويل في هذا الشأْن تناول الحديث شيخ اشيب من التلاحقة وقصَّ عليهم ما فعلهُ السنيور ود قنصل الانكليز في دمشق الشام منذ ثماني عشرة سنة لما هرب الامير امين ارسلان والامير اسعد شهاب ونحو الفين من الدروز الى حوران فرارًا من عمر باشا الذي اعتقل امراء الدروز ومشايخها وكاد يوقع بكل عظيم منهم فان والي الشام اوجس منهم شرًّا لاسيما وانهُ يعلم ما فعل الدروز بعساكر ابرهيم باشا في تلك البلاد الوعرة فجمع اعوانهُ واستشارهم في الامر فاشاروا عليهِ ان يلجأَ الى السنيور ود لكي يقنع الدروز بالعودة الى الطاعة والرجوع الى

اوطانهم . والظاهر ان السنيور ود سرَّ بذلك لانهُ كان يود ان يتوسط امر الدروز من نفسهِ ويخشى ان لا تقبل وساطتهُ على حد قولهم كل معروض مرفوض فقبل الوساطة على شرطين الاول ان يُطلب العفو لاولئك الرجال من الباب العالي . والثاني ان يؤمنوا على ارواحهم الى ان يأْتيهم العفو . فقال لهُ الوالي احمد باشا اني اسمح لهؤلاء العصاة ان يقيموا في دار القنصلية الى ان يصل فرمان العفو من الباب العالي وأُطلق كل اقاربهم الذين قبض عليهم وادعهم يقيمون معهم في دار القنصلية

فبعث السنيور ود ترجمانهُ الى حوران ومعهُ امر الوالي بالمهادنة الى حين وصول العفو من الاستانة وكتب معهُ الى الامراء والمشايخ ضامناً لهم سلامتهم بناءً على ضمانة الوالي لهُ وناصحاً لهم لكي يسلموا وينزلوا الى دمشق . وبعد ايام قليلة عاد الترجمان ومعهُ الامير اسعد شهاب (وكان قد انضمَّ الى الدروز لانهم وعدوهُ بالولاية على الجبل) والشيخ يوسف عبد الملك وغيرهما من مشايخ الدروز وسبعمائة من اتباعهم . ومضى السنيور ود الى الوالي بمشايخ الدروز فرحَّب الوالي بهم واعطى كلاًّ منهم شالاً من الكشمير علامة العفو والرضا . ثم وصل بقية الدروز فضاقت بهم دار القنصلية ورأى السنيور ود انهُ يستحيل عليهِ ان ينزلهم كلهم في دارهِ الى ان يرد العفو من الاستانة فسمح لهم الوالي بالعودة الى بلادهم ما عدا سبعين من رؤَسائهم بقوا في دمشق منتظرين فرمان العفو . وبعد شهرين جاء الفرمان المنتظر وفيهِ امر صريح بالقبض على اولئك المشايخ وقتلهم وارسال رؤُوسهم الى الاستانة وكان احمد باشا قد عُزل من ولاية دمشق وولي علي باشا بدلاً منهُ فجاء كاخيتهُ الى دار القنصلية قبلما اشتهر ما في الفرمان وقال لمشايخ الدروز على مَ انقطعتم عن التردد على دولة الوالي فتفضلوا واشربوا فنجان قهوة فانخدع الشيخ يوسف عبد الملك بهذا الكلام وسار معهُ الى دار الولاية فقبض عليهِ حالما وصلها وبلغ السنيور ود ذلك فهرع الى دار الولاية وابى ان يجلس الّا ويطلق سبيل الشيخ فاخبرهُ الوالي بمضمون الفرمان ثم قرأهُ لهُ فالتفت الى احمد باشا وكان جالساً مع علي باشا وقال لهُ كيف كان الاتفاق بيني وبينك أَلم يكن على كذا وكذا وقصَّ على علي باشا واقعة الحال ثم قال لاحمد باشا انك لو ذكرت للباب العالي واقعة الحال كما وقعت تماماً لجاء الفرمان بالعفو حتماً . فاجاب احمد باشا انني ذكرت لهم كل ما حدث بالتدقيق فكانت النتيجة كما ترى . وقال علي باشا لا بدَّ لنا من العمل بالامر العالي

فقال السنيور ود ان استطعتم ان تفعلوا ذلك فافعلوا ولكن اعلموا ان انكلترا لا تخفر ذمة قنصل من قناصلها

ثم احتدم الجدال بينهُ و بينهما ثلاث ساعات على غير طائل واخيرًا قالا لهُ انك ان لم تسلمنا كل الرجال الذين عندك برضاك اضطررنا ان نرسل قوة عسكرية ونستلمهم عنوةً

فاطرق برهة يفكر في امرهِ ثم قال لعلي باشا نحن اصدقاء منذ عهد طويل ولي عليك جميل لا تنكرهُ فاذا كان لا بدَّ لك من العمل حسب امر الدولة فارجو من فضلك ان تنذرني قبل ارسال القوة العسكرية بنصف ساعة حتى اخرج النساء والاطفال من دار القنصليَّة

فقال لهُ علي باشا وهل مرادك ان تقاومنا بالقوة

فقال القنصل حتمًا ولا بدَّ لي من الدفاع عن شرف القنصلية ولا يمكن ان تمسوا احدًا من كل الذين في حمانا ما دمت في قيد الحياة وانت تعلم ما يفعل اناس مسلَّحون مثلنا اذا وقعنا في اليأس ولا يخفى عليك ان الدولة الانكليزية لا تدع نقطةً من دمنا تذهب هدرًا فاذا شئت ان تلقي دولتك في المشاكل فافعل ما تشاء

ثم نهض وهمَّ بالخروج فطلب اليهِ علي باشا ان يتمهل واخذ يفكر في امرهِ ثم قال لهُ اني اعرف الانكليز واعرف مقدرتهم ولا اريد ان اكون سببًا للخلاف بينهم وبين دولتنا العلية فآخذُ العهدة على نفسي واوقف الامر العالي وغاية ما يصيبني العزل او الابعاد وهما اهون من حرب دولية

ثم امر بان يطلق سبيل الشيخ يوسف عبد الملك فعاد الى دار القنصلية بين ستة من القواسة . واجتمع اهالي دمشق يرون مقدرة قنصل الانكليز ويعجبون بها

قال المتكلم وبقينا في دار القنصليَّة سبعة اشهر لاني كنت في جملة من لجأ اليها الى ان جاء العفو من الاستانة وقد بلغنا ان العفو صدر منها بواسطة سفير الانكليز فاذا كان قناصل الانكليز وسفراؤُهم يحموننا ويدافعون عنا اينما كنا فكيف لا نسمع مشورتهم ولا نعمل حسب ارادتهم

وكان المتكلم شيخًا جليلاً مسموع الكلمة وكانت هذه الحادثة معروفة عند بعض الحضور فشهدوا بصحتها وكاد ينفضُّ الاجتماع على ان لا يحركوا ساكنًا ولا يأتوا عملاً من شأنهِ اثارة حرب اهلية في البلاد ولكن قال واحد منهم قبل انفضاض المجلس هب ان خصومنا اعتدوا علينا وتكرَّر اعتداؤُهم فهل نصبر على الضيم فأجاب اكثر الحضور كلاَّ كلاَّ . ثم اتفقوا على ان يرسلوا خبر ما قرَّ عليهِ قرارهم الى الخلوات كلها في الجبل ووادي التيم وحوران

ستأتي البقية

الفصل الخامس

سورية في البارلمنت الانكليزي

غطى الضباب مدينة لندن ووقفت المركبات عن السير والناس عن المشي ولم تعد المصابيح تُرى في الشوارع فلم يصل الأعضاء الى دار البارلمنت الَّا بشق الانفس . ولما انتظم عقدهم وجلس كلٌّ في مكانهِ حسب درجتهِ دارت المجادلات على نتائج الحرب بين النمسا وسردينيا ومعاهدة زورك وتنازل امبراطور النمسا عن لمبرديا للامبراطور نبوليون الثالث الذي اعطاها لسردينيا وعلى ماجريات الحرب الاميركية الاهلية والقبض على جون برَوْن الذي غنم الترسانة الاميركية بعد ان قُتل نصف رجالهِ . وعلى ما جرى لسفراء انكلترا وفرنسا واميركا في بلاد الصين وهم ذاهبون الى بكين فصُدُّوا عن دخولها . وطال البحث في هذه المسائل الى ما بعد نصف الليل

وكان العضو النائب عن لنكشير قد طلب من مجلس النواب ان ينظر في ما شاع عن قرب نشوب الحرب في سورية وعما يقال عن دسائس بعض الدول الاوربية رغبة في احتلال تلك البلاد واقفال ابوابها دون التجارة الانكليزية . فلما حانت الفرصة للمناقشة في هذا الموضوع نهض وقال ان لنا في سورية تجارة واسعة فنرسل الى مدينة بيروت في السنة ما ثمنهُ اكثر من ستماية الف جنيه فاذا نشبت حرب اهلية هناك بارت تجارتنا واذا استولت عليها دولة اوربية فقولوا على تجارتنا السلام . وانا اسأل الرئيس عمّا عندهُ من الاخبار في هذا الصدد وعن التحوُّطات التي اتخذتها الحكومة لمنع هذا الضرر عن التجارة الانكليزية

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمَّة بهذا الامر تمام الاهتمام وقد عقدت لجنة للبحث فيهِ ومتى علمت الخبر اليقين لا تضن باطلاع المجلس عليهِ

فقال العضو اننا لا نكتفي باطلاعنا على الاخبار لان عملاءنا في تلك البلاد يكتبون لنا باخبارها كل اسبوع ونحن نعلمها كما تعلمها الوزارة وانما يهمنا ان تتخذ الحكومة التدابير اللازمة لمنع الحرب الاهلية وان تذاكر الحكومة الطامعة باحتلال سورية وتكف يدها عن ذلك

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذه المسائل كلها وهي ترجو ان تطرح على المجلس نتيجة اعمالها بعد وقت غير بعيد . ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان الوزارة تهتم بكل امر لهُ علاقة بنا ولكنها لا تكفل النجاح في كل امر لان زمام الدنيا ليس في يدنا

ونهض المستر غلادستون حينئذٍ وكان ناظرًا للمالية وقال ان مالية البلاد لا تمكن الوزارة

من عمل كل ما تتمناهُ ولكن الوزارة لا تضن بانفاق المال اذا كان انفاقهُ واجباً لتعزيز قوة البلاد وحفظ متاجرها . ثم قال ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان جيوشنا تحارب الآن في بلاد الصين مع جيوش الدولة التي اشار اليها ولنا كلينا مصلحة واحدة فلا ننتظر منها ان تسعى في عمل يكون من ورائهِ الاضرار بنا

ففهم الاعضاء مع كلامهِ تهديدًا خفيًّا ولكنهُ لطيف لا يؤاخذ بهِ

وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة برئاسة لورد رسل وزير الخارجية ونظرت في ما كتبهُ سفير انكلترا في الاستانة عن ثورة الافكار التي يراد بها خلع السلطان عبد المجيد باية واسطة كانت ولو بالتنكيل بالمسيحيين حتى تنهض دول اوربا وتنتصر لهم . وفي ما كتبهُ قنصلها في بيروت عن سعي فرنسا المتواصل في تحريض موارنة الجبل على مقاومة القوة بالقوة . ثم نظرت في تقرير غرفة التجارة عمّا تستوردهُ سورية من منسوجات انكلترا وما تصدرهُ اليها من الصوف وعرق السوس . وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرَّ رأيها على ما تكتب بهِ الى سفيرها في الاستانة والى سفيرها في باريس وخلاصتهُ السعي في منع الحرب الاهلية بكل واسطة ممكنة وحمل الدروز على الاخلاد الى السكينة وعدم الاغترار بمواعيد الولاة الذين يعدونهم بالمساعدة

وفي تلك الليلة اجتمع جماعة من الماليين عند واحد منهم ودار البحث على القرض الاخير الذي عقدتهُ فرنسا والقرض الثاني الذي طلبهُ فكتور عمانوئيل ملك سردينيا ليستعين بهِ على ضم ممالك ايطاليا بعضها الى بعض

فقال احد الحضور واسمهُ ابن حاييم ان القرض الاول مكّن فكتور عمانوئيل من التغلُّب على النمسا فاذا تيسَّر لهُ بهذا القرض الثاني ان يضمَّ ممالك ايطاليا بعضها الى بعض ويصير ملكاً عليها كلها نكون قد خدمنا اسرة سافوى خدمةً لا مثيل لها جزاء دفاعها عنّا

وقال آخر ليس من غرضنا ان نخدمهُ او لا نخدمهُ بل ان نستثمر اموالنا في بلاد نأمن عليها فيها . اما فرنسا فماليتها ثابتة وشعبها مجتهد مقتصد ولا خوف عليها مهما زاد دينها واما ايطاليا فبلاد فقيرة واكثر خيراتها تذهب الى خدَمة الدين فيها . ولو علمنا ان حياة كافور تطول عشرين سنة اخرى لوثقنا انهُ يصلح البلاد ويبني مالية الحكومة على اساس وطيد اما واحوال ايطاليا لا تزال مرتبكة والسلطة الدينية قوية فيها فلا يحسن المجازفة في تديين المال لها

وبعد اخذ وعطاء في هذا الموضوع اتفقوا على ان لا يكتتبوا باكثر من مئة مليون فرنك

ثم قال ابن حاييم كتب الينا الخواجه بخور من دمشق ان الاحوال فيها وفي بيروت

ليست على ما يرام وان دروز الجبل يستعدون للحرب الاهلية وقد استدان رؤساؤهم منهُ نحو خمسين الف جنيه بربا عشرين في المئة وطلبوا مئة الف جنيه اخرى وهو لا يرى مانعاً يمنع اعطاءهم اياها لانهم وعدوهُ برهن ضياعهم في البقاع وهي تساوي اضعاف ذلك . والدروز داخلون في ذمة انكلترا فلا يجسرون ان يهضموا لنا حقّاً عندهم

وقال آخر انني التقيت منذ ساعة باللورد فلان فاخبرني ان الوزارة باذلة جهدها في منع الحرب الاهلية من سورية وقد ارسلت الاوامر المشدَّدة الى سفيرها في باريس وسفيرها في الاستانة ليبذلا جهدهما في ما يمنع اثارة الحرب

فقال ابن حاييم ان تمَّ ذلك فهو اصلح لنا وان لم يتم ونشبت الحرب فلا بدَّ من ان تلجأ الدولة العثمانية الى التعويض على المنكوبين وخزائنها فارغة فينفتح امامنا سبيل آخر للكسب

الفصل السادس

التفتيش الاول

لما حان الوقت الموعود لذهاب السر هنري بدمونت الى الشويفات لزيارة الامير احمد والتفتيش عن المغارة التي فيها رفات جدهِ كونت بدمونت خاطب الكولونل روز في ذلك وطلب منهُ ان يسمح لهُ بذهاب الترجمان معهُ لئلاَّ يجد الامير احمد غائباً فيتعذَّر عليهِ التكلم مع احد لانهُ لا يعرف كلمة من العربيَّة . وقام في الصباح وركب جوادهُ وركب معهُ الترجمان ايضاً وقوَّاس من قواسة القنصلاتو وساروا نحو الشويفات فوصلوها بعد ساعتين من الزمان ولقوا الامير احمد في انتظارهم عند نهر الغدير ومعهُ جماعة من الامراء ابناء عمهِ والخدم والحشم فرحَّبوا بالسر هنري وساروا امامهُ وكان الامراء بالخيول المطهَّمة وقد غطوا سروجها بصفائح الذهب الوهاج فوق لبد الشعر الاسود وقلدوا اعناقها برصائف من الذهب لوسواسها نغم شجي تسمعهُ الاصائل وتطرب بهِ فيزيد اعجابها وتهاديها فتظنها ترقص رقصاً وهي تسير زميلاً . حتى اذا بلغوا دار الامير احمد استأذنوا السر هنري في نصب الميدان اكراماً لهُ وانقسموا قسمين وجعلوا يكرون ويفرون ويتراشقون بالجريد فطرب لذلك طرباً شديداً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء واشتدَّ الهجير فشكرهم على ما ابدوهُ لهُ وقال انهُ طالما تمنى ان يرى ميداناً مثل هذا يلعب فيهِ امراء البلاد على صهوات الصافنات الجياد . ثم ترجَّل وترجلوا ودخلوا ديواناً جلسوا فيهِ واستراحوا هنيهة وقدمت لهم الشربات والشبقات ومدَّ السماط وعليهِ فاخر الطعام وأُتي بعدهُ بالحلويَّات وكانوا ثمانيةً الامير احمد وخمسة من ابناء اعمامهِ

والسر هنري والترجمان . واكل السر هنري من كل الالوان واستطابها على دسمها وكان يكلم الامير احمد بالفرنسوية وهو يترجم لابناء عمهِ

واستراحوا بعد الطعام ساعة زمانية ثم التفت السر هنري الى الامير احمد وقال لهُ لا بد لي من العودة الى بيروت الليلة وارجو من فضلك ان ترسل معي واحدًا من اتباعك يريني ما حول بلدكم من المغاير. فقال الامير احمد انا اذهب في خدمتك فهل تريد ان نذهب راكبين او ماشيين . فقال السر هنري بل افضل ان نذهب ماشيين الّا اذا وجدت في ذلك مشقة او كان المكان بعيدًا جدًّا

فضحك الامير احمد وقال اني اجري النهار كلهُ وراء الصيد واحَبُّ ما عليَّ ان امشي معك لاسيما واننا مضطرون ان نصعد وننزل في اماكن لا تسير الخيل فيها . ثم قاما وودعا الحضور وسارا وحدهما قاصدين المغاير التي كان الامير احمد يمرُّ بها وهو يجري وراء الصيد فنزلا اولًا الى غربي القرية ودارا الى جنوبيها وشرقيها وهبطا في جهة كفرشيما ومشى معهما ثلاثة من خدم الامير وكانا كلما وصلا الى باب مغارة يراجع السر هنري ما قالهُ ولف خادم جدهِ عن وصف المغارة والجهة التي تطل عليها ويدخل الخدم المغارة ويخبرون عمَّا رأوهُ فيها واستمروا على هذه الحال نحو ثلاث ساعات الى ان اجهدهم التعب ومالت الشمس الى المغيب ولم يرَ السر هنري مكانًا ينطبق على الوصف الذي عندهُ

وبينما كان السر هنري والامير احمد يجوبان الشعاب والهضاب يفتشان عن المغارة التي دفن فيها الكونت بدمونت كانت الاميرة هند خالة الامير احمد قد ذهبت هي وابنتها وابنة سلفها الى نبع ماء في مكان بين كفرشيما والشويفات وتغدين هناك ثم تبعتهنَّ ام يوسف واتى معها رجل قزم كثير الهزل والمزاح يسمى عنتر وهو من افكه الناس حديثًا واسرعهم خاطرًا يقيم في دور الامراء للهزل والتهريج فلما وصل قال للاميرات خافت ام يوسف ان تخطفها الجن اذا اتت وحدها فاتت بي معها مع اني اكدت لها ان الجن تخاف منها ولو لم يكن ابو يوسف اعمى القلب ما وقع هذه الوقعة ولكن لا فولة مسوسة الّا ولها كيَّال اعمى

فانتهرتهُ ام يوسف وقالت اسكت ياخبيث وخلِّنا من لسانك ولا تذكر مسألة الجن فان الست سلمى لا تصدق بالجن ولا بالعفاريت

فقالت الاميرة صفا دعونا من سير الجن والعفاريت فاني خفت في المرة الماضية ولم انم طول الليل

فقال القزم الحق في يد الست صفا وانا اخاف من الجن لئلاَّ تخطفني . وعلي فيقه

ياست هند اتاكم ضيوف من اولاد عمكم ملأوا الدار

فقالت قبحك الله على هذه البشارة نحن نهرب من الناس والناس تلحقنا

فقال اذا اردتِ ان تتخلصي منهم فلا اسهل من ذلك ديّني الفقير منهم فلا تعودي ترين وجههُ واطلبي من الغني ان يدينكِ فلا يعود يرى وجهكِ

فقالت اصبت وان كان فراق البدوي بعبا فلا كان البدوي ولا كانت العبا

وقبل ان تتم كلامها وصل الامير احمد والسر هنري والرجال الثلاثة الذين معهم . فاضطربت الاميرات لما رأين رجلاً بثياب افرنجية ولكن لم يطل اضطرابهنَّ لان الامير احمد كان قد اخبرهنَّ انهُ لقي في بيروت عند القنصل شابًّا انكليزيًّا من عائلة شريفة وانهُ وعدهُ بزيارة الشويفات بعد ايام قليلة فلما رأينهُ ادركنَ حالاً انهُ هو الشاب الذي اخبرهنَّ عنهُ . وتقدم الامير احمد وعرَّفهنَّ بهِ

فنظرت اليهِ الاميرات معجبات من جمال طلعتهِ واعتدال قامتهِ ونظر هو اليهنَّ فرأى الجمال الشرقي الذي قرأ عنهُ في حكاية الف ليلة وليلة وكتُب الروايات والرحلات وكان يظن انهُ من قبيل الشعر والمبالغات

ودعتها الاميرة هند للجلوس معهنَّ وشرب القهوة وقدَّمت لهما السكاير وسألت السر هنري عن كيف رأى البلاد وعمَّا اذا كان معهُ احد من اهلهِ وطلبت اليهِ ان يزورهم ويضيفهم تلك الليلة . وكان الامير احمد يترجم بينها وبينهُ فاجابها السر هنري انهُ آسف لانهُ ثقَّل عليهنَّ بمجيئهِ اليهنَّ في تلك الساعة ولكنهُ سُرَّ جدًّا برؤية الاميرات الشهابيات وانهُ كان يحسب انهنَّ يتحجبنَ مثل سائر نساء الجبل فاذا هنَّ مثل الاميرات في بلادهِ لا يحرمن مخلوقات الله من نظرهنَّ كما لا تحرم الشمس النبات من باهر اشعتها

فسرَّت الاميرة هند بهذا التشبيه ونظرت صفا وسلمى اليهِ باسمتين ثم اطرقتا حياء اما القزم فكان يتأخر الى الوراء رويدًا رويدًا وهو يزور بعينيهِ ويقلب شفتيهِ . والتفت اليهِ الامير احمد وقال لهُ مالي اراك تهرب منا يا عنتر

فقال متى حضرت الملائكة هربت الشياطين . فقال الامير اذًا كان يجب ان تهرب قبل مجيئنا

فقال عنتر كنت عازمًا على الهرب ولكن ام يوسف مسكتني لانهُ لا يطيب لها عيش في البعد عني

فقالت ام يوسف اسكت يا لعين وخلّنا من شرك فانت في كل عرس لك قرص

والتفت السر هنري الى الامير احمد كأَنهُ يستفهم منهُ عمَّا يقولهُ القزم فترجمهُ لهُ فضحك وهو يقول في نفسهِ هذا مجلس من مجالس الامراء حقيقة وهذا من الاقزام الذين لا يخلو منهم مجلس انس من مجالس الملوك

وكان الخدم قد غلوا القهوة وارادوا تقديمها للسر هنري قبل غيرهِ فأبى الَّا ان تقدَّم الى الاميرات اولاً . فقالت لهُ الاميرة هند اذًا العادة عندكم مثل العادة عندنا تقديم الاميرات على الامراء . وترجم لهُ الامير احمد ذلك وقال لهُ ان هذه هي العادة عندنا ايضاً ولكنها خاصَّة بالاميرات واما سائر الناس فرجالهم مقدمون على النساء في كل شيء . فعجب السر هنري من ذلك وقال اذًا لم يفضّل اميرات الشرق الَّا لان حقهن في التفضيل اثبت من ان يُنكر

وكان مجلسهُ مواجهاً لمجلس الاميرة سلمى فلم يسعهُ الَّا النظر اليها مرةً بعد اخرى فصبغ الحياء وجنتيها وزادها جمالاً على جمال . ولحظ حرج موقفها وشعر من نفسهِ انهُ في موقف تذوب فيهِ المهج فنهض واستأْذن في الانصراف فنهض السيدات اجلالاً لهُ فودعهنَّ مصافحةً وعاد ادراجهُ هو والامير احمد وهو مبلبل الافكار وخاف ان يظهر امرهُ فجعل يحاول جمع افكارهِ المشتتة وهو ينظر الى ما حولهُ فيرى صورًا تمر امام عينيهِ ولا يفقه لها معنىً الى ان وقعت عينهُ على نبات صغير الورق لهُ ثمر احمر كحبوب المرجان فوقف وقال للامير احمد انظر هذا نبات الفوّة الذي يستعمل في الصباغة وهذه اول مرة رأَيتهُ نابتاً

وكان عارفاً بعلم النبات مغرماً بجمع الحشائش فاخذ يصف بعض ما يراهُ منها لكي يخفي ما بهِ من تبلبل الافكار

ولجَّ عليهِ الامير احمد لكي يبيت عندهُ تلك الليلة وارسلت امهُ تلجُّ ايضاً فاعتذر بانهُ لا بدَّ من عودتهِ حالاً لكي يكتب مكاتيبهُ لقيام سفينة البريد في الصباح لكنهُ وعد بالعودة في الاسبوع التالي لاستئناف البحث عن المغارة

الفصل السابع

مطارح النظر

التنازع سنَّة الكون بهِ ارتقت انواع الحيوان والنبات واليهِ مرجع التفاضل بين الشعوب والامم . وهو شامل لاعمق عواطف النفس كما انهُ عامٌّ لما في الكون من العوالم

كان السر هنري بدمونت مغرماً بابنة خالهِ اڤلين براد'ن يراها عين الكمال ومجمع الجمال وهي تدلُّ عليهِ ولا ترى في قلبها ما يجذبها اليهِ لانها رأَت منهُ سيرًا على غير الطريق السوي مثل

اكثر الشبان الذين يربون في نعمة وينغمسون في الملاهي. فان امهُ ارسلتهُ الى مدرسة اكسفرد وقطعت لهُ مئة جنيه في الشهر فكان ينفقها وينفق فوقها وهذا شأن اكثر الشبان في تلك المدرسة . وكان قليل الدرس ولكنهُ ذكي الفؤاد فحصَّل ما يكفي لنيل الشهادة وخرج من المدرسة ولا مطمع لهُ في الدنيا الاَّ ابنة خالهِ فلا يرى غيرها ولما رأي منها الدل والصدود رهن نفسهُ لمشيئتها وانقطع عن الملاهي وعكف على الدرس وطلب المعالي ولا غاية لهُ الاَّ رضاها حتى حسدها عليهِ اترابها . اما هي فبقي الدلال شأنها والغنج ديدنها . وحدث ذات يوم ان ذكرت القاب الشرف وانساب الشرفاء فقال ان جدَّهُ كان مع الملك ركارد ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد وانهُ كان فارساً مغواراً وانعم عليهِ الملك بلقب كونت قبل وفاتهِ

فتبسمت اڤلين قائلة اراك تصدّق هذه الاقاصيص الموضوعة كأنها حقائق راهنة

فقال لها هذا ليس من الاقاصيص الموضوعة بل هو خبر ثابت بالسند المتصل وانا اصدّق ولف كما اصدّق اصدق الناس . والفارس الباسل لا يكذب ولا يختلق الاخبار . وقد ذكر ولف في الخبر الذي نُقل عنهُ انهُ وضع وثيقة لقب جدي على صدرهِ لما دفنهُ وهذا كلام من رأى بعينهِ ولمس بيدهِ . نعم ان منحهُ هذا اللقب غير مذكور في سجل الالقاب ولكن اي سجل يحفظ بالتدقيق والناس في دار الحرب . ولم تصفُ الايام لقلب الاسد بعد رجوعهِ وخلاصهِ من الاسر حتى تطالبهُ عائلتنا باثبات ذلك في سجلات الحكومة

فبقيت اڤلين على ريبها وقالت لهُ ان انت وجدت الوثيقة اثبتُّ الكونتية لك لانك الوارث الوحيد لهُ الآن

فقال نعم وسأفعل ذلك وابذل دونهُ كل مرتخص وغالٍ ان كان يرضيكِ

وكانت تتكلم معهُ على سبيل المزاح اما هو فاخذ الامر بالجد وجعل يفتش في كتب الانساب والتواريخ وعقد النيَّة على الذهاب الى سورية ليفتش عن الوثيقة فيها . وكان قد انتظم في وزارة الخارجيَّة فطلب ان يُنقَل الى بلاد الشام فنقل اولاً الى الاستانة ثم الى مدينة بيروت وآمالهُ معلقة باكتشاف الوثيقة وارضاء ابنة خالهِ وهو لا يرى غيرها امام عينيهِ . اما الآن فعاد من الشويفات على غير ما ذهب فقد ذهب اليها وفي قلبهِ شخص واحد وامام عينهِ مطلب لا يرى سواهُ وهو ان يعود بالوثيقة فترضى ابنة خالهِ عنهُ وترتفع منزلتهُ في عينيها وعاد وقلبهُ يتنازعهُ شخص آخر شخص الجمال والدلال فتاة لم يرَ اجمل منها في بلادهِ ولا في غيرها فتاة من نسل الامراء الذين حاربوا فرسان الصليب ودحروهم في بلاد الشام . ولقد ربي مع ابنة خالهِ وشبَّ معها واحبَّها كما يحبُّ الاخ اختهُ ولكنهُ كان يشعر دائماً انها بعيدة عنهُ

وازداد البعد بتقدمهما في السن فظن انهُ لم يملأ عينيها لسيرهِ في طرق لا ترضيها فغيَّر اسلوب معيشتهِ وبذل جهدهُ في مرضاتها . وكلما ظن انهُ بلغ المراد رأى انهُ لم يزل حيث كان بالنسبة اليها لا هي تقصيهِ ولا هي تدنيهِ لكنهُ لم يفشل ولا قطع الامل وقد تحمَّل مشقة السفر الى بلاد الشام قربةً منها وزلفى

والآن شعر كأن آمالهُ كلها كانت اماني واقلين لا تحبهُ الاَّ كما تحب الاخت اخاها تهتمُّ بامرهِ وترجو لهُ الخير والفلاح تحزن لحزنهِ وتفرح لفرحهِ . تتألم اذا اصابهُ مكروه وتفتخر اذا فعل فعال الكرام وتفتديهِ بنفسها اذا وقع في شدة ولكنها لا تلقي اعتمادها عليهِ ولا تحسب انهُ الرجل الذي يكفلها في السراء والضراء

ثم قال في نفسهِ ولكن من هذه الاميرة ومن هم قومها وما هي اخلاقهم واطوارهم ومن اي مذهب هم وكيف ينظرون اليَّ وقد لا اراها بعد الآن وقد تكون مخطوبة او متزوجة وقد يكون اهلها ارفع مني حسباً ونسباً فلا يتنازلون لمصاهرة اناس مثلنا . كنت استطيع ان اسأل الترجمان عنها ولكنهُ يعد ذلك فضولاً مني . ولا يبعد ان تكون خطيبةً للامير احمد وهي ابنة خالتهِ ولعلها احمرَّت لما رأتهُ . لم تتكلم على مسمعي غير كلمة واحدة حينما عرَّفها بي فقد قالت بالفرنسوية انها تسر بمعرفتي . ما امهر هؤلاء الفرنسويين في تعليم لغتهم ونشرها في الآفاق . هذا كلهُ فعل الرهبنات . يطردونهم من بلادهم وينفقون عليهم في سائر البلدان لينشروا فيها لغتهم . لا بدَّ من ايضاح ذلك لنظارة الخارجيَّة حتى تهتم حكومتنا بنشر لغتنا اهتمام الفرنسويين بنشر لغتهم

ساكتب لامي عن هذه الفتاة وهي تقرأ كتابي لاقلين فتثور الغيرة في قلبها ذلك القلب الطاهر . قوتل الرجال ما اقل وفاءهم . لا لا لا انساكِ يا اقلين ابداً . ان افتكاري بهذه الاميرة السورية من قبيل الجنون الوقتي الذي يعتري الشاب . دقائق جديدة تكونت في دماغي كما يقول العلماء ارتسمت فيها اول صورة وقعت عليها لكنها تزول سريعاً كما ارتسمت سريعاً

خطرت هذه الخواطر على بال السر هنري وناجى نفسهُ بها وهو ماسك القلم وعازم على الكتابة لامهِ ونظر الى ساعة امامهُ وقال حسبي من احلام الصبا وانغض رأسهُ مسرعاً كانهُ يجزر ذباباً حطَّ عليهِ وغرضهُ نزع هذه الافكار من بالهِ وشرع في الكتابة فملأ صفحات كثيرة وصف فيها كل ما لقيهُ في ذهابهِ الى الشويفات ورجوعهِ منها

الفصل الثامن

الاجتماع الثاني

عاد وكلاء الدولة والعلماء الى الاجتماع في دار رشيد افندي وكلهم متشوف الى الاطلاع على ما فعلتهُ اللجنة التنفيذية التي شُكّلت لاجراء ما اقروا عليهِ في اجتماعهم السابق وعلى ما ورد عليها من اشياعهم في سورية فقرئ كتاب وارد من دمشق مؤداهُ ان سكانها على اتم الوفاق والوئام وانهُ يتعذر ايقاظ الفتنة فيها لا سيما وان اميرًا من نزلائها لا يستحل خفر ذمة احد بوجه من الوجوه ولا يصدق ان ما طُلب منهُ يعود بالنفع على احد . واعوانهُ اشداء يفعلون كل ما يأمرهم فيستطيع ان يحمي بهم المدينة كلها

ولما قُرئ هذا الكتاب ضحك احد المأمورين وقال ان كانت كل الكتب التي وردتنا على هذا النسق فلا فائدة من قراءتها غير التضليل فان الامير هو الذي اشار على فرنسا باحتلال سورية وارشدها الى السبيل المؤدي الى ذلك فوعدتهُ بجعلهِ اميرًا عليها

فناقضهُ مأمور آخر وكثر الحجاج واللجاج بين الطرفين الى ان تصدَّى لهما احد الحضور واطلعهما على كتابة معهُ من سفارة باريس فنظروا فيها ثم نظر بعضهم الى بعض وصمتوا

وقرئ كتاب وارد من بيروت وكلهُ امل وتأكيد وتفاؤل بنيل المراد. فقال احد العلماء اوصوهم ان لا يسرفوا . ثم قرئ كتاب وارد من لبنان يشكو كاتبهُ فيهِ من احد المأمورين ويقول اننا نظنهُ جاسوسًا وطلب ابعادهُ فكلّف احد الحضور بالسعي في نقلهِ الى ولاية اخرى

ودار الكلام على الخطة التي يراد اتباعها في كل انحاء الولاية بناء على الكتاب المسهب المرسل من سفارة لندن . ومدار هذه الخطة اثارة الرأي العام الاوربي باعمال تستفز الاوربيين الى "التداخل" ولا خوف من فوز المعتدى عليهم لان دولة عظيمة ستمنعهم من ان يعضدوا بعضهم بعضًا ولا يتَّسع لها مجال التداخل لان الدولة المناظرة لها توقفها عند حدها وتحبط مساعيها وتمنعها من ازدراد اللقمة التي اختطفتها فتحصل الغاية المطلوبة من غير ضرر كبير

وكان بين الحضور رجل اشيب تدل ملامح وجههِ على انهُ عرك الدهر وذاق ما فيهِ من خلٍ وخمر وكان صامتًا لا يتكلم ولكن وجههُ يدل على انهُ كان يتتبَّع المتكلمين ويزن كل كلمة فلما رأى انهم فرغوا من الكلام التفت الى رئيس المجلس وقال لقد علمتنا التجارب ان العامَّة لا تقف عند حد محدود اذا أُطلق لها العنان والذي اخشاهُ هو ان النتيجة لا تكون حسب التقدير فلو نلنا بغيتنا وافتديناها برجل او رجلين او عشرة او مئة لهان الامر وقلنا ويل اهون

من ويلين ولكنني اخاف ان نطلق العنان للغوغاء فيسرفوا في القتل والتنكيل فتفقد البلاد جانباً كبيرًا من سكانها الذين عليهم اعتمادها في الصناعة والتجارة ويتسع المجال للتداخل الاوربي فوق ما نريد . فهمها بالغنا في التحذير لكي لا يسرفوا لا نوفي الامر حقَّة ولا بدَّ لنا من انتداب اناس يعوّل عليهم لكي يديروا هذه الحركة ضمن حدودها المعقولة فوافقوهُ على رأيهِ وانتدبوا ثلاثة ارسلوهم الى بلاد الشام لهذه الغاية

في الليلة التي اجتمع فيها وكلاء الدولة في الاستانة للنظر في امر يمكّنهم من ابدال الحالة الحاضرة باصلح منها اجتمع ثلاثة من المرابين في بيت الخواجه بخور بدمشق والبيت في حي اليهود يوصل اليهِ بزقاق ضيق لا يسع الاثنين يمشيان معاً وكذلك باب البيت ضيق واطئ يضطرُّ الداخل منهُ ان يحني رأسهُ حين دخولهِ ولكن البيت واسع رحب في دارهِ فسقية كبيرة يتدفق الماء منها والارض حولها مرصوفة بالرخام المجزَّع وفيها دوائر غرست فيها اشجار الليمون والريحان وامامها ديوان عضائدهُ من الرخام الناصع البياض وابواب الغرف التي حولهُ يحيط بها قوائم من الرخام المنقوش نقشاً بديعاً يمثّل بعضهُ شرفات لها اساطين وحنايا مفرغة

ويدخل من هذه الابواب الى غرف كبيرة مفروشة بالبسط العجميَّة على جوانبها مقاعد من المخمل المعرَّق او الحرير المحجَّر تنار بمصابيح مدلاَّة من السقف زجاجها ملوَّن . وفيها منصات عليها مصابيح اخرى من نوع الطلمبا يوقد فيها زيت الزيتون . وفي وسط الغرفة كانون كبير من النحاس الاصفر اوقدت فيهِ نار الفحم لتدفئتها . فدخل الثلاثة غرفةً من هذه الغرف وتداولوا في الانتقال الى بيروت لان اصدقاءهم في اوربا ولا سيما في باريس ولندن كتبوا اليهم انهُ يخشى من حرب اهلية في بلاد الشام وهم لا ناصر لهم فايَّة فئة غلبت تطمع باموالهم وتسلبها اما بيروت فلا يخلو مرفأُوها من سفينة اجنبيَّة يلجأُون اليها اذا دعت الضرورة

وقال واحد منهم اني لا ارى ما يخشى منهُ فبالامس استدان امير من امراء لبنان عشرين الف غرش من محلنا في بيروت لتزويج ابنتهِ فما دام الناس يهتمون بالانفاق على افراحهم فهم غير مشغولي البال بامر مهم مثل الحروب الاهلية

فقال آخر وانا جاءني من ابن خالي في دير القمر ان الناس هناك لاشغل لهم الاَّ صب الرصاص وعمل الفشك (الخرطوش) وقد اخبروهُ صريحاً انهم ينتظرون ثورة عامة

فقال الخواجه بخور وهذا هو الصواب فان عملاءنا في كل مكان يقولون ان الفتنة كامنة الآن كالنار تحت الرماد ولا بدَّ من ايقاظها قريباً ورأْيي ان نستشير الامير المغربي في امر انتقالنا فاني اعتقد فيهِ الاخلاص . فاجمعوا على ان يستشيروهُ ويفعلوا حسب مشورتهِ

الفصل التاسع

العرس والميدان

خُصّت بلاد الشام باقليم لا اعدل منهُ على وجه البسيطة ساحلها من المنطقة الحارّة ينبت فيهِ النخيل والصبر والبرتقال و يقتني سكانهُ الابل لحمل اثقالهم . وجبالها يكللها الثلج اكثر فصل الشتاء والربيع وينبت فيها الارز والبربريس وتقيم فيها الدباب والارانب . والبلاد بين بين الاعتدال بعينهِ لا ينبت نبات في المنطقة المعتدلة الاّ ويجود فيها — التين والزيتون والكرم والتوت واللوز والجوز والمشمش والتفاح والليمون والرمان والصنوبر والسنديان والدلب والشربين والورد والياسمين . كل شجر مثمر وغير مثمر وكل نبت مزهر وغير مزهر . فصول اربعة تتوالى في مواقيتها كأنها جارية على قواعد الحساب . الخريف بوسميهِ يعدُّ الارض للزرع والشتاء بمزنهِ يخترق طبقاتها ويروي جذور اشجارها ويمدُّ مياه ينابيعها و يفعم غدرانها وانهارها و يأتي الربيع بشآبيبهِ فيروي نباتها حتى يزهر ويثمر ثم تمسك السماء عن المطر ستة اشهر متوالية بين الاعتدالين من اواسط الربيع الى اواسط الصيف فتنضج الاثمار وتتيسر الاعمال

واذا ترفَّه المرء واراد الابتعاد عن الساحل فلا اكثر من ان يسير ساعتين فيصل مكاناً هواؤُهُ عليل وماؤُهُ نمير كأنهُ انتقل من وادي النيل الى جبال الالب

ولكن مهما كثر الخير والمير في بلاد صغيرة كبلاد الشام لا تستوفي اسباب الحضارة ما لم يكن لاهلها بضاعة يتجرون بها حتى يشتروا بثمنها ما لا يجدونهُ في بلادهم من الحاجيات والكماليات فاذا كثر عندهم الحديد فقد ينقصهم النحاس واذا كثر الحرير فقد ينقصهم الكتان واذا كثرت الفضة فقد ينقصهم الذهب . ولقد كان السوريون اهل تجارة من قديم الزمان بل هم اول من ركب السفن وخاض البحار وضرب بالقوافل شرقاً وغرباً وامتدت تجارتهم من الهند الى اسبانيا على طول نصف الكرة الشرقي وساروا بسفن سليمان الى جنوبي افريقية وما ذلك الاّ لانهم وجدوا في بلادهم من البضائع ما تروج سوقهُ في سائر البلدان . وتقلبت الدول وكرت القرون بغيرها واهالي الشام يسعدون و يشقون ولكنهم لم ينفكوا عن التجارة براً وبحراً ومرّت بهم سنون تشيب الولدان وابتلوا بولاة كانهم زبانية الجحيم ولكنهم لم يفقدوا خصب ارضهم وكبر همتهم

الزمن الذي حدثت فيهِ حوادث هذه الرواية سُبق بقرون كلها ظلم جور وارهاق تلتها فترة صغيرة ساد فيها الامن . الفترة التي استتب فيها الامر للامير بشير الشهابي المعروف

بالكبير ثم لابرهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر. في هذه الفترة عاد الناس الى زراعتهم وتجارتهم فنقبوا اراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دود الحرير وبعثوا بهِ الى فرنسا فتدفقت عليهم ميازيب النضار . رجل واحد من اهالي عمشيت لا من الامراء ولا من المشايخ كسب من تجارة الحرير ما استطاع ان يوفي بهِ الاموال الاميرية عن بلاد البترون وبلاد جبيل وبلاد الفتوح دفعةً واحدةً . هذا الرجل واسمهُ ميخائيل طوبيا اقام في عمشيت قريتهِ وجعل يشتري الحرير من اهالي البلاد المجاورة ويرسلهُ الى مرسيليا وبلغ من علو همتهِ انهُ كان يملي على خمسة من الكتّاب في وقت واحد كانهُ نبوليون الاول . ولا يستطيع الانسان ان يدير الاعمال الكبيرة الاّ اذا كان كبير الهمة

واقتنى غيرهُ قوافل من الجمال او البغال لنقل بضائع المشرق الاقصى من العراق الى دمشق ومنها الى ساحل بيروت وحمل بضائع اوربا الى داخلية البلاد لنقلها الى المشرق الاقصى . فلا تمرُّ بك ليلة الاّ وتسمع غناء المكارين يحدون لجمالهم واجراس بغالهم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام فتتدفق ينابيع النضار على جانب كبير من السكان . خلة جرى عليها اهالي الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون اخرى والدهر في الناس قلّب

وكان امراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زرع التوت وتربية دود الحرير فصارت مزارعهم في البقاع تأتيهم بما يحتاجون اليهِ من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوَّم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر منها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في اعراسهم ومآتمهم

وكانت الاميرة صفا مخطوبة للامير قاسم من امراء الحدث وجاء الوقت المعيَّن للاحتفال بزفافها اليهِ فجاءها التجّار والصاغة من بيروت بالاطالس والمقصبات الحلبيَّة والحلى المختلفة من عقود وقلائد وخواتم واساور واقراط وضفائر مرصعة باللؤلؤ والماس والياقوت واهدى العريس اليها هدايا فاخرة من انسجة دمشق ودير القمر ومصوغات بيروت وصيداء . وجاء اليوم الموعود للخروج بموكب العروس من كفرشيما الى الحدث وهو يوم احد قبل الصوم الكبير وكانت الاميرة جلنار ام الامير قاسم تخاف ان يكون يوم العرس يوماً مطيراً فنذرت لمار انطونيوس انهُ اذا كان اليوم صحواً تصنع لهُ اكليلاً من الذهب وتعلق امامهُ قنديلاً من الفضة . وعلم المطران بنذرها فلما انحبس المطر من اول الاسبوع وغابت الشمس يوم السبت تحيط بها غيوم حمراء خاف ان يأتي الامر على غير ما يودُّ ولكن اصبح الصباح يوم الاحد ولا غيم في السماء

ولا ضباب في الجو وفاضت اشعة الغزالة على ربى لبنان وانتشرت على ساحل بيروت

وفاخر بحرُ الروم لون سمائهِ وسارت جواريهِ عليها المطارفُ
وسالت على الكثبان غدران عسجدٍ من الشمس فيها الظل غرثان وارفُ
وساحل بيروت الخصيبُ ونهرها وتلك الروابي والقرى والصفاصف
بساط وسيفٌ والنهود ولؤلؤ نضيد على صدر الربى متراصف

وكان الامراء آل شهاب وآل ابي اللمع قد وفدوا الى الحدث من جهات مختلفة اتى كلٌّ منهم بموكبهِ من الخدم والحشم فلم تعد تسمع الَّا صهيل الخيل واطلاق البنادق واصوات الطبول والدفوف والزمور وكلما وصل وفد منهم قوبل بالاغاني والزغاريد وقماقم العطر ومجامر البخور واجتمع اولاد القرية ووقفوا عن كثب مبهوتين مدهوشين والسعيد منهم من أُعطي فرساً ليمشي بهِ اما آباؤُهم فقاموا على خدمة الضيوف والاتباع كأنهم كلهم من خدم الامير

وقام الامراء في الصباح واعتلوا صهوات خيولهم فتألف من ذلك موكب كبير يأخذ الطرف مهابةً وجلالاً سارت في مقدمتهِ الاميرة جلنار ام الامير قاسم على جواد اشهب يتهادى بما عليهِ من الحلى والى جانبيها اثنان من خواص اهل القرية ماسكان بركابها ووراءها سائر الامراء وامامهم وخلفهم خلق كثير فيهِ المغنون والمطبلون والمزمرون . وسار هذا الموكب الهوينا وكلما مرَّ ببيت قابلتهُ نساؤُهُ بالزغاريد وقماقم ماء الورد الى ان خرجوا من بين البيوت وساروا في الارض البراح بين الحدث وكفرشيما وكان الماء قليلاً في نهر الغدير فقطعوهُ ولقوا هناك وفداً من كفرشيما آتياً لاستقبالهم والترحيب بهم فتصافحوا وهم على ظهور الجياد واكثر رجالهم من اطلاق البنادق ثم نُصب الميدان في سهل فسيح على ضفة الغدير فانقسم الامراء فريقين وجعلوا يترامون بالجريد يهجم الفارس منهم والجريدة في يدهِ ويرمي بها خصمهُ فتخرج كالشهاب الثاقب لان زخم الفرس يضاف الى قوة الساعد ويراها الخصم مقبلة اليهِ فيحيد من طريقها او يغطس تحت بطن جوادهِ او يستلقيها بيدهِ او يدفعها عنهُ بجريدة اخرى . والفتيان من القريتين يجولون في الميدان وكلما وقعت جريدة التقطوها واعطوها لفارس من الفرسان . وظلَّ اولئك الامراء في كر وفر وهجوم ودفاع الى ان تصبَّبت جباههم عرقاً وسبحت جيادهم في عرقها واذا بفتى يصرخ ويقول اخ يا عيني يا امي . كان هذا الشاب يلتقط الجريد فاصابتهُ جريدة ذهبت بعينهِ فالتفَّ عليهِ غيرهُ من الفتيان واتوا بهِ الى الامير الذي ضربهُ وقالوا لهُ انظر يا سيدي عبدك فلان طارت عينهُ . فقال اربطوها لهُ ثم نادى وكيلهُ وقال لهُ ارسل الى هذا المسكين كيس غلة وخمسمائة غرش فتقدَّم ابو الفتى وقبَّل

يد الامير ودعا لهُ بطول العمر . ومن يهن يسهل الهوان عليهِ

وكان الامير احمد ارسلان في جملة المدعوين الى هذا العرس وذكرهُ للسر هنري بدمونت في احدى خطراتهِ الى بيروت فود السر هنري ان يكون حاضرًا ليشهد الميدان ولعب الجريد . فدعاه الامير احمد الى الحضور وكان يعلم ان الميدان سينصب على ضفة الغدير فوافاهُ السر هنري الى كفرشيما وسارا مع امرائها الذين لاقوا امراء الحدث ووقفا يريان الفرسان تكرُّ وتفر ولم يشتركا معهم وحاول كثيرون اغراء الامير احمد بالنزول الى الميدان فلم ينزل معتذرًا بوجود السر هنري معهُ . وهو في الباطن يخشى حدوث ما لا يرضاهُ لان الاحقاد الكامنة بين النصارى والدروز كانت قد اخذت في الظهور . وتطاول احد الفتيان عليهِ ووجهَّ جريدة اليهِ وهو يقول خذها يا امير احمد ولا تقل اني غدرتك فاستلقى الامير احمد الجريدة بمحجن كان في يدهِ ولم يحذفهُ بها . وكان ابنا الامير عباس اخوا الاميرة سلمى هناك فبادرا الى الذي رمى الجريدة وتكلما معهُ لان امهما اوجست شرًّا من حضور ابن اختها فاوصت ابنيها ان لا يفارقاهُ وقالت لهما ان العيون محمَّرة فلا تدعا ابن خالتكما وحدهُ

ولما انتهى الميدان واصيب الفتى بجريدة فقأت عينهُ . قال بعض الحضور ان هذا الامير الافرنجي لا بد وان يكون عارفًا بالطب فاتوا بالفتى اليهِ فنظر واذا العين قد فقئت تمامًا فقال للامير احمد لا ارى ان رد النظر اليها في الامكان ولكن يجب ان تعالج لكي لا تلتهب ويمتد الالتهاب الى اختها ثم نزع ورقة من جيبهِ وكتب لهُ سطرين الى طبيب في بيروت ليذهب اليهِ بها فاخذها الفتى وقبل يدهُ

ثم سار الموكب في طريقهِ كأن عين ذلك الفتى ذبابة كانت على رأسهِ فاطارتها الجريدة عنها حتى اذا بلغ الموكب دار العروس في كفرشيما علت الزغاريد وطلقات البنادق واصوات الطبول والزمور وبادر رجال القرية الى استلام الخيول والمشي بها . وتصافح الامراء ودخلت ام العريس واعتنقت كنتها . ثم قُدمت القهوة والشبقات ومُدَّت اسمطة الطعام من الخرفان المحمرة والديوك المقمرة والرز المفلفل والالبان والاسماك وانواع الحلوى . ولما فرغ الامراء من الطعام جلس الاهالي والاتباع افواجًا افواجًا حتى اذا امتلأت الخواصر وفرغت الجفان انتظم الموكب ثانيةً وقامت العروس فودعتها الاميرة سلمى وكاد يغمى عليها واعتنقتها الاميرة هند وهي تبكي لانها ربتها بعد وفاة امها فكانت مثل ام لها وودعها ابوها وزوجتهُ لانهُ كان قد تزوج بعد وفاة امها . فخنقت العبرات الاميرة صفا لا سيما وانها تذكرت امها وشعرت حينئذٍ باليتم شعورًا اليمًا لم يخامر قلبها من قبل . ثم اركبوها وساروا بها الهوينا وهم ينشدون

الاناشيد ويطبلون ويزمرون الى ان وصلوا الى دار العريس فقام المطران ولفيف الكهنة بصلاة الاكليل ووزعت الهدايا من اكياس القصب ومناديل الحرير ومدَّت اسمطة الطعام وزينت الدار وما حولها تلك الليلة واطلقت فيها السهام النارية

وبينما الناس في لهو وطرب يغنون ويزمرون ويطلقون السهام فتشق عنان السماء علت الجلبة والضوضاء وهجم القوم بعضهم على بعض حتى اختلط الحابل بالنابل . فان شاباً كان يطلق سهماً فاصاب فتى من اولاد الامراء في راسهِ فوقع صريعاً وظن ابوهُ ان السهم ارداهُ فاستلَّ سيفهُ وضرب الشاب بهِ فانتصر لهُ رفاقهُ وهجموا على الامير وهجم اعوانهُ عليهم وعلا الصياح حتى اختلط الجمع كلهُ اختلاطاً وخرج العريس ومن معهُ وخرج النساء ايضاً وتركن العروس في حجلتها . وكان الظلام حالكاً خارج البيت الأَّ حيث توقد المشاعل فتركها الرجال الموكلون بها واختلطوا بالغوغاء ومضت ساعتان من الزمان وذلك الجمع كالبحر الزاخر ثم خمد الهيجان رويداً رويداً فانجلى عن كثيرين من الجرحى والعريس في جملتهم فانهُ اصيب بعصىً شدخت رأسهُ فعادوا بهِ الى داخل الدار ولكنهم فتشوا عن العروس فلم يجدوها . وتناقل النساء هذا الخبر وبلغ الرجال فجعلوا يفتشون في جوانب البيت وغرفهِ وعادت الضوضاء ومضت ساعتان في التفتيش على غير جدوى

وتضاربت الاقوال حينئذٍ فمن قائل ان الجن خطفت العروس بحلاها ومن قائل ان اميراً آخر يحبها وتحبهُ ولكن اباها ابى تزويجها منهُ فارسل اتباعهُ اختطفوها وهم الذين صوَّبوا السهم الى ذلك الفتى لكي يقلقوا الجمع فيلهو عنهم. ومن قائل انها كانت تريد ان تترهب ولكن اباها منعها من ذلك وابى الاَّ تزويجها فبعث الراهبات من اختطفها . لكن الاكثرين كذبوا هذا القول الاخير اجلالاً للراهبات عن هذا الفعل المنكر . وكيفما كانت الحال فان التفتيش استمر الى الصباح ولم توجد العروس ولا وجد اثرها وقام في نفوس الاكثرين ان الجن اختطفوها

وجلست الاميرة هند مع ابنتها تلك الليلة وقالت لها لا ادري لماذا اشعر بضيق في صدري على فراق صفا مع ان حماتها تحبها كما تحب الام ابنتها وقاسم من نخبة الشبان نعم انهُ لا يقاس باحمد ولكنهُ افضل من كل اولاد عمهِ. هل رأَيتِ احمد بين الحضور هو والامير الانكليزي. يظهر لي ان احمد تغير كثيراً في هذين الشهرين فصار قليل الكلام كثير التفكير

فقالت الاميرة سلمى الم تسمعي ما قال ابي انهم يطبخون لنا طبخة ويدبرون مهلكاً

فقالت امها ان احمد اعقل من ان يغترّ بنفسهِ فان بلاد كسران كلها قائمة قاعدة وفرنسا معنا والانكليز لا يساعدونهم ولو تظاهروا بمساعدتهم . ان كل احد يقول الآن ان هذا الاميرالانكليزي جاء مع احمد لانهُ حليف لهُ مع انهُ جاء لكي يشاهد العرس والميدان لا غير كما قال لي احمد نفسهُ وقد اوصيت اخويكِ ان لا يفارقاها خوفاً من امر يحدث . ان احمد من اعقل الشبان وهو يحبك جداً وقد قال لي بالامس انكِ ما عدت تلتفتين اليهِ

فصمتت الاميرة سلمى ولم تقل شيئاً وانتهى الحديث على هذه الصورة . ولكن لما خلعت ثيابها لتنام فكّرت طويلاً في امر يشغل بالها وذرفت دمعتين سخينتين ثم القت رأسها على وسادتها وسلمت نفسها لسلطان الكري وهي لا تعلم شيئاً مما جرى لابنة عمها

وعاد السر هنري الى بيروت تلك الليلة وجلس بعد العشاء يكتب لامهِ فوصف لها ما رآهُ في يومهِ . وصف الميدان ولعب الجريد وتهادي الجياد العربية بما عليها من الحلى . وملابس الامراء المقصبة . واشار الى الفتى الذي فقئت عينهُ وعجب من رضوخ الناس للذل واعتقادهم القضاء والقدر . ثم وصف ما رآهُ في بيت العروس واسهب في وصف المآكل وجلوس الامراء حول السماط على المساند وانتقل الى وصف الاميرات وملابسهنّ وحلاهنّ . وكان قد رأى الاميرة سلمى واقفة الى جانب ابنة عمها الاميرة صفا كأنهما بدران او لؤلؤتان فلما شرع في وصفهما ارتجف القلم في يدهِ وأُرتج عليهِ فكتب يقول اخاف ان اصف لكِ جمال هاتين الاميرتين فتطّلع اڤلين على كتابي وتقول اني نسيتها حتى صرت ارى غيرها جميلاً مثلها . الجمال الشرقي غير الجمال الغربي . الجمال الشرقي مسلّح والجمال الغربي اعزل . تنظر الفتاة الشرقية اليكِ بعينيها فتشعرين كأنها راشت سهامها ورشقتكِ بها اما الفتاة الغربيّة فترين في زرقة عينيها كاساً سائغة تودين ارتشافها . ثم قال

لم اهتدِ حتى الآن الى المغارة ولكن بلغني اليوم انهم عثروا على مغارة قرب الشويفات فيها اسلحة قديمة وسامضي الى هناك في هذين اليومين . اذا وجدتُ رفات جدي والوثيقة فسأُسمّي نفسي امير لبنان وآتي باڤلين الى هنا فتكون اميرة لبنان . هذه احلام اهدس بها احياناً ولكن قلبي يحدثني ان اڤلين نسيتني انساها اياي اللورد كارو الذي كتبت لي عنهُ . اخبريني عن كل ما قالهُ لها بالتفصيل وعن مقام هذا اللورد بين قومهِ فانني لا اعرفهُ

ثم ذكر لها اموراً اخرى عن احوال الجبل وثورة الافكار فيهِ وختم الكتاب وهو يود الرجوع الى وصف الاميرة سلمى وقلمهُ لا يطاوعهُ كانهُ يرى حرَماً حُظر عليهِ الدنوُّ منهُ

الفصل العاشر

المجمع البطريركي

شمالي لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين . عصى قياصرة الروم ولم يخضع لخلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائهِ السيادة المطلقة من اورشليم الى انطاكية يحاربون بني امية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين اراخنة القسطنطينية فعاون الروم العرب عليهم وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً فضعف شأنهم رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا اديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من املاك البلاد

في دير من هذه الاديرة فوق زوق ميكائيل شمالي الطريق الى بزمّار دير بكركي لرهبنة انشأتها فتاة حلبيّة اسمها هندية جاءت كسروان واشترت اولاً دير ما عبدا المشمّر وانشأت فيهِ الرهبنة ثم استحسنت موقع بكركي وطلبت من رهبانهِ المقايضة فاعطتهم ديرها واخذت ديرهم وبنت فيهِ بناء كبيراً انفقت عليهِ اربعين الف ريال وكانت عازمة ان تزيده فخامةً واتساعاً لجاءتهُ بثلاثين الف حجر منحوت وباعمدة عظيمة من الرخام . ولكن قام عليها مبغضوها وشانئوها ونسبوا اليها السحر والضلال فاضطرّ البطريرك يوسف التيان الى الاستعفاء لانهُ كان من ناصريها وحرمتها الكنيسة وحرمت اعمالها وحلّت رهبنتها وبات الدير قفراً لا يأوي اليهِ غير البوم ويقال ان احد المطارنة احرق الثلاثين الف حجراً كلساً زاعماً ان الحرم تناولها

وكان بطاركة الموارنة يقيمون في دير قنوبين في شمالي لبنان فاختاروا الاقامة في كسروان في الايام الاخيرة لانها مقر وجهاء الموارنة فكانوا ينزلون في الدير الذي يختارونهُ الى ان تنصّب البطريرك يوسف اسطفان فعقد المطارنة مجمعاً في دير مار يوسف الحصن في غسطا حضرهُ القاصد الرسولي وقرروا في جملة ما قرروهُ ان يكون الكرسي البطريركي في بكركي ثم تكرّر هذا القرار في مجمع آخر ولكن لم يعمل بهِ . فلما تنصّب البطريرك يوسف حبيش عمل بهِ واقام في بكركي وخلفهُ البطريرك يوسف الخازن فزاد البناء . وامام الدير ميدان صغير في آخرهِ شجرة ميس قديمة العهد وكثيراً ما يمشي البطريرك والمطارنة فيهِ يتلون فروض الصلاة

وفي تاريخ الدويهي ان بكركي كانت بلدة كبيرة في اوائل القرن الخامس عشر والمنظر منها جميل جداً يطلّ على كل بلاد الساحل من جبيل الى بيروت وما وراءها جنوباً

ان حوادث الجبل المشار اليها في الفصول السابقة جعلت بطريرك الموارنة يدعو المطارنة ووجوه الطائفة للاجتماع والمذاكرة في ما يجب عملهُ اذا قام الدروز لمحاربة النصارى . فاجتمع لديهِ جماعة منتقاة لا تتجاوز اثني عشر نفساً وهم مطران بيروت ومطران صور وصيداء ومطران عكاء ومطران قبرص ومطران الشام والخوري نعمة الله الدحداح كاتب السر والخوري يوحنا الحاج قاضي النصارى . ومن الوجوه الامير امين منصور ابو اللمع ويوسف بك كرم والشيخ كنعان الخازن والشيخ صالح الخازن وترجمان قنصلاتو فرنسا في بيروت

المجلس رهيب البطريرك في صدرهِ والمطارنة على جانبيهِ واكثرهم شيوخ عركوا الدهر وبعضهم درس في رومية واطلّع على اخبار الامم الغابرة والحاضرة وعرف تاريخ لبنان وما تعاقب عليهِ من ايام النعيم والبؤس. فدارت المذاكرة على احوال الجبل من حين تولاَّهُ عمر باشا النمسوي فانهُ تولى امارتهُ واتخذ بتدين داراً للولاية واتخذ لهُ مديرَين الشيخ خطار العماد والشيخ منصور الدحداح الاول درزي والثاني ماروني وولى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن على كسروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على الفتوح . وولى على بلاد جبيل والبترون والكورة ثلاثة من المشايخ الحمادية فنفرت الخوازنة من انضمام ولا ياتهم الثلاث الى واحد منهم ونفرت نصارى جبيل والبترون والكورة لان الحمادية مرفوعة ولا يتهم عنهم منذ نحو ستين سنة . نعم ان عمر باشا اتخذ النصارى احلافهُ ليرضوا بولاية الدولة وجنَّد منهم الجنود وجعل الشنتيري وابا سمرا قائدين عليهم وكتب مصطفى باشا والي بيروت الى البطريرك يثني على غيرتهِ في خدمة الدولة وارسل اليهِ هدية نفيسة ظرف فنجان مجوهراً ولكن الافعال التي فعلها منيب باشا بالدحادحة والدسائس التي دُسَّت للدروز لينتقضوا على عمر باشا ويحاربوهُ ثم قسمة البلاد الى قائمقاميتين متناظرتين ثم الى ولايتين وتجدُّد الفتن واستمرارها — كل ذلك مكَّن الضغائن والاحقاد في قلوب النصارى والدروز

هذا من حيث اهالي لبنان ونسبتهم بعضهم الى بعض وكأنَّ الحروب الاهلية التي استمرت مئات من السنين لم تكفِ لزعزعة اركان الجبل والتنكيل باهلهِ فتسلَّط عليهِ عاملان آخران يرميان بسهم واحد الى غرضين مختلفين الواحد يريد التنكيل بالنصارى لكي يتحزب لهم اهل ملتهم من الدول الاوربيَّة ويسعوا في تغيير الحالة الحاضرة والثاني يريد التنكيل بهم لكي يجد سبيلاً لحمايتهم واحتلال البلاد

وكان مدار الكلام في المجمع البطريركي على شؤُون الجبل وما يجب عملهُ في تلك الاحوال وكان كثيرون من الحضور غير عارفين الغاية المقصودة فلما شُرحت لهم بهتوا

وخاف بعضهم عواقبها وكثر الجدال بينهم ولاسيما بين مطران بيروت ومطران عكاء واخيرًا تكلم مطران دمشق وكان مسموع الكلمة لتقواه وقال ان نحن جرينا على الخطة التي فصلّها لنا حضرة الترجمان فقد لا يكون الضرر جسيمًا في نواحي لبنان ولكن المدن البعيدة كدمشق لا تسلم من الافراط ونحن هناك شرذمة صغيرة فلا تبقى منا بقية وما فائدتنا من اصطلاح الاحوال بعد ان نمسي من الغابرين. فقال له الترجمان لقد اوصينا بكم اميرًا مقدامًا عندكم وهو تكفل بمنع كل افراط ولا نظن انهُ يصاب اكثر من اثنين او ثلاثة وقد لا يصاب احد بل يكتفى بنهب بعض البيوت وان كانت حادثة البادري توما اقامت اوربا واقعدتها والقاتل مجهول فكيف اذا حدثت ثورة عامة وبدا اعتداءٌ مقصود

وبعد جدال طويل واخذ وعطاء اجمعوا على ارسال جانب من الرجال المسلحين الى ساحل بيروت وجانب آخر الى جهات زحلة ثم يعود الفريقان من حيث اتيا

الفصل الحادي عشر

المشكل الجديد

ركب الامير احمد وركب معهُ ثلاثة من رجالهِ وهم بالسلاح الكامل لان النزول الى بيروت لم يعد مأمون العاقبة تمامًا . ولما وصلوا الى الغدير اضطروا ان يصعدوا الى مخاضتهِ لان الماء كان غزيرًا فيهِ على اثر الامطار الكثيرة التي وقعت في الشهر الماضي . ووصلوا الى بيت الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحًا . ودخل الامير احمد الى مكتب الكولونل واما رجالهُ فدخلوا غرفة في الدار الخارجيَّة وكان الكولونل في انتظارهِ ومعهُ السر هنري بدمونت فرحَّبا بهِ وكان البرد شديدًا مع ان الجو كان صافيًا والشمس مشرقة وقد اوقد الكولونل نارًا كبيرة في موقد حديدي دفئت بها الغرفة . ولما استقرَّ المقام بالامير قال لهُ الكولونل بلغني ان ابناء عمك وجمهور المشايخ عازمون على مقاومة القوة بالقوة وهم على تمام الاستعداد وان دروز وادي التيم متحفزون مثلكم وقد كاتبتم دروز حوران وعربها وكلهم قلب واحد معكم

فقال الامير لا يمكننا ان نخفي استعدادنا ولكن غرضنا محصور في الدفاع فاذا اعتدوا علينا اضطررنا ان ندافع عن انفسنا

الكولونل — ان كلمة الاعتداء كلمة مبهمة غير محدودة فغدًا يتهارش كلبان او يتخاصم رجلان او يُقتل زيات في احد الخانات فتقوم القيامة ويدَّعي كلٌّ فريق انهُ اعتدي عليهِ . وما دامت القلوب ملآنة فلا بدَّ من افراغها وقد كنت اظن ان كلامي لك في السنة

الماضية اقنعك بالعدول عن هذه الخطة وجعلك تقنع ابناء عمك بالعدول عنها فلا ارى حتى الآن الاَّ تفاقم الشر والتحفز للقتال وتوالي الاجتماعات في كل خلوة والانصياع لمشورة الوالي فقل لابناء عمك ان مساعدتنا لهم تصل الى حد محدود ودفاعنا عنهم لا يجدي نفعاً الاَّ اذا كان الحق في جانبهم فان الحق هو الذي يقوينا على الدفاع

الامير — كن على ثقة يا سعادة القنصل اننا لا نكون البادئين . وانا معكم في ان كلمة الاعتداء غير محدودة المعنى ولكنني اؤكد لسعادتكم اننا غير عازمين ان نلجأ الى القوَّة الاَّ اذا طفح الكيل فاذا قتلوا منا واحداً هنا وواحداً هناك واعتدوا علينا في جهات مختلفة فمهما توفَّى خاصتنا وبذلوا من الجهد في تسكين العامَّة فالعامة لا تستكنُّ ولا تسكت ومحال على احد الفريقين ان يمنع الشرَّ اذا ارادهُ الفريق الآخر لان الفريق الذي يريدهُ يتذرَّع اليهِ بكل وسيلة فلماذا لا يجتمع القناصل كلهم ويوجبون على النصارى ان يكفُّوا عن الابتداء بالشر

فتنهَّد الكولونل ونظر الى صورة معلَّقة امامهُ على الحائط تمثل ملكة الانكليز والامبراطور نبوليون الثالث واقف امامها يقبّل يدها فقال في نفسهِ ما ابعد الظواهر عن البواطن وكيف يركب اهل السياسة كل مركب خشن في سبيل الوصول الى مقاصدهم . وكان قد بلغهُ اجتماع المطارنة والمشايخ في دار البطريرك فان قواس القنصلاتو سمع الترجمان يتكلم مع المطران وهما راجعان على الخطَّة التي قرَّ القرار عليها وكان قواس قنصلاتو انكلترا نسيباً لهُ فاخبرهُ بما سمع وهذا اخبر الترجمان واتَّصل الخبر بالقنصل فرآهُ معقولاً ومنطبقاً على ما اتاهُ الخبر بهِ من وزارة الخارجية بناء على ما وصلها من السفارة في باريس فاستدعى الامير احمد لكي يحذرهُ وكان يعلم ان الوالي يحرّض الدروز . واذا سمعت كلام الفريقين لا تجد عليهما ممسكاً ولا تقطع بان الشر ينتج عنهُ . واي لوم على مَن يقول لك كن على حذر واعلم اني لا اتركك اذا رأيت عدوك اعتدى عليك او يقول لك استعد لخصمك ولكنك اذا رأيتهُ اعتدى عليك فلا تقابل القوة بالقوة فتضعف حجتك وتمنع صديقك من مساعدتك بل استمت لخصمك قليلاً فيأتي الصديق لمعونتك وتكون الغلبة اتم . القولان سياسيَّان محكمان واغراض اهل السياسة لا تنال باقل منهما

هذه الخواطر خطرت كلها على بال الكولونل في تلك اللحظة التي كان ينظر فيها الى الصورة فان الافكار اسرع من الكهربائية في حركتها وهي مثل صورة كبيرة تمثل معركة من معارك القتال او حادثة من حوادث التاريخ تلمحها لمحة واحدة فتنجلي لك تلك الواقعة او الحادثة بملابساتها الكثيرة في لحظة من الزمان

ثم التفت الى الامير وقال لهُ ان الذي اراهُ وتدل الدلائل كلها عليهِ هو انكم اذا

تهيأتم للحرب فالحرب حادثة لا محالة واذا لم تتهيأوا لها لم تحدث واذا حدثت فلا بدَّ ما تدور الدائرة على النصارى وحينئذٍ تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم وربما لا تمضي بضعة اشهر حتى تروا بوارجها في مرفإ بيروت وجنودها على ربى لبنان وانتم ادرى بما تصير حالكم اليهِ حينئذٍ. وقد تقول لي كيف يمكن ان نصل الى هذه النتيجة والوالي يحرضنا على القتال فاقول لك ان الوالي قصير النظر في العواقب وهو واضرابهُ في القسطنطينية يرمون الى غرض آخر وربما تتحقق امنيتهم ولكنهم لا يعبأون بكم لان السلطنة واسعة فلا يحسبون حساب بقعة صغيرة مثل لبنان ولكن لو علموا ان العاقبة تكون كما تقدّر الدول الاوربيَّة لعدلوا عن هذا التحريض

فادرك الامير غرض الكولونل تمامًا ولكنهُ كان يرى يدهُ مغلولة عن العمل لا سيما وان امرًا آخر شغل بالهُ منذ شهرين من الزمان فان امهُ كانت تحبب اليهِ الاقتران بالاميرة سلمى ابنة خالتهِ وهذا كان غرض خالتهِ ايضًا وكانت الاميرة سلمى تنظر اليهِ كما تنظر الى اخويها واذا كلمتها خالتها في ذلك تلميحًا غيَّرت الموضوع ولم تبدِ الرفض التام فلما دنا زفاف الاميرة صفا طلبت منها خالتها جوابًا صريحًا فاجابتها انت ترين اضطراب الاحوال ياخالتي والشهابيون عن بكرة ابيهم لا يحتملون ذكر الارسلانيين فما هذا وقت النظر في هذه الامور

فعادت خالتها واخبرت ابنها بذلك فزاد انشغال بالهِ وكان قد رأى اضطراب الاميرة سلمى واحمرار وجهها لما شاهدت السر هنري بدمونت فاوجس شرًّا حتى لم يعُد يدعوهُ الى الشويفات وكان وهو يكلم الكولونل روز في هذه النوبة ينظر الى السر هنري من وقت الى آخر وهو يحسب انهُ يرى امامهُ خصمًا عنيدًا حتى اذا فرغ من الحديث السياسي التفت اليهِ السر هنري باسمًا وقال لهُ عسى ان تطمئن القلوب فنعود الى التفتيش عن المغارة

فلم يسعهُ الَّا العود الى المجاملة فقال لهُ لا ارى الآن ما يمنعنا من التفتيش فتعال شرفنا وقتما تريد. فشكرهُ السر هنري ووعدهُ بان يزورهُ بعد ايام قليلة ثم قال لهُ ولكن ما هذا الخبر الذي سمعناهُ وهو ان العروس التي حضرنا عرسها خُطفت من بيت عريسها

فقال الامير احمد نعم وقد اشاعوا ان الجن خطفتها خرافات العجائز والحقيقة مجهولة حتى الآن فمن قائل ان واحدًا من الفلاحين اي من غير الامراء كانت تحبهُ وقد اتفقت معهُ على الهرب ومن قائل انها كانت تريد ان تترهَّب فمنعها ابوها من ذلك لكنها اتفقت مع بعض الراهبات فخرجت الى بيت في جوار بيت عريسها ولبست هناك لبس الراهبات وهربت معهنَّ ومن قائل غير ذلك وابوها غير مهتم بها والفتاة التي لا امَّ لها ليس لها من يهتم بامرها

فقال السر هنري بلغتنا هذه الاخبار ثم لم نعد نسمع عنها شيئاً فظننا انكم اهتديتم اليها

فقال الامير كلاَّ وانا قلما اسمع شيئاً من اخبار الشهابيين الآن غير ما يتعلَّق بالقلاقل التي في الجبل ولو لم تكن خالتي امرأة عمها ما كنت سمعت عنها شيئاً

ثم قام وودَّع القنصل والسر هنري وطلب القنصل منهُ ان يبقى عندهُ للغداء فاعتذر بانهُ مدعو للغداء عند احد اقاربهِ . ومرَّ في طريقهِ على بيت ابي نخر وهو لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً مخافة ان يرى ذلك الرجل فيضطر ان يكلمهُ لكن ابا نخر كان جالساً امام الباب فلما رآهُ قادماً قام لاستقبالهِ ودعاهُ لينزل و يشرب فنجان قهوة فاعتذر بقرب اذان الظهر وبان عمهُ في انتظارهِ فجادلهُ ابو نخر وكانت السماء قد غامت وابتدأ وقوع المطر فلم يرَ لهُ بدًّا من التخلص منهُ باية واسطة كانت فودَّعهُ واعمل المهماز في شاكلة جوادهِ وكان لعمهِ دار في بيروت يشتي فيها فسار اليهِ مع رجالهِ الثلاثة وهم يعدون عدوًا وكان في الطريق صبية يلعبون تحت المطر فلما رأوا الخيل عادية قاموا ليهربوا من وجهها فهرب واحد منهم اليها فداسهُ فرس احد اتباع الامير وخرجت امهُ في تلك اللحظة لترى سبب عدو الخيل فرأت ابنها يتخبط بين قوائم الفرس فجعلت تزعق وتصيح واجتمع النساء على صياحها وعلت الضوضاء وترجل الامير ليرى ما حلَّ بالولد فترجل رجالهُ معهُ وكان في قهوة مجاورة كثيرون من اهل العطلة فالتفُّوا عليهم وكان الولد حيًّا ولكن كسرت ذراعهُ وشدخ رأسهُ ونزف الدم الكثير منهُ واتفق مرور ضابط في ذلك الطريق ومعهُ بعض الجند فزاد صياح النساء وعرف الضابط الامير فطلب منهُ ان يذهب معهُ الى الوالي وحمل الجند الولد لكي يمضوا بهِ الى حيث يقيم طبيب العسكر واعطى الامير احمد ام الولد كل ما معهُ من النقود فرمتهُ بها وهي تقول قتلت ابني وانت تبرطلني بغرشين وحاولت ان تلحق بهِ فردها العسكر عنهُ فجعلت تتناول الحجارة وترشقهُ بها ووقع حجر منها على فرسهِ فرفس وجمح وكاد يتفاقم الخطب و بينما هم على هذه الحال مرَّ بهم الوالي ذاهباً الى الجامع لاجل صلاة الجمعة فترجل الامير ورجالهُ حالاً ودعاهُ الوالي للذهاب معهُ فوقع في حيرة لا هو يريد ان يخالف امر الوالي ولا هو يستطيع ان يجيبهُ اليهِ وان اجابهُ فقد لا يُسمَح لهُ بدخول الجامع . واذا جاءت المشاكل ضاقت حلقاتها حتى يضيق المرء بها ذرعاً مهما كان رحب الصدر واسع الحيلة . هنا ولد مضرج بالدماء وامهُ تصيح وتستغيث واهالي بيروت يستخفون باهالي الجبل كلهم و يعدونهم فلاحين ولو كانوا امراء ومن نسل الملوك . والوالي الذي يفضل الامير احمد ان يخسر اية خسارة كانت ولا يراهُ في ذلك الوقت امرهُ بالذهاب معهُ والدخول الى الجامع والصلاة فيهِ وهذه مشكلة اخرى لم يكن ينتظرها نعم

ان بعض اعمامهِ تظاهر بالاسلام ولكن ذلك لم يكن من مذهبهِ فوقع في حيرة ولا حيرة الضب

الفصل الثاني عشر

بوادر الحب

بُذلت الوسائل كلها في التفتيش عن الاميرة صفا لا من قبل ابيها لانهُ كان قليل الاهتمام بها بل من قبل عريسها وذويهِ فانهم حسبوا اختفاءها عارًا لايمحى وزادهم قلقاً تلبُّس الامر عليهم فبعثوا بالرسل الى كل ناحية وصوب بعد ان فتشوا بيوت القرية كلها فلم يقفوا لها على اثر وكان يأتيهم كل يوم رجل بخبر جديد فيبحثون و يفتشون فلا يجدون لخبرهِ صحة وجاءهم رجل ذات يوم وقال انهُ كان ذاهباً الى جهة بسكنتا فامسى عليهِ المساء وغامت السماء تخاف من المطر والليل حالك الظلام والطريق وعر لا يسلك ولا سيما بعد ان مرَّ فيهِ السيل وخرَّبهُ فقصد ديرًا من اديرة الراهبات قريباً من الطريق وطلب من البواب ان يسمح لهُ بالنوم عندهُ فامتنع البواب اولاً عن اجابة طلبهِ ثم رأى اشتداد الريح تخاف ان يموت بردًا اذا لم يسمح لهُ بالمبيت عندهُ. ونحو نصف الليل قرع الباب فقام البواب وفتح واذا امام الباب رجلان معهما امرأة في زي راهبة وهم راكبون خيولاً فدخلا بها ووقف الثلاثة في الصحن الخارجي ودخل البواب وقرع الباب الداخلي فجاءت راهبة ففتحتهُ وادخلت المرأة واقفلت الباب وعاد الرجلان من حيث اتيا

فلما سمع الامير ذلك قام في نفسهِ ان هذه المرأة هي عروسةُ نفسها لانهُ شاع وذاع انها كانت عازمة على الترهب فقام من ساعتهِ ونزل الى بيروت واخبر المطران بما سمعهُ من هذا الرجل فاكد لهُ المطران ان الخبر كاذب لان الراهبات لا يقبلنَ فتاةً عندهنَّ ما لم يأتِ بها اهلها ولاسيما بعد ما حدث من القيل والقال في مسألة الراهبة هندية اما الامير فلم يكتفِ بهذا النفي بل طلب من المطران ان يرسل و يتحقق لهُ الامر فقال ان هذا خاص بسيدنا البطرك وسارسل الآن اخبرهُ بما وقع وانتظر اوامرهُ. وكان مع الامير كيس فيهِ عشرون ذهباً فقدمها الى المطران اجرة قداديس فامتنع المطران عن اخذها اولاً ثم اخذها وقال للامير كنت اظن انك تسمح لنا بنصف المطحنة كما سمحت امك بالنصف الآخر حتى تصير كلها للكرسي. فعبس الامير لان ايجار المطحنة السنوي ثلاثة آلاف غرش ولو اراد ان يبيعها لبيعت بثلاثين الفاً او اكثر ولكنهُ عاد فرأى حرج موقفهِ فقال للمطران الذي نقولهُ سيادتك يصير. واتفقا على ان يكتب لهُ حجة بالنصف الثاني من المطحنة فتصير كلها للكرسي

وكانت الاميرة سلمى اكثر الشهابيات اهتماماً بفقد ابنة عمها لانها عشيرة صباها وقد ربيتا معاً وحالما بلغها الخبر عرفت حقيقتهُ ولكنها كانت تحسب ان ابنة عمها عدلت عن عزمها ورضيت بما قُسم لها فان صفا كانت قد اخبرتها بما عزمت عليهِ منذ اكثر من نصف سنة ثم لما لجَّ الامير قاسم في طلبها ولم ترَ لها مناصاً من قبولهِ ولا سيما بعد ما رأت من اضطهاد زوجة ابيها لها ورأت ان سلمى لا تشجعها على عزمها وغاية ما في الامر انها طلبت منها ان تترك بيت ابيها وتأتي وتسكن معها — لما رأت منها ذلك تظاهرت بالقبول ولم تعُد تبوح لها بشيءٍ وكانت كبيرة النفس قليلة الكلام فدبَّرت امرها على مهل وكانت تعلم خطر السبيل الذي سارت فيهِ ولكن لسان حالها كان يقول

اذا لم يكن الاَّ الاسنة مركبٌ فلا يسع المضطر الاَّ ركوبها

وكانت الاميرة هند كثيرة الاوهام تصدق ما يقال عن الجن والعفاريت فقام في نفسها ان الجن خفطت ابنة سلفها لكنها رأت الامر فادحاً رهيباً حتى لم تجسر على التفكير فيهِ بل خافت ان تذاكر ابنتها بهِ وسرَّت الاميرة سلمى باعتقاد امها ذلك لكي لا تضطر ان تكذب عليها اذا سألتها عمَّا تعلمهُ من امر ابنة عمها لكنها بقيت مضطربة البال عليها ولم يعد يهنأُ لها عيش ومرت الايام وهي لا تزيد الاَّ قلقاً. وكثيراً ما كان يخطر ببالها السر هنري بدمونت فتسرُّ بالخاطر وتجاريهِ او تنفيهِ من ذهنها وتتسلى عنهُ بعمل تعملهُ او كتاب تقرأهُ. ثم كثر تردُّدهُ في بالها ولم يعد يفارقها بسهولة فقلقت اولاً من جراء ذلك ثم رأت انها مدفوعة الى محبتهِ رضيت او كرهت فلم تعد تحاول المحال بمحو صورتهِ من ذهنها وصارت تودُّ ان تراهُ او ترى منهُ اقل علامة تدلها على ان في قلبهِ مثل ما في قلبها. ولما مضت ايام كثيرة ولم ترَهُ ولا سمعت عنهُ شيئاً صارت تقيم في رواق يشرف على طريق الشويفات وكلما رأت فارساً احدقت بنظرها اليهِ. ولم تنقطع عن لوم نفسها وكثيراً ما قامت الحرب بين عقلها وقلبها — يقول عقلها هذا شاب اجنبي رأيتهِ مرتين لا غير والمرجح بل المؤكد انهُ نسيكِ الآن ولم تعودي تخطرين ببالهِ فما هذا الغرور بل هذا الجنون. فيجيبهُ قلبها لو لم يكن في قلبهِ عاطفة اليَّ ما كان فيَّ هذه العاطفة اليهِ والاَّ فما معنى قولهم ان القلوب شواهد والحب متبادل ناهيك عن انهُ في المرتين اللتين رأيتهُ فيهما نظر اليَّ نظراً غير عادي وفي المرتين كان الحياء يصبغ جبينهُ وكان يسترق اللحظ واذا نظرت اليهِ غضَّ طرفهُ ولم ارَ شيئاً مثل ذلك في كل الشبان الذين عرفتهم ولا في احمد. ثم يخفق فؤادها وتشعر كأن حجراً ثقيلاً وضع على صدرها وهي تحاول كتمان ما بها عن كل احد

الفصل الثالث عشر

حل مشكلة

وقف الامير احمد امام باب الجامع وهو يضرب اخماساً لاسداس فضاقت في وجههِ المذاهب وتصبَّب جبينهُ عرقاً بارداً ورأى الوالي حيرتهُ فتظاهر بانهُ لم يرَ شيئاً ووقف معهُ يكلمهُ في الصحن والجماعة تصلي وراء الامام ثم دار معهُ ومشيا الى جهة الميضئة وكان يحسن التركية والوالي يسرُّ بحديثهِ وقد علم انهُ آتٍ من دار قنصل الانكليز لكنهُ لم يشر الى ذلك بل حصر الكلام في تغلب النصارى على الدروز في حادثة بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي وكيف انهم اثخنوا فيهم وحرقوا قراهم . قال وانت تعلم غيرتي عليكم وحسباني اياكم سيف الدولة ولكن الصدر الاعظم لم يكن يهتم بشكاويَّ حينئذٍ الاهتمام الواجب لانشغال الدولة بامور اخرى اهم من مسائل لبنان فلما تمهَّدت تلك الامور اتجه الالتفات العالي الى الجبل وفي النية قصاص الذين سببوا هذه الفتنة . وها عمك وجميع المناصب والمشايخ موافقون على ذلك ويقيني انك انت معهم ايضاً

فقال الامير انا ابن الدولة وعبدها المطيع . وكان كلام الكولونل روز لا يزال يتردَّد في ذهنهِ وهو انهُ اذا دارت الدائرة على النصارى تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم . وصمت قليلاً ثم قال ولكن هل تأذنون دولتكم لي في الكلام بحرية وصراحة . فقال الوالي قلْ ما تشاء فقال هبْ ان الحرب الاهلية نشبت واننا انتصرنا على خصومنا بمعونة الله وبتأييد دولتكم لنا افلا تكون النتيجة ان دول اوربا ترسل مراكبها الحربيَّة وتحتل البلاد حالاً

فتبسم الوالي وقلب شفتيهِ وقال كن مطمئن البال من هذا القبيل فان دول اوربا متخاصمة متناظرة ولا يمكن لدولة منها ان تسمح لاخرى باحتلال هذه البلاد. واحبُّ ما علينا ان نقع المنافسة بينهم حتى نخلص من شرهم

الامير احمد . حلمك يا افندينا فانا قرأت في التاريخ ان دولة واحدة منهم تحسب حامية المسيحيين في الشرق والدول الباقيات يسلمن لها بهذا الحق

فقطَّب الوالي وجه لكنهُ قال ان هذا الكلام حبر على ورق فدولة فرنسا تدعيهِ ودولة المسكوب تنازعها فيهِ . والحق للقوة ألا ترى ان الفرنسويين ساعدوا محمد علي والانكليز قاوموهم وغلبوهم وانا واثق ان الانكليز معنا في هذه النوبة ايضاً ولذلك لا الومك لاجل ترددك على قنصلهم ألا ترى انهُ معنا

والتفت الامير احمد حينئذٍ الى الجامع فرأى الناس قد اخذوا في الخروج فقال في نفسهِ انني اخلص من مشكل واقع في آخر لكنهُ كان قوي البداهة فاجاب الوالي قائلاً نعم اني ارى منهُ كل تشجيع لنا وغيرة على دولتنا و يظهر لي من كلامهِ ان الانكليز لا يزالون مخاصمين للفرنسويين ولا يهون عليهم ان تحتل فرنسا هذه البلاد

وكانت الجماعة قد خرجت من الجامع كما تقدم فسار الوالي والامير احمد معهُ وخرجا من الباب الخارجي كأنهما صليا مع الجماعة وخرجا معها وهو امر عادي للولاة والحكام يدخلون المعابد ويقفون في صحنها يتحدثون مع خواصهم في شؤُون مختلفة وهم يحسبون انهم اتوا وعبدوا مثل غيرهم كأن الكبراء معفون من القيام بشعائر الدين . وسُرّي عن الامير احمد لانهُ كان يكره الرياء ولكنهُ لم يكد يسير في الشارع مع الوالي حتى رأى المرأة التي ديس ولدها واقفة لهُ في المرصاد وهي تصيح وتصخب فسأل الوالي عن قصتها فقيل لهُ ان جواداً من خيل الامير داس ابنها . فوقف وادار رأسهُ الى الامير وشمخ بانفهِ كأن لسان حالهِ يقول لهُ مسكتك وكيف تنجو من يدي . فقال الامير نعم ان ابنها وقع في الطريق فرفسهُ فرس رجل من اتباعي ولكن المسألة عرضية

فقال الوالي ألم يدسهُ فرسك . فقال الامير كلاّ بل فرس رجل من اتباعي وهو لهُ ليس لي ومع ذلك فالمسألة عرضية وقد نقل الى المستشفى

فاسف الوالي على ما بدر منهُ واراد ان يمحو تأثير كلامهِ من ذهن الامير احمد فدعاهُ لزيارتهِ حينما ينزل ثانية الى بيروت وقال لرئيس الضابطة وكان سائرًا وراءهُ خذ هذه المرأة من هنا ولا تدعني ارى وجهها . ثم ودع الامير احمد وسار في طريقهِ فوقف الامير الى ان ابعد عنهُ ثم ركب جوادهُ واسرع الى بيت عمهِ وهو لا يصدق بالنجاة من هذه المشاكل المتوالية

فلما وصل الى بيت عمهِ وجد عمهُ والبعض من مشايخ البلاد في انتظارهِ فهنأُوهُ بالسلامة لان احد اتباعهِ كان قد سبقهُ الى هناك واخبرهم عن التقاء الوالي بهِ واخذهِ معهُ الى الجامع بعد ما جرى للولد ما جرى وكانوا يخافون ان يمنع من دخول الجامع مع الوالي او يأخذهُ الوالي بجريرة الرجل الذي داس فرسهُ الولد فتفضي الحال الى ما لا تحمد عقباهُ فلما وصل قصَّ عليهم ما جرى لهُ مع الوالي في صحن الجامع وكلام الوالي لهُ وكانوا كلهم من رأي الوالي ويظنون ان انكلترا تساعدهم نكايةً في فرنسا أما هو فاكَّد لهم ان انكلترا لا تساعدهم بل تطلب منهم ان يلزموا السكينة ولو اعتُدي عليهم . فقالوا لهُ اذن تكون العاقبة

وخيمة علينا ولا نعود نستطيع السكن في البلاد بل نضطر ان نرحل منها واروهُ مكاتيب واردة اليهم من دروز حوران ووادي التيم فقرأها وتمعَّن فيها مليًّا وجاراهم في الحديث . ثم جلسوا للطعام وغيَّروا موضوع الكلام امام الخدم وجلسوا بعد ذلك ينظرون في تدبير المال اللازم لما يقصد من الاعمال لان الوالي وعد بكل مساعدة حتى بالرجال والسلاح ولكن خزينتهُ افرغ من جراب ام موسى . وكان الخواجه بخور قد انتقل الى بيروت بعد ما وقف على رأي الامير المغربي فزارهُ عم الامير احمد وطلب منهُ ان يقرضهُ الف كيس اي خمس مئة الف غرش وهو يرهن لهُ ما يملكهُ من الزيتون في صحراء الشويفات واختلفا على المدة ومعدل الربا فالامير طلب ان تكون المدة اربع سنوات ويكون الربا اثني عشر في المئة والخواجه بخور طلب ان تكون المدة سنتين فقط ويكون الربا عشرين في المئة وان الامير احمد يضمن الدين مع عمهِ ولذلك لم يتفقا

وجاء الخواجه بخور حينئذٍ لرد الزيارة ومشاهدة الامير احمد لانهُ كان يعرف اباهُ وكان بينهما صداقة قديمة . ولم تطل اقامتهُ حتى اتصل الكلام الى مسألة الدين . فقال الخواجه بخور لقد بلغت الديون التي استدانها منا جمهور المشايخ والبكوات حتى الآن اكثر من ثلاثين الف كيس وكلها بفائدة عشرين في المئة فلا يخلصنا ان نعطيكم باقل من هذه الفائدة لان النقود صارت عزيزة في هذه الايام ولا سيما بعد ما عقدت فرنسا قرضاً وعقدت سردينيا قرضاً آخر استغرقا كل الاموال التي في ايدينا وانتم تعلمون مقدار القلاقل المنتشرة في البلاد كلها ولولا علمي ان الفوز يكون لكم اخيرًا لان الدولة معكم ما كنت اخاطر بغرش واحد ولكن مع ذلك من يدري ماذا تكون العاقبة

فجعل الامير احمد يتوسَّل اليهِ ليتساهل مع عمهِ ويجعل الربا خمسة عشر في المئة ويعفيهُ من الضمان لان عمهُ يستعيب ذلك . ومما قالهُ لهُ ان الاملاك التي سيرهنها عمي لك تساوي خمسة آلاف كيس على الاقل افلا ترهنها على الف كيس لقد زدتموها يا خواجه بخور وهذا ليس من العدل ولا من الانصاف ونحن اصدقاء من زمان طويل

فقال الخواجا بخور ليس في اليد حيلة يا امير احمد وانت تعلم اني لست وحدي وان اولاد عمي لا يتنازلون عن غرش واحد

فاخبرهُ الامير احمد انهُ استدان من بيت طراد ولم يدفع سوى ١٢ في المئة نعم ان المبلغ الذي استدانهُ زهيد ولكنهُ لو طلب منهم الف كيس بهذه الفائدة لاعطوهُ

فاجابهُ الخواجه بخور ان هذا يكاد يكون ضربًا من المحال في هذه الايام وانهُ لو طلب

منهم اليوم ودفع لهم عشرين في المئة لرأى انهم يعتذرون عن اعطائهِ مئة كيس بهذه الفائدة

ولكن كلام الامير احمد عن بيت طراد حلَّ عزائم الخواجه بخور فقال في نفسهِ يجب ان نجمع كل اصحاب البنوك الذين يدينون ونتفق على معدل واحد حتى لا يضر بعضنا بعضاً. وبعد جدال طويل اتفقوا على ان يكون معدل الربا ثمانية عشر في المئة وان تكون المدة ثلاث سنوات ويكتفي الخواجه بخور بالرهن ولا يطلب ضمان الامير احمد

ثم التفت الخواجه بخور الى الامير احمد وسألهُ عما اذا كانت الاملاك تساوي خمسة آلاف كيس حقيقةً فقال نعم وهذا لا يقبل الغلط فانها خمس مئة قنطار من اغراس الزيتون والقنطار يساوي خمسة آلاف غرش على الاقل

فقال الخواجة بخور اذاً يمكنهُ ان يستدين عليها الف كيس أُخرى فنحن تحت امرك وامر عمك

وعاد الخواجه بخور الى مكتبهِ فوجد انهُ اتاهُ تحويل على خزينة بيروت بثلاثة آلاف كيس لان شركاءهُ في لندن وڤينا كانوا يدفعون الاموال في الاستانة ويأخذون بها تحاويل على خزائن الولايات فأُسقط في يدهِ لان اليوم كان الجمعة والخزينة مقفلة واليوم التالي السبت لا يستطيع ان يعمل فيهِ عملاً فيضيع عليهِ ربا يومين فجعل يشتم ربان السفينة التي لم توصل التحويل يوم الخميس وعدَّ ذلك من جملة النحوس التي توالت عليهِ تلك السنة وعاد الى بيتهِ منغص العيش كأَنهُ خسر خسارة كبيرة لا تعوَّض

الفصل الرابع عشر

الاميرة صفا

مضى شهران على اختفاء الاميرة صفا ولم يعلم احد مقرها لكن زادت الاشاعات بانها ترهَّبت في احد الاديرة وكتب المطران الى البطريرك وبحث البطريرك في الدير الذي اشار اليهِ الامير قاسم فلم يجدها فيهِ ولا وجد ان راهبات الدير يعلمنَ شيئاً من امرها . وكان ابوها يظن انها هربت مع شاب من الفلاحين فحُرمت ميراثها من امها لان الشاب غني جداً وكان يحبها ويود الاقتران بها ولكن الشهابيين لا يزوجون الفلاحين ولو صاروا من افقر الناس وصار الفلاحون من اغناهم . وقد قال هذا الشاب لابيها انهُ يتنازل لهُ عن ميراثها من امها وكان وافراً جداً فان امها من نسل الامير بشير الكبير وقد ورثت منها جنائن وبساتين في الحدث والشياح ووطإِ نهر الكلب وضياعاً ومزارع في بلاد جبيل وسهل البقاع فمال ابوها الى

تزويجهِ بها ولكن اخوتهُ وابناء عمهِ منعوهُ من ذلك وهي لم تكن تميل الى ذلك الشاب . واتفق انهُ كان غائباً وقت زواجها فاتهموهُ باختطافها ولكنهُ عاد من غيبتهِ واتَّضح انهُ لم يكن عارفاً بما جري لها لانهُ لما رأى اصرار اهلها على تزويجها بالامير قاسم سافر الى مصر لكي يسلوها . فلما رأى ابوها ذلك انشغل بالهُ وخاف ان يتحقق امر ترهُّبها فيُطلَب منهُ ان يسلمها كل ميراثها من امها وكان كذلك فانهُ بينما كان ذات يوم يفكر في هذا الامر جاءهُ رسول من دير العازرية في بيروت ومعهُ كتاب من ابنتهِ لهُ فلما فضَّهُ وقرأهُ اظلم الضياء في عينيهِ وقام من ساعتهِ وجاء الى بيت اخيهِ الامير عباس ابي الاميرة سلمى لانهُ كان اكبر منهُ سنًّا واوسع خبرة واراهُ الكتاب فارغى هذا وازبد وشتم ولعن وقال لاخيهِ قلت لك لا تدع هؤُلاء الراهبات يدخلنَ بيتك وليس طمعهنَ بصفا بل بالجنائن والبساتين والضياع والمزارع . ما دمتم لا صقين بهذه الطغمة صيروكم على الارض . هذا قاسم الحمار وهب المطحنة كلها للمطران لكي يفتش لهُ عن صفا وانا احلق لحيتي ان كان المطران لا يعلم انها ذهبت مع الراهبات وان ذلك بعلمهِ و بدسيستهِ . هذا امر لا نحتملهُ ولا نطيقة لم يقع مثلهُ لبيت شهاب من اول مجيئهم الى هذه البلاد الى الآن . اسمع ماذا تقول لك في مكتوبها تقول انها فرحة جدًّا لانها تستطيع الآن ان تصلي لاجل خلاص نفسك واهتداء عمها . من كان يمنعها عن الصلاة وهي هنا ألا يسمع الله في لبنان كما يسمع في ايطاليا ولكن ليس العبرة هنا بل العبرة في قولها انها نذرت لله ان تساعد الفقراء والمساكين بكل ما تملكهُ اي بكل ما ورثتهُ تكفيرًا عن نفس امها لان نفسها لا تزال في المطهر . قم قم لعبوا عليك واخذوا ابنتك ومرادهم ان يأخذوا اموالك . ثم اسمع ماذا تقول انها مسبوطة جدًّا ولكن البرد شديد في تلك البلاد وهي مصابة بزكام شديد . غدًا يتحوَّل معها الى سل في تلك البلاد الباردة وتموت . مَن يذهب من هنا الى ايطاليا في فصل الشتاء غير المجانين

فلم يقل الامير فارس شيئًا بل جلس يفكر في الامر ويمصُّ المصَّة بعد المصَّة من الشبق الذي في يدهِ و يطلق دخانها في الجو حتى صار حولهُ سحابة من الدخان وهو يقطب حاجبيهِ تارةً ويرفعهما اخرى كأنهُ يفكر في مسألة ابنتهِ . والامير عباس يعيد تلاوة المكتوب وينظر في معانيهِ . واخيرًا قال الامير فارس ليس لنا الاَّ قنصل فرنسا فهو محتاج الينا الآن فأذهب اليهِ انا وقاسم ونطلب منهُ ان يرجعها حالاً والاَّ نخرب طيختهُ كلها

فقال الامير عباس وهذا لا يكفي بل يجب ان تتهددوا المطران بالرجوع الى الاسلام ان هو اصرَّ على عدم اجابة طلبكم فاني اخاف ان قنصل فرنسا لا يستطيع ان يفعل شيئًا من

هذا القبيل لان الامبراطورة في يد الاكليروس لا تخالف لهم امرًا ولا تتجاسر ان تطلب منهم شيئًا والامبراطور في يدها . وعلى كل حال لا ضرر من الذهاب الى الاثنين الى القنصل والى المطران

وكتبت الاميرة صفا الى الاميرة سلمى وارسلت الكتاب ضمن كتابها الى ابيها ليسلمهُ اليها وهو باللغة الفرنسوية وتقول فيهِ

اختي وشقيقة روحي

اطلب السماح منكِ يا حبيبتي ومن والدتكِ الحنونة لانني فارقتكما على هذه الصورة وقد كنت اعلم لما ودعتكِ وودعتها انني قد لا اعود اراكما في حياتي فتصوري مقدار كآبتي حينما خرجت من بيت ابي ووقع نظري آخر مرة على الوجوه التي احبها وعلى المناظر التي قضيت فيها زهرة عمري . على الاماكن التي كنا نلعب فيها معًا والاشجار التي كنا نجلس تحتها . كل ما كنت اتسلى بتربيتهِ من الطيور والرياحين والازهار كل شيء من ذلك لهُ مكان في قلبي ولكن المكان الاول فيهِ هو لكِ ولامكِ ولقبر المرحومة والدتي . آه يا سلمى كم اود ان اراكِ الآن واضمكِ الى صدري ونذهب معًا الى قبر والدتي فاضع خدي عليهِ واغسلهُ بدموعي . صدقيني يا سلمى اني تركتكم كلكم لاجلها لكي اخلص نفسها لا بدَّ من ان يكون الناس قالوا اقوالاً كثيرة واتهموني تهمًا لا اصل لها الله يسامحهم اما انا فكنت اشعر اني اخترت النصيب الصالح . ولا يحق لقاسم ان يلومني لانني اخبرتهُ صريحًا انهُ يستحيل عليَّ ان اقترن بهِ بعد ان كرست نفسي لخلاصي فلومهُ على نفسهِ وكذلك لا يحق لابي ان يلومني . ومع ذلك فاني اصلي لاجلهما دائمًا كما اصلي لاجل ابيكِ وامكِ ولا تظني يا حبيبتي اني صرت الآن اسعد مما كنت كلاً غير اني ارجو ان يغفر الله لي ولكل الذين احبهم . نوبي عني بتقبيل والدتكِ وتقديم الاحترام لوالدك

ولما قرأت الاميرة سلمى الكتاب وترجمتهُ لامها جلست الاثنتان تبكيان وشعرت الاميرة سلمى كأن بلاطة وقعت على صدرها فلم تعد تستطيع التنفس ومضت ساعة من الزمان وهي تعود الى البكاء كلما وقع نظرها على امها . وصفقت امها بيديها فاتوها بالنارجيلة والقهوة فجلست تتسلَّى بالتدخين وقالت لابنتها هل كنتِ تعلمين يا سلمى عزم صفا على الترهُّب . فقالت اخبرتني صفا بذلك مرارًا ولما رأت اني لم أُصوِّب رأيها لم تعد تكلمني بهِ والظاهر انها لم تصمم الاَّ قبل العرس بيوم او يومين

فقالت امها لا تخافي الاَّ من النهر الهادىء من كان يظن ان صفا تقدر على هذه الحيلة

ولكن ماذا نقول وماذا نتكلم ابوكِ يشمت بنا وخالتك تشمت بنا وابن خالتك يشمت بنا فالصمت اولى . قال عمكِ انهُ سيذهب الى المطران وقنصل فرنسا هو وقاسم ولكن لا فائدة من ذلك وستكون عاقبة تشديدنا انهم لا يعودون يدعونها تأتي الى هذه البلاد . ما خلصنا من سيرة القديسة هندية حتى وقعنا في قصة ابنة عمكِ . غداً ترين تطويل ألسنة الفلاحين علينا الله يهونها

ومرَّت ساعتان وهما في حديث مثل هذا ودخل الامير عباس وجلس الى جانب زوجتهِ واتاها احد الخدم بمنقلة وقال الامير عباس اخذتِ مني عشرين غرشاً امس ولا بدَّ لي من استرجاعها فقالت لهُ ستخسر عشرين فوقها . ثم اخذا يلعبان لكن الاثنين كانا مشغولي البال وقبلما اتما الدق الاول قالت الاميرة هند هل تظن انهم ينجحون في ارجاعها . فقال لا اظن لانهم طامعون باملاكها فان املاكها تساوي اكثر من ستمائة الف غرش ولا بدَّ ما توقفها كلها للدير وانا خائف على صحتها لانها تقول في مكتوبها الى ابيها انها مصابة بزكام شديد

فتنهَّدت زوجتهُ وقالت يجب ان نديل بالنا على سلمى فان اختي كلمتني عنها مرات كثيرة واحمد ميت حتى ياخذها ولكن هي لا تلتفت اليهِ ولا سيما بعد ان زارنا هذا الشاب الانكليزي

الامير عباس — ماذا تقولين ماذا تقولين الشاب الانكليزي متى زارنا هذا الشاب

الاميرة هند — رأيناهُ مرةً ونحن عند النجمة كان مارًّا هو واحمد ثم دعاهُ احمد لحضور العرس ألم ترَهُ حينئذٍ

الامير عباس — نعم رأيتهُ أهذا هو . نعم رأيتهُ ولكنني لم اسأل عنهُ

الاميرة هند — يقول احمد انهُ وكيل القنصل وانهُ من امراء الانكليز

الامير عباس — من امراء الانكليز ويكون وكيلاً للقنصل لعلهُ افتقر مثل كثيرين من الشهابيين

الاميرة هند - يقول احمد انهُ من الامراء الاغنياء ولكن امراء الانكليز مهما كانوا اغنياء يخدمون في اصغر الوظائف السياسية وقد جاء الى بر الشام لكي يفتش عن قبر واحد من اجدادهِ قال انهُ قتل قرب بيروت ودفن في جهات الشويفات او كفرشيما . سلمى تعلم عنهُ اكثر مني فانها سمعت كل كلمة قالها احمد وسمعت اشياء اخرى عنهُ من الخدم فاذا كانت تتعلق بهِ فهناك المصيبة

الامير عباس — لماذا تكون مصيبة الم يتزوج عبدالله بابنة تشرشل بك الانكليزي فان كان هذا الامير كريم الاخلاق شهماً فلا مانع عندي ولكن ان كان افاقًا مثل كثيرين

من الافرنج الذين يأتون البلاد الشرقية للارتزاق والاكتساب فينبغي ان لا ندع لهُ سبيلاً الينا . ثم صفَّق بيديهِ فدخل الخادم فقال لهُ نادِ سلمى . فدخلت الاميرة سلمى وبيدها كتاب كانت تقرأُ فيهِ وجلست الى جانب امها. فقال لها ابوها ما قصَّة هذا الامير الانكليزي

فاحمرَّت وجنتاها وخفق فؤَادها وقد باغتها سؤَال ابيها مباغتةً فلم تدرِ بماذا تجيب لكنها كانت سريعة الخاطر تعلم ان سكوتها حينئذٍ ادلُّ عليها من كلامها واكشف لسترها فقالت لما رأَيتهُ كنت مع امي ولم اسمع منهُ وعنهُ الاَّ ما سمعتهُ امي ولا بد من ان تكون قد اخبرتك بكل ما نعلمهُ من هذا القبيل

فجعل يتفرَّس في وجهها وهي مطرقة الى الارض محمرَّة الوجنتين فلم يخفَ عليهِ امرها ولم يشأْ ان يزيد ارتباكها . ثم قال لا بدَّ من ان يكون احمد عارفاً بهِ . والتفت الى زوجتهِ وقال اذا جاء احمد الى هنا فذكريني لكي اسأَلهُ عنهُ اما انتِ يا سلمى فانظري ما اصاب ابنة عمكِ ولا تدعي احدًا يلعب بعقلكِ وعلى كل حال لا اسمح لكِ ان تفعلي شيئاً الاَّ بعلمي . هل تعدينني بذلك

فقالت نعم ولكن صفا معذورة لان عمي لم يكن يلتفت اليها كما يجب على الاب ان يلتفت الى ابنتهِ وخالتها على ما تعلم

فقال ان كانت صفا معذورة فانتِ غير معذورة فانكِ تعلمين معزتكِ عليَّ وعلى امكِ . وقد كانت امك تود ان تعطيك لابن اختها ولكن لما علمتُ انكِ لا تميلين اليهِ اعترضتها واوقفت الامر

فقالت الاميرة هند ولا ازال اود ان تغير فكرها لانهُ ليس في كل الشبان مثل احمد

اما سلمى فلم تتكلم بشيءٍ بل بقيت صامتة وعاد ابوها الى اللعب بالمنقلة وعادت هي الى القراءة في الكتاب الذي كانت تقرأ فيهِ

وفي اليوم التالي نزل الامير فارس ابو الاميرة صفا والامير قاسم عريسها الى بيروت وزارا المطران اولاً فوجداهُ عارفاً بما جرى للاميرة صفا وقال لهما انهُ لم يكن يعرف ذلك من قبلُ . فقال الامير فارس لقد عرفتَ الآن وانت وسيدنا البطرك قادران على ارجاعها حالاً

فقال المطران ان هذا لا يمكن بعد ان نذرت العفَّة . فنظر اليهِ الامير قاسم نظرة الاستغراب وقال ان قانون الرهبان والراهبات واحد في كل الدنيا تقريباً فالذي يدخل الرهبنة يدخل اولاً تحت التجربة مدة سنة او سنتين ويحق لهُ ان يترك في هذه المدة

فقال المطران هذا قانون رهبنتنا ونحن لا نعلم قانون رهبنتهم وعلى كل حال انا لست

مسروراً بهذا العمل وقد كتبت الى سيدنا البطرك ليعترض عليهِ وانا اعترضت عليهِ بنفسي لاننا لا نسر بمداخلة الرهبنات اللاتينية في طائفتنا ومع ذلك لا اقدر ان اعدكم بنجاحنا

فقال الامير فارس نحن ذاهبان الى قنصل فرنسا فما رأي سيادتك في ذلك

فقال لا بأس اذهبا اليهِ وهو قادر على مساعدتنا اذا اراد

فقال الامير فارس ان لم يساعدنا فانا اعرف كيف افسد لهم الطبخة

فاضطرب المطران من هذا الكلام وقال ماذا تقول يا ابني لا تخلط شعبان برمضان هذه مسألة وهذه مسألة فمسألة ابنتك مسألة دينية عائلية ومسألة الجبل مسألة سياسية وهذه هي الفرصة الوحيدة لنا للتخلص من هذه الحالة التي لا تحتمل فارجو ان لا تحركوا ساكناً

فقال الامير فارس سياسية او غير سياسية فانا لا اسكت ما لم تردوا لي بنتي

فاطرق المطران وهو ماسك لحيتهُ بيدهِ يفكر في الامر ثم قال للاميرين انتظراني هنا حتى اذهب واقابل القنصل

ونادى قوّاسهُ ولبس جبتهُ وسار الى قنصلاتو فرنسا فقابلهُ القنصل بالترحاب وتذاكرا ملياً ثم وعدهُ خيراً

الفصل الخامس عشر

كشف الغامض

اثنان من العملة دخلا مغارة بين الشويفات وكفرشيما ظاهرها قبر بسيط باب في الصخر الكذان الابيض عرضهُ نحو ثلاث اقدام وعلوهُ نحو اربع وقد علاهُ الطحلب وعلت النباتات حولهُ حتى كادت تسدهُ من الاقحوان والشوكران وبخور مريم واينعت السراخس داخل المغارة من كل ما يكره الشمس ويحب الظل وكان مع العاملين ادوات الركس مرّان ومجرفتان وهما اخوان اتيا ليغرسا نصب التوت حيث كان التين مزروعاً لانهما رأيا الحرير اربح من التين وهما مالكان لتلك الارض مثل سائر ابناء لبنان لانهُ قلما يخلو احد منهم من ملك يعمل بهِ وكثيراً ما ينقب البور ويفتت الصخر ويزرع في فتاتهِ تينة او كرمة او توتة او زيتونة

واستمرَّ وقوع المطر ساعة من الزمان فاضطرا ان يبقيا في المغارة كل تلك المدة وصارت عيونهما ترى ما لم تكن تراهُ اولاً لانها اعتادت الظلام فاتسعت حدقاتها وجمعت النور القليل المنعكس عن جدران المغارة فانتبها الى حفرة في داخلها كأنها باب مغارة أُخرى فقاما اليها وجعلا يحفران فازالا التراب واذا هما بباب آخر كالباب الاول ولكنهُ مسدود بحجر كبير .

فتعاونا عليهِ ونزعاهُ من مكانهِ ودخلا المغارة الثانية وهي اكبر من الاولى وكان الظلام حالكاً فيها الاَّ حيث يدخلها قليل من النور من الباب الذي فتحاهُ فمشيا فيها وعثرا بما ظنناهُ عظاماً فاقشعرَّ بدناهما ووقفا حائرين ثم اعتمدا على ان يرجعا الحجر الى مكانهِ و يعودا بعد الظهر ومعهما شمعة . فعادا بعد الظهر ولم يكن احد يشك في انهما عائدان لزرع نصب التوت بعد انقطاع المطر لان الارض ارضهما وكانا يزرعان التوت فيها ودخلا المغارة وفتحا الباب الداخلي ثانية وانارا الشمعة فدهشا مما رأيا فيها فانهما رأيا عظام عشرين او ثلاثين جثة وبعض تلك الجثث لم يكن بالياً بل كان جافًّا مسودًّا ومع بعضها اسلحة قديمة دروع وسيوف وفؤُوس وخوذ كأن الذين وضعوا القتلى هناك من اصدقائهم لا من اعدائهم او كأن الفرصة لم تسمح لهم لسلبهم فالقوهم في المغارة باسلحتهم

فاتفق الاخوان على ان يسدا الباب الداخلي كما كان و يعودا في الليل فيأخذا الاسلحة شيئًا فشيئًا حتى لا يشعر بهما احد فسداهُ وخرجا وكانت السماء قد صحت فعادا الى غرس نصب التوت ووضعا الشمعة على حجر الى جانب باب المغارة

ومرَّ بهما الامير احمد حينئذٍ وكان قد خرج للصيد وحدهُ فوقفا للسلام عليهِ فحانت منهُ التفاتة الى باب المغارة لانهُ لم ينسَ غرض السر هنري بدمونت فرأى الشمعة موضوعة على الحجر فسألهما عنها فارتبكا في الجواب . فوقف مشتبهاً بامرهما وطلب منهما ان يصدقاهُ الخبر فجعل كلٌّ منهما ينظر الى اخيهِ وكانا كلاهما من حزبهِ يركنان اليهِ فلم يريا لهما بدًّا من اخبارهِ بما رأيا في المغارة الداخلية فدخل معهما وازاحا الحجر واوقدا الشمعة فرأى ما رأياهُ وقال لا بدَّ وان تكون جثة جد السر هنري بين هذه الجثث لا سيما حينما رأى الاسلحة قديمة . نعم ان الصدأ كان قد اكلها ولكن شكلها لا يزال ظاهرًا وهي من الاسلحة القديمة التي كانت تستعمل في عهد الصليبيين

فامرهما ان يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا ابدًا ووعدهما بمشترى كل ما وجداهُ فيها وعاد الى دارهِ وهو حائر في امرهِ هل يخبر السر هنري بما رأى فيكثر تردده على كفرشيما والشويفات و يرى سلمى فيزيد ميلها اليهِ وحبها لهُ او يكتم الامر عن كل احد ويقنع السر هنري ان التفتيش عن جدهِ في تلك الجهات ضرب من العبث وعليهِ ان يفتش عنهُ في جهات اخرى . فقام في نفسهِ عاملان متنازعان عامل الشهامة وكرم الاخلاق يقول لهُ هذا رجل غريب وقد التجأ اليك واستنجد بك وقد صار في طاقتك الى ترشدهُ الى ما استعان بك عليهِ فيجب ان تلبي طلبهُ وترسل تخبرهُ بما اكتشف هذان الرجلان وجزاؤُهما عليهِ والاَّ فانت

لئيم لا نجدة لك . وعامل الحب والاثرة يقول لهُ هذا مناظرك في حب ابنة خالتك ويجب عليك ان تبعدهُ عنها بكل طاقتك ولا تدع لهُ سبيلاً للتردد الى هذه الجهات فتنساهُ وتعود اليك . فتقول لهُ الشهامة ان كانت ابنة خالتك قد فضلت هذا الاجنبي عليك فلا خير فيها لك ويجب عليك ان تسلوها وتنساها . فيقول الحب هذا اغترار بالظواهر فقد اغترَّت بهِ وقد لا تخطر على بالهِ ابدًا فاذا لم تعد تراهُ نسيتهْ ونجت من ورطة كان يمكن ان تقع فيها فيجب عليك ان تبذل كل واسطة لنجاتها منها

وبعد جدال طويل على هذا النمط تغلَّب عامل الحب على عامل الشهامة فصمم على ان يحضر الاسلحة الى دارهِ ويخفيها فيها ويسد المغارة ويطمس معالمها . فاستدعى الرجلين وامرهما ان يأتياهُ بكل ما يمكنهما حملهُ من الاسلحة ثم يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا واعطى كلاً منهما عشرة ريالات فقبَّلا يدهُ وذهبا وجعلا ينقلان الاسلحة في حالك الظلام واكتفيا بنقل السيوف والخوذ واما الدروع فتركاها في مكانها وسدَّا باب المغارة جيدًا وغرسا شجرة امام بابها تمنع الدخول اليها

وفي تلك الليلة جاء كتاب الى الامير احمد من الكولونل روز يدعوهُ فيهِ الى بيروت فودَّ ان يطلع اولاد عمهِ عليهِ ولكنهُ خاف من غيرتهم لانهم كانوا يغارون منهُ لمكاتبة القنصل لهُ دونهم وكان يود ان يشركهم في المسؤولية معهُ فوقع بين نارين ونام تلك الليلة وهو على احر من جمر الغضا لا يستطيع ان يخالف الوالي ولا ان يعادي القنصل ولا يريد ان يقابل السر هنري لئلا يسألهُ عما اذا كان قد عرف شيئًا عن المغارة او بلغهُ شيء عنها لانهُ كان قد وعدهُ بمداومة البحث والتنقيب . وكانت الشرور قد تفاقمت وعزم الناس عزمًا اكيدًا على ايقاد نار الفتنة وكانوا ينتظرون انقطاع المطر واهالي الساحل يودون ان ينتهوا من موسم الحرير قبلما يحدث شيء

وقام في الشويفات في ذلك الحين شاب من النصارى اسمهُ كامل جريء الفواد قوي الساعد لا يخطئ رصاصهُ من يسددهُ اليهِ . اجتمع عليهِ مرةً ستة وحصروهُ في مطحنة ففتك باثنين منهم ونجا من يدهم وانتقل الى المتن وجعل دأبهُ ربط الطرق وشن الغارات . وكان النصارى يحسبون ان الفوز سيكون لهم حتمًا لانهم فازوا فوزًا مبينًا في الحركة الاولى في بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي. واتت الرجال من كسروان وهي بالسلاح الكامل واقامت في بعبدا تشجيعًا لنصارى الساحل نخشي الامير احمد ان يذهب بطريق الحدث فيلتقي بكامل هذا او باحد من اتباعهِ فيحدث ما لا تحمد عقباهُ فاختار طريق البرج

ووصل الى دار الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً على جاري عادتهِ فرحب بهِ الكولونل واجلسهُ الى جانبهِ ورحب بهِ السرهنري ايضاً وكان الكولونل قد ارسل واستدعى اثنين آخرين من مشايخ الدروز الذين يثق بهم فوصلا بعد وصول الامير احمد بنحو ربع ساعة ولما استقرَّ بهم المجلس وشربوا القهوة قال لهم الكولونل لقد بلغني أن الوالي ابلغكم الاوامر التي وصلتهُ من الاستانة فانا اؤكد لكم ان هذه الاوامر غير صحيحة وان الذين بعثوا بها اليهِ غير مسؤولين عما يفعلون او هم جهلاء لا يعرفون مصلحتهم ومصلحة بلادهم لان الحركة التي امركم بها ستعود عليكم بالوبال وتجر الشر على رؤوسكم فاسمعوا مني واخبروا عقالكم لينصحوا جهالكم والاَّ فالخطب جلل

فجعل الشيخان ينظر كلٌّ منهما الى الآخر اما الامير احمد فكان خالي الذهن لان الوالي لم يعد يأتمنهُ فلم يطلعهُ على تلك الاوامر مع انهُ ارسلها الى اولاد عمهِ لكن كبر عليهِ ان يتظاهر بجهلها امام الشيخين واستنتج ماهيتها من كلام الكولونل فقال لقد قلنا لسعادتكم قبلاً اننا نحن لا نكون البادئين ولكنهم اذا احرجونا اخرجونا فوافق الشيخان على كلامهِ

ولحظ القنصل ان الامير احمد يتكلم وهو غير عالم بفاد الاوامر ولكنهُ لم يشأ ان يظهر ذلك امام الشيخين فقال لهم اني انذرتكم وبينت لكم وخامة العاقبة حتى اذا تخلت عنكم دولة انكلترا لا يكون عليها لوم

وكان احد الشيخين كبير السن وقور المنظر فقال لهُ اسمع يا سعادة القنصل نحن نعلم ان دولة انكلترا تحبنا وتودنا وتدافع عن حقوقنا ولكن ذلك كلهُ يتوقف على رأي سفيرها في اسطانبول وقنصلها في بيروت والسفراء والقناصل يتغيرون كل سنة او كل بضع سنوات واما دولتنا فلا تتغير وسياستها معنا صارمة كما لا يخفى فاذا لم نطع اوامرها اوقعتنا في المهالك ودولتكم اقوى منا وكما منعت ابرهيم باشا المصري عن البقاء في هذه البلاد يمكنها ان تمنع رجال دولتنا عن القاء الفتن فيها . فاذا كنتم تريدون ان توقفوا هذه الحركة فلا اسهل عليكم من ان تأتوا بمركبين حربيين وتهددوا بهما بيروت وترسلوا فرقة من عساكرهما الى الشام فيقف كل واحد عند حدهِ ولا يخفى على سعادتك ان الحركات التي تصير في لبنان اكثرها ليس منا بل من غيرنا فاذا اوصيتم كل اهالي الجبل حتى يلزموا السكينة لم يحدث فيهِ شيءٌ . ونحن قد نزلنا الى بيروت خوفاً من القلاقل ونؤكد لسعادتك ان البلاد كلها منتظرة الشهر التالي ولا بدَّ من قومة عامة اذا كانت بقية القناصل لا توجب على النصارى ان يلزموا جانب السكون

فقال القنصل وما هي هذه الاوامر التي اطلعكم الوالي عليها

فقال احدهما يصعب علينا ان نجيب سعادتك على هذا السؤال ولكن لا بدَّ ما يكون سفيركم في اسطانبول قد وقف عليها كلها

ولم يكن السفير عارفاً بها ولا مهتماً بالوقوف عليها واستحى الكولونل ان يخبرهم بذلك وكان واثقاً ان الامير احمد لا يعلم بها والشيخين لا يفشيان سرًّا أُوتمنا عليهِ فلم يلح عليهما لكنهُ فهم من مغزى كلامهما ان الاوامر ذات شأن خطير كما قيل لهُ . ورجا ان يأتيهُ من يخبرهُ بها حرفيًّا لانهُ كان يقول ان السياسة تقضي على المرء ان يعرف مقاصد خصمهِ بكل واسطة حتى يتلافى الضرر قبل الوقوع فيهِ الَّا انهُ ودَّ ان يعرفها ذلك اليوم ليكتب مع البريد يخبر وزارة الخارجية ورأى ان الشيخ مصيب في طلب مركبين حربيين وعزم ان يكتب بذلك الى حكومتهِ ولو وقف على الاوامر السرية التي بلغهُ خبرها لفعل ذلك حتماً

ولما انتهت المذاكرة نهض الامير احمد ونهض الشيخان لنهوضهِ فودعوا وركبوا خيولهم وساروا الامير احمد الى بيت عمهِ والشيخان الى بيتيهما لانهما كانا قد شتيا في بيروت تلك السنة هما وكثيرون من مشايخ الجبل على خلاف العادة. وكان لا بدَّ لهم من المرور تجاه بيت الشيخ درويش ابي نخر وكأَنهُ كان جاسوساً عليهم يرقب حركاتهم وسكناتهم فوقف في باب بيتهِ وسلَّم عليهم وطلب منهم ان ينزلوا ويشربوا فنجان قهوة فاعتذروا اليهِ بضيق الوقت وبقرب آذان الظهر فمسك بلجام فرس الامير احمد وقال عليَّ الطلاق ان لم تنزلوا وتشربوا فنجان قهوة . فاضطروا ان ينزلوا فادخلهم بيتهُ واجلسهم حيث اجلس الامير ونادى بالقهوة وجعل يقص عليهم ما سمعهُ من الوالي من المدح والثناء على الامير احمد وذكائهِ قال وقلت لدولتهِ ان الامير احمد ابن ابيهِ وابوهُ كان صديقي والصداقة قديمة بيننا انتم الآن آتون من عند قنصل الانكليز لا بأس فان الانكليز اصدقاه لدولتنا العلية هم والفرنسوي حالفوها على حرب المسكوب ولكن يُرَى لي ان السياسة انقلبت اليوم فان افندينا الوالي ما عاد يركن الى قنصل الانكليز . لم يقل لي ذلك صريحاً ولكنني فهمت منهُ . انا القطها طائرة . ونحن ما لنا وللقنصل ولكل الافرنج ما دام دولتنا في الوجود . ما هو رأْي القنصل قل لي يا امير احمد الظاهر انك لا تستخلصني كما كان يستخلصني المرحوم والدك

فقال الامير احمد ليس الامر كذلك يا ابا نخر ولكنك انت عارف بكل شيءٍ والذي لا تعلمهُ بالسمع تستنتجهُ بذكاء عقلك

فضحك ابو نخر وقال هكذا كان المرحوم ابوك يقول عني نحن احباب من زمان طويل وحضرة الشيخين معرفة مباركة ان شاء الله تفضلوا خذوا القهوة . هذا بن حجازي يأْتيني

هديَّة كل سنة لا مثيل لهُ في كل بيروت ولا في الشام وعندي جارية اشتريتها من جواري اسعد باشا كأنها مخلوقة لعمل القهوة فلا اطيب من قهوتها وهي تدق البن في هاون خشب ولا تدقهُ في هاون نحاس لئلا يفسد طعمهُ -- كل شيء صنعه . يقال ان قهوة البدو اطيب من غيرها شربتها في السنة الماضية لما اتى عرب الفضل الى بلاد الحولة ذهبت الى هناك من قِبَل الوالي لبعض الاشغال وكنتُ اشرب من قهوتهم فلا اراها اطيب من قهوة الجارية التي عندي . ماذا تقول يا حضرة الشيخ هل شربت قهوة اطيب من هذه القهوة والفناجين والظروف الامير احمد يعرف قصتها . زارني الوالي في رمضان لكي يشرب من هذه القهوة ولما رأى الفناجين ابتهج لها والى الآن يقول انهُ ما شرب مثل القهوة التي شربها في بيت الشيخ درويش

فقال احد الشيخين نعم القهوة كما وصفت يا حضرة الشيخ ونحن مسرورون بهذه المعرفة الجديدة والفضل فيها لسعادة الامير. وصادق الشيخ الآخر على كلامهِ ونهضوا وبعد اللتيا والتي تمكنوا من وداعهِ وركبوا وساروا في طريقهم والامير احمد يقول لا بدَّ لنا ان نجد طريقاً آخر نمر بهِ بعد الآن حتى نخلص من هذا الثقيل

وسار الامير احمد الى بيت عمهِ والشيخان الى بيتيهما وافترقوا على ان يجتمعوا في المساء في خلوة رأس بيروت ويتداولوا في ما يجب عليهم عملهِ في الاحوال الحاضرة

الفصل السادس عشر

استفحال الخطب

اری خلل الرماد وميض جمرٍ ويوشك ان يكون لهُ ضرامُ
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها الكلامُ

وما الحرب الاَّ ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ اذا ضرَّيتموها فتضرمِ
فتعرككم عركَ الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئمِ
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كاحمرَ عادٍ ثم ترضع فتفطمِ
فتغلل لكم ما لا تغلُّ لاهلها قرًى بالعراق من قفيز ودرهمِ

ليقل محبو السلام ما شاؤوا في مذام الحرب وليطنب كتَّابهم في وصف ويلاتها فما دام

في الدنيا اناس يتَّجرون بالحروب ويكتسبون بها اسماً وجاهاً او مالاً ومقاماً فهم يوقدون نارها ويذكون اوارها فهي آلة الملوك والوزراء والقواد والروساء والمرابين والمورّدين وصانعي الاسلحة والمهمات وكل المرتزقين من مال غيرهم . فما دام هؤلاء يجدون فيها مغنماً فلن تنطفئ نارها

وشر الحروب الحرب الاهلية وشر الناس موقدو سعيرها ولا سيما اذا لم يكن للمتحاربين مصلحة فيها

مضى الشتاء وجاء الربيع فانتعشت الطبيعة ولبست ابهى حللها وحلاها . تفجَّرت الينابيع واكتست الرياض والغياض اثواباً سندسيَّة مطرزة بالوشي المعلم وانحنت الادواح تحت حملها من تفاح فضي ومشمش عسجدي والطيور تتغنَّى في افنانها وعبق اريج الازهار يعطّر الآفاق ويسلي النفوس عن اشجانها . استغفر الله . الطبيعة من نبات وحيوان جذلة طربة الا ابن آدم انتظر انقطاع الامطار لكي يبدلها بوابل من رصاص بنادقهِ يخطف بها النفوس من الابدان قضاءً للبانات افراد معدودين

وصلت الاخبار الى الكولونل روز ان الرزيئة وقعت والنار اشتعلت وقد طرح الصوت وأُطلق المدفع وانفضَّ رجال كسروان من الساحل اطاعة لامر الوالي والمطران وعادوا ادراجهم واجتمع الدروز حول مشايخهم وهجموا على قرى المتن فالتقاهم النصارى خائري العزائم لان الجنود في الحازمية وراءهم وقد خافوا ان يقعوا بين نارين لا سيما وانهُ كان قد شاع وذاع ان في يد الوالي اوامر سرّية باستئصال شأفتهم

وصعد السر هنري بدمونت الى سطح القنصلية والنظارة في يدهِ فرأى كأن ربى لبنان استحالت الى براكين كثيرة تقذف الدخان والنيران من افواهها وقام ابناؤهُ زرافات زرافات مشاة وفرساناً وقد نشروا الاعلام وانتشروا حول القرى يهاجم بعضهم بعضاً ويترامون برصاص البنادق من وراء المتاريس ثم يستلون السيوف ويردون الحتوف الى ان يتغلب فريق على فريق فيدحرهُ ويضرب في اقفيتهِ ثم يضرم النار في مساكنهِ . والتفت الى كفرشيما حيث دار الاميرة سلمى فرأى الدخان مسردقاً فوقها فوقعت النظَّارة من يدهِ وجلس على كرسيٍ وسند رأسهُ وقد مرَّ في ذهنهِ صور الحروب القديمة التي كانت تنشب في تلك البلاد وتنتهي بحرق البيوت وسبي النساء والذراري فقال في نفسهِ ترى ما حلَّ بتلك الاميرة واي فارس اردفها وراءهُ الآن وهي تنادي وتستغيث ولا سامع ولا مغيث هل يفعل ما كان يفعلهُ الفرسان في القرون الوسطى فيتقلد سلاحهُ ويركب جوادهُ ويبادر لانقاذها يهجم على الفارس الذي خطفها ويطعنهُ طعنةً تكون القاضية . ولكن انَّى لهُ ذلك الآن وهو غريب في بلاد غريبة وقد

قضي الامر وكادت جموع الفارين تصل ابواب بيروت. وهل بقي الامير عباس واهل بيته في كفرشيما الى ان هاجمها الاعداء او غادرها في الليل الغابر وهل ركب مع اتباعه وقاوم الاعداء فدارت الدائرة عليه او رأى ان المقاومة ضرب من المحال فاركن الى الفرار

وكان الكولونل روز مصاباً بزكام شديد وحمى وهو طريح الفراش فنزل السرهنري واخبره بما رأى فتململ في سريره وتحفز للقيام ولكن اصابته نوبة سعال صرفته عن عزمه فقال نالوا بغيتهم اتوا بالرجال من كسروان لتشديد العزائم ثم صرفوهم لحلها وارسلوا الجنود الى الحازمية لتسكين الخواطر وهم يعلمون مع من ضلعها. واولئك الحمقى من امراء ومشايخ مغترون بالمواعيد ولا يعلمون ان الدائرة ستدور عليهم اخيراً ولوكان النصر لهم وقد اخلصت لهم النصح فما انتصحوا

ثم عاودته نوبة السعال فعجز عن الكلام . وحضر الترجمان حينئذٍ وقال للسر هنري ان الفارين من قرى الساحل قد وصلوا الى بيروت وهم في حالة يرثى لها وكلهم نساء واولاد مع بعض العجائز ولا طعام لهم ولا شراب ولا يعلمون الى اين يذهبون فاتجه فريق منهم الى دار مطران الموارنة وفريق الى دار بطركخانة الروم وانتشر كثيرون منهم في بساتين التوت في حي المصيطبة وبير النبع ولا بدّ لنا من مساعدتهم بما يفرج كربتهم وان كنا لا نحمّل الوالي تبعة كل ما يحدث في المدينة فلا امان عليهم ولا علينا . كيف حال القنصل الآن

السرهنري — القنصل على حاله وانت ادرى مني بالخطة التي يجب ان نجري عليها في هذه الحال فاخبرني بما ترتئيه وانا استشير القنصل به . الم يأت الرجال مع الهاربين

الترجمان — لم ارَ الاّ قليلين منهم والباقون لا يزالون يناوشون خصومهم ويدافعون عن حريمهم ولابدّ ان يبلغ عدد القتلى والجرحى مبلغاً كبيراً لان القلوب ملآنة والناس لا يعرفون نظام الحروب

وودّ السرهنري ان يذهب ويختلط بجموع الهاربين ليفتش عن الاميرة سلمى ولكنهُ كان يجهل كل طرق الاستدلال عليها وخاف ان يسأل الترجمان كما يخاف من يحاول منكراً ويرى العيون رقيبة عليه. ثم لام نفسهُ لانهُ فكّر بامر خاص وقتما يجب عليه ان لا يهتم الاّ بالامر العام وبالبليّة الكبرى التي تشمل الوفا مثل الاميرة سلمى وقد تكون هي اسعد حالاً منهم كلهم فجلس مشرّد الافكار ينظر الى السقف مرةً والى الارض اخرى

وسار الترجمان الى الدار التي يجتمع فيها المرسلون الاميركيون ليستشيرهم في الامر وهو عازم ان يذهب بعد ذلك ويرى قنصل فرنسا وقنصل روسيا ثم يعود ويخبر السرهنري بما وقف عليه

الفصل السابع عشر

واقعة الساحل

لما كان السر هنري واقفاً على سطح القنصلية يرى الدخان يتصاعد عن سفح لبنان من قراه المنتشرة كالحبب على وجه الماء او كالدراري في كبد السماء كان رجال الساحل قد احيوا الليل بالاستعداد لمقابلة الاعداء وانقسموا فريقين فريقاً تولى حماية النساء والاولاد والذهاب بهم الى مدينة بيروت مع ما خفّ حمله وغلا ثمنه من الامتعة وفريقاً تسلّح وودّع اهله واقاربه وداعاً قد لا يعقبه لقاء . فكنت ترى هنا طفلاً متعلقاً بثياب ابيه وهو يقول له كيف نتركنا يا ابتِ ومن يبقى مع امي واخواني وابوه يرفعه بيديه ويقبله ثم يسلمه الى امه ويوصيها به . وهناك امرأة تربط زنار الفشك (الخرطوش) على وسط زوجها وتناوله بندقيته ويطقانه وهي تنظر الى وجهه تارةً والى اطفالها اخرى وترفع قلبها الى الله وقديسيه ليردوا لها زوجها سالماً .وهنالك رجلاً يودّع ابن عمه ويقول له أودعك يا اخي المرأة والاولاد فيجيبه ذاك بامان الله كن مستريح البال فهم مثل اولادي واعز . واكثر الاولاد نيام يوقظهم امهاتهم فيفركون عيونهم ثم ينامون . والنساء الجبارات يحملن جرار الماء ليجرين وراء الرجال. والجمال باركة تهدر والناس يحملون عليها امتعتهم وهم يتآمرون في ما يجب اخذه وما يجب تركه . والمكارون يسبّون ويشتمون وقد علت الجلبة واختلط الحابل بالنابل ووقف العجائز بعضهن يشير بما يجب عمله وينبئ بحسن المصير وبعضهن يضرع الى السيدة ومار الياس ومار انطونيوس وكانت ليلة صفا اديمها واغنت دراريها عن بدرها فاشرقت تقابل بين توحش الناس وانس الوحوش

ولما طلع الفجر ركب الامراء وهم بالعدة الكاملة مع كل واحد منهم سيف وقربينة وطبنجتان ومشى الرجال معهم ومع كلٍّ منهم بندقية ويطقان او بالة وطبنجتان او فردان . وسار حملة البيارق في مقدمة الجمع وهم ينشدون الاناشيد الحماسية ومشوا فرقاً فرقاً الى ظهور الوادي وبعبدا ومترسوا هناك واشرقت الشمس حينئذٍ وصبت اشعتها عليهم فكادت تعمي ابصارهم وقبل ان يتموا اقامة المتاريس اقبل الدروز عليهم براياتهم البيضاء واصلوهم ناراً حامية ومرّت ساعتان والحرب سجال بين الفريقين لكن الدروز كانوا اكثر عدداً واحكم انتظاماً واطوع لقوادهم فاقام فريق منهم يناوش النصارى ودار فريق من ورائهم وكاد يقطع خط الرجعة عليهم ويئس النصارى من الفوز فجعلوا يرتدون القهقرى وكلما وصلوا الى مكان تسهل المترسة فيه وقفوا واطلقوا بنادقهم على اعدائهم حتى اذا لم يستطيعوا قهرهم

اخَّروهم عن بلوغ قراهم الى ان تخرج عيالهم منها وتصل الى بيروت

ودار الحديث التالي بين اثنين من الدروز

حامد — من هذا الخيَّال الذي ينحّي رجالهُ والسيف مسلول بيدهِ

محمود — اتعني راكب الحصان الازرق او راكب الحصان الاشقر

حامد — راكب الحصان الازرق فاني اراهُ لا يخاف الموت

محمود — هذا الامير عبدالله وهذا حصانهُ الابجر وهو مثل الابجر حصان عنتر بن شداد لا مثيل لهُ بين خيول الشهابيين

حامد — ان بندقيتك نظامية فلماذا لا تطلقها عليهِ

محمود — نيشنت عليهِ مرتين وانا ارمي العصفور الطائر ولكني لم اصبهُ لان المجال بعيد والرصاص لا يصل اليهِ

حامد — لماذا لا يهجم عليهِ الشيخ حمدان وما هو نفع كحيلان ان كان لا يلحق الابجر

محمود — اخ

حامد — مالك قم نتبعهم فقد قاموا من امامنا

محمود — الكاتبه ربك يصير سلّم على ام قاسم وقل لها ربي ابنك حتى يأخذ بثار ابيهِ — يا حمزه يا سيد عبدالله — وارتمى علي الصعيد فجرهُ حامد الى وراء صخر ودنا من الشيخ حمدان واخبرهُ ان راكب الحصان الازرق هو الامير عبد الله عقيد النصارى . فقال لهُ ومن اين تعرفهُ . فقال من حصانهِ . فلما سمع الشيخ حمدان ذلك اغمد سيفهُ وصلى قربينتهُ واغار على الامير عبد الله وهو يقول في نفسهِ كسرنا القوم وقتلنا عميدهم حتى اذا دنا من الامير قال لهُ خذها ولا تقل اني غدرتك واطلق القربينة عليهِ وكان الامير عبد الله قد تنحَّى من وجههِ فلم يصبهُ شيء من حوّاشها ثم ارتدَّ اليهِ والسيف في يدهِ واطبق عليهِ وكاد يوقع بهِ ولكن راهُ اربعة من اتباعهِ وهجموا عليهِ ببالاتهم فارتدَّ عنهُ وهو يقول لهُ ان كنت راعي كحيلان فابرز اليَّ وحدك فارساً لفارس

وكان بعض الدروز قد داروا من وراء النصارى واضرموا النار في بيوت الوادي وبعبدا وسبنيه والتفت النصارى فرأوا الدخان يتصاعد من بيوتهم فايقنوا ان الجنود المعسكرة في الحازمية لن تدفع عنهم مكروهاً خلافاً لمواعيد الوالي ان لم تكن ممالئة لعدوهم عليهم فارتدوا الى بعض الدور وتحصنوا فيها

والتفت ميخائيل الى منصور وقال لهُ لقد دخل الامير دارهُ وتحصن فيها ويظهر لي اننا

لا نستطيع ان نصبر اكثر من ساعة وربما تتعذر علينا النجاة بعد ذلك فما لنا ولقلة العقل

منصور — أيليق بنا ان نترك الامير وحدهُ في هذه الساعة لا انا لا اذهب من هنا الاّ رجلي ورجلهُ

ميخائيل — هو فارس وانت راجل فاذا حميت الحديدة تركك وهرب

منصور — هو وشأنهُ اما انا فقد حلفت لامهِ اني لا اتركهُ

ميخائيل — اخ

منصور — مالك مالك يامسكين الذي تأتي ورقته يذهب غصباً عن رقبته. في رأسك. رصاصهم عالي. هذه الرصاصة من صاحب اللفة البيضاء خذها يا ملعون. وسدَّد اليهِ بندقيتهُ ورماهُ فلم يصبهُ ثم التفت فرأى الامير خارجاً من باب دارهِ ومعهُ صندوق صغير فتناولهُ منهُ وجرى وراءهُ

وكانت الشمس قد تكبدت السماء ورأى النصارى ان الدروز تكاثروا عليهم وكادوا يحيطون بهم من كل جهة فاركنوا الى الفرار وتبعهم الدروز الى قرب الشياح وقتلوا منهم زهاء ثلاثين نفساً وفي جملتهم الامير بشير قاسم الملقب بابي طحين

ووصلت العيال الى بيروت في الصباح بعد شروق الشمس بساعة او ساعتين وتفرقت في احياء المدينة واضطر الاولاد الصغار من ابن ست سنوات فصاعداً ان يسيروا هذه المسافة كلها مشياً على اقدامهم والرجال الذين ساروا معهم لحمايتهم لقيهم الخفر عند فرن الشباك والميدان واخذوا ما معهم من الاسلحة بامر والي بيروت فلم يعودوا يستطيعون الرجوع لنصرة اخوانهم

الفصل الثامن عشر

التفتيش عن الاميرة سلمى

عاد الترجمان من مقابلة المرسلين والقناصل واجتمع بالسر هنري وتذاكرا مع القنصل ملياً ثم خرج السر هنري مع الترجمان يتعهدان احوال النصارى الذين وصلوا الى بيروت ذلك الصباح فارين من وجه الدروز وكان الرجال الذين اصلوا نار الحرب وناوشوا الدروز الى ان تكاثرت جموعهم واضطروا ان ينهزموا من وجههم قد وصلوا الى بيروت وجعلوا يفتشون عن عيالهم فكانت المرأة التي ترى ان زوجها او ابنها او اخاها لم يعُدْ مع الذين عادوا توقن انهُ بين القتلى فترفع صوتها بالبكاء والعويل وتجلس تضرب صدرها وتنوح نوحاً يفتت الاكباد

واجتمع كثيرات من النساء زرافات زرافات وقد اسدلن الشعور وجعلن يلحن بالمناديل ويندبن ويبكين وسمع اولادهم صوت البكاء والنواح فعلا بكاؤهم وعويلهم وقام الرجال ينتهرونهم لكي يسكتوا او يشاركونهم في البكاء واجتمع عليهم نساء بيروت واولادها يأتونهم بالخبز والماء ويرثون لبلواهم . وكان لاكابر الساحل اصدقاء واقارب نزلوا عليهم فوسع هؤلاء لهم في منازلهم واحلوهم على الرحب والسعة

وسار السر هنري والترجمان من محلة الى اخرى يرون الرجال ويستقصون الاخبار والسر هنري يكتب في مذكرتهِ كل ما يراهُ ويسمعهُ وكان يعلم اسم الاميرة سلمى ويعلم انها شهابية ولكنهُ نسي اسم ابيها ولم يكن يدري كيف يسأل عنها فقضى من العصر الى قرب الغروب ينتقل من محلة الى أخرى ومن حي الى آخر فلم تقع عينهُ عليها ولا على امها ولا على ابيها فزاد انشغال بالهِ وكاد يبوح بما في نفسهِ للترجمان لعلهُ يساعدهُ على التفتيش عنها . وبينما هو في حيرة ولا حيرة الضب حانت منهُ التفاتة فرأى القزم الذي رآهُ في كفرشيما لما التقى بالاميرة سلمى وامها على عين الماء بين كفرشيما والشويفات ورآهُ القزم فعرفهُ وجعل يناديهِ قائلاً يا خواجه يا قنصل فهش لهُ السر هنري واخذ بيدهِ وكادت الدموع تهطل من عينيهِ لمَّا قابل الحالة التي رآهُ فيها اولاً وهو يكاد يكون في مجالس انس الملوك والحالة الحاضرة والناس مرتمون على الارض كالانعام واطفالهم يبكون ويتخاطفون كسر الخبز وكأنهُ كان يرى الف رقيب عليهِ فطلب من الترجمان ان يقول للقزم ليأتي معهُ الى دار القنصلية ويقص عليهِ ما حدث لهم . فقال لهُ الترجمان ان القنصل يدعوك للذهاب معهُ الى دار القنصلية فقال حباً وكرامة . وكان القواسة قد احضروا لهُ فرساً وللترجمان فرساً آخر فركبا وعادا الى دار القنصلية وعاد القواسة بالقزم اليها

وجعل الترجمان يسألهُ عن الامراء واحداً واحداً الى ان وصل الى اسم الامير عباس فقال ان الامير عباساً تخاصم مع الوالي فان الوالي طلب منهُ ان يوافق الدروز ويكون معهم لانهُ مسلم فرفض ذلك وذهب بزوجتهِ واولادهِ الى ابناء عمهِ امراء حاصبيا منذ اربعة ايام . ثم التفت الى السر هنري وقال لهُ والاميرة سلمى معهم . ففهم السر هنري اسم سلمى واستفهم من الترجمان عما قال فترجمهُ لهُ فاظلم الضياء في عينيهِ ولم ينتبه الترجمان لذلك ولكن القزم انتبه لهُ وقال اني رأيت الاميرة سلمى يوم ارتحلوا وكانت تشير على ابيها ان ينزلوا الى بيروت وتؤكد لهُ ان قنصل الانكليز يحميهم وهو مصرٌّ على الذهاب الى حاصبيا ووادي التيم ولما فرغت حيلتها جعلت تبكي وتتوسل الى امها لكي تقنع اباها بالنزول الى

بيروت او بالذهاب الى الشويفات الى بيت خالتها لان الامير احمد ارسل يدعوهم اليهِ ولكن الامير عباساً رجل عنيد لا يسمع رأي احد

ثم قال القزم للترجمان قل للقنصل ان الاميرة سلمى تحبهُ وكانت تريد ان تنزل الى بيروت لاجلهِ. فأبى الترجمان ان يترجم هذا الكلام للسر هنري لكن السر هنري طلب منهُ ان يترجمهُ لهُ فترجمهُ لهُ فتضاحك وقال قل لهُ من اين عرفت ذلك. فقال اجبهُ ان العصفورة اخبرتني وانا وان كنت صغير الجسم لكن عمري اربعون سنة وانا أُضحك الناس واضحك عليهم لاني اعرف ضمائرهم واقرأُ افكارهم في وجوههم وحركاتهم فاننا لما كنا على النجمة ورأيتهُ واقفاً امامها قرأت في عينيها وعينيهِ رسائل الحب بينهما. وقل لهُ ان الاميرة سلمى في حاصبيا الآن ولا امان عليها هناك لان امراء حاصبيا مع النصارى ولا بدَّ ما تدور الدائرة عليهم وليس لهم هناك مدينة يلجأُون اليها مثل بيروت فان كان يحبها حقيقة فليبذل جهدهُ في انقاذها. ثم نظر الى السر هنري وجعل يكلمهُ بالاشارات ففهم السر هنري بعض مرادهِ وزاد انشغال بالهِ وقال في نفسهِ ان هذا الرجل المشوَّه الخلقة اذكى فؤَادًا من اكثر الذين رأيتهم في حياتي فطيب خاطرهُ واخرج من جيبهِ قبضة من النقود الفضية واعطاهُ اياها وعرض عليهِ ان يبقى في القنصلية وينام مع الخدَم اذا اراد فقبل ذلك شاكرًا وصار دأبهُ التردُّد على النازحين الى بيروت والمجيءَ باخبارهم فكان من افضل المخبرين واذكاهم فؤَادًا واكثرهم تدقيقاً واصوبهم رأيًا

وكان السر هنري يسمع ما يأتي بهِ من الاخبار وهو يفكّر في الاميرة سلمى وما يحتمل ان يصيبها في حاصبيًا اذا وقع بها ما يخشى وقوعهُ او اذا لجأ بها ابوها الى عرب البادية فتاهوا في القفار وغزا بعضهم بعضاً وأُخذت سبية وقد يراها امير من امرائهم فيتزوج بها رغماً عنها. وراجع ما كتبهُ قنصل صيداء عمَّا بلغهُ من اخبار حاصبيًا فوجد ان الفتنة ابتدأت فيها ولا امان على الامراء الشهابيين الذين هناك ولو كانوا مسلمين ولكن الحول والطول في تلك الجهات للست نائفة اخت الشيخ سعيد جنبلاط فعزم ان يكتب اليها لكي تحمي الامير عبَّاساً وعائلتهُ ولكنهُ عاد وتذكر ما قالهُ لهُ القزم وهو ان الامير عبَّاساً عنيد ولا يرضى ان يحتمي باحد من الدروز فرأى ان لا فائدة من الكتابة

ولا اشد على المرءِ من ان يرى نفسهُ مغلول اليدين لدى امر يسهل عليهِ عملهُ ولكن لا سبيل لهُ اليهِ. فلو جاء الامير عباس الى بيروت لكانت حمايتهُ وحماية كل الذين يلوذون بهِ من اسهل الامور على السر هنري ولو كان الوالي ضدهُ ولكنهُ اختار الذهاب الى مكان

في داخلية البلاد دون الوصول اليهِ خرط القتاد

وكانت هذه الافكار تتردد في بال السر هنري وهو يتناول عشاءهُ ولحظ الكولونل اضطرابهُ فظن ان ذلك ناشئٌ عما شاهدهُ ذلك اليوم مما ينفجع لهُ المرءُ فلم يشأ ان يسألهُ عنهُ ثم استطرد الحديث الى احوال اللاجئين الى بيروت فتكلم السر هنري كلاماً مجملاً دل على انهُ كان مشغول البال بامرٍ آخر

الفصل التاسع عشر

النار ولا العار

ومَن يخشى اطراف الرماح فاننا · لبسنَ لهنَّ السابغات من الصبرِ
وان كريهَ الموت حلوٌ مذاقهُ · اذا ما مزجناهُ بطيب من الذكرِ
وما رزق الانسان مثل منية · اراحت من الدنيا ولم تخزِ في القبرِ

ألا ربما كان التصبر ذلةً · وادنى الى الحال التي هي اسمجُ
وقد يركب الخطب الذي هو قاتلٌ · اذا لم يكن الاَّ عليهِ معرَّجُ

لا اثقل على نفس الحر من الصنيعة يسديها اليهِ مَن ليس اهلها . ولا من الانقياد لرأي ترى من نفسك بطلانهُ . هكذا كان شأن الامير عباس حينما بعث اليهِ الامير احمد يدعوهُ الى الشويفات ليقيم في حماهُ فانهُ لما اخبرتهُ زوجتهُ الاميرة هند بكلام الرسول هزَّ رأسهُ وقال الله الله صار ابن شهاب يحتمي بابن ارسلان لا وتربة اجدادي . ثم نادى بغلمانهِ وقال استعدوا للسفر فاننا ذاهبون الى حاصبيا . وقال لزوجتهِ لا يمكنني الذهاب الى الشويفات والالتجاء الى بيت ارسلان ولا النزول الى بيروت لان الوالي على ما تعلمين وقد سفَّهت رأيهُ وحذَّرتهُ عواقبهُ فحقد عليَّ . ولا البقاء هنا لانهُ لا بدَّ للدروز من مهاجمة الساحل ولا يستطيع النصارى ان يثبتوا في وجههم بعد ان كفل الوالي لهم الفوز فقولي للاولاد ان يكونوا على استعداد فنذهب الى اولاد عمنا في حاصبيا ووادي التيم فانهم بعثوا يلحون علينا بالذهاب اليهم وربما ذهبنا من هناك ونزلنا على عرب الفضل فان الامير عمر الفاعور ارسل اليَّ مرتين لنذهب اليهِ ونحن باختيارنا منازل البدو على غيرهم نكون قد عدنا الى اصلنا او كما يقول المثل اكلنا الفول وعدنا الى الاصول

وكان الشهابيون في كفرشيما والحدث وبعبدا مرتابين في امرهِ هل ينتصر للدروز او

ينتصر للنصارى ولكنهم لم يكلموهُ في هذا الموضوع وهو كان يعلم ان الحرب الاهلية تؤُول الى اضعاف اهالي لبنان كلهم فيتمكن ولاة الدولة من اذلالهم وكان يسفه رأي القائلين بها والحاثين عليها وافضى الجدال بينهُ وبين والي بيروت الى المغاضبة لكنهُ طلع بسواد الوجه مع الفريقين فلاهو ارضى الدروز ولا هو ارضى النصارى وارتاب كلاهما في اخلاصهِ . واقام يرقب تغير الاحوال وتفاقم الخطوب وكلما حانت لهُ فرصة وبّخ القائمين بهذه الفتنة وسفّه رأيهم وهو لا يوقر كبيرًا ولا يحترم ذا مقام حتى مطران الموارنة صديقهُ الحميم اغتاظ منهُ وكفّ عن زيارتهِ . وبقي يحسب ان الوالي يرى وخامة العاقبة فيأمر الفريقين بالتزام جانب السكينة او يكون على المعتدي مع المعتدى عليهِ الى ان جاء الرسول من عند الامير احمد يطلب منهُ ان يلجأ الى دارهِ ليحتمي فيها . وكان يعلم ان الامير احمد رجل جدّ لا يقول الاَّ ما يعني ولا يتكلمُ الاَّ بالوقار التام فثبت لهُ حينئذٍ ان الشرّ واقع لا محالة وان الدروز واثقون بالفوز في هذه النوبة وهم لا يثقون هذه الثقة الاَّ وقد اكَّد لهم الوالي انهُ ينصرهم بالجنود وترجَّح لهُ حينئذٍ ما كان قد سمعهُ ولم يصدقهُ وهو ان الوالي اشترى روُساء الدروز بالاموال الطائلة واستأجرهم لهذا العمل استئجارًا ولما رآهم ممتنعين عن اجابة طلبهِ برأي بعض عقالهم حذَّرهم سوء العاقبة وقال لهم ان الاموال التي عرضتها عليكم اعطيها لخصومكم واساعدهم عليكم ان انتم اصررتم على رفض طلبي. لان غرضهُ كان اثارة الفتنة على كل حال عملاً بمشورة الحزب الناقم على الحكومة في الاستانة . وقد عمل بعض الدروز برأيهِ مكرهين لانهم رأوا انفسهم بين نارين فاختاروا اخف الشرين وما هذه اول مرة استحلّ فيها رجال السياسة اثارة الحروب والفتن لاجل اغراضهم السياسية

فقال الامير عباس حينئذٍ لقد قضي الامر واتفق الدروز مع الوالي ووافقهم الامير احمد وما كان اغناهُ عن امر يجرُّ عليهِ البلاء . فقوي الميل في نفسهِ الى نصرة ابناء عمهِ لانهُ الفريق المعتدى عليهِ ولكن ابناء عمهِ في لبنان لا يأتمنونهُ فقال لا بدَّ من الرحيل الى حاصبيا لان امراء حاصبيا لا يزالون على الاسلام مثلهُ وهم من حزب النصارى

وشاع في كفر شيما ان الامير عباسًا عازم على الارتحال الى حاصبيا فلم يعبأ اهلها بارتحالهِ لانهم كانوا غير عارفين الى اي حزب ينتمي وكانوا يحسبون ان الفوز سيكون لهم اذا اتقدت نار الحرب لان رجال كسروان كانوا في بعبدا وهم ابطال مشهود لهم والدروز يخشون بأسهم ووراءهم بلاد كسروان كلها

ولم يخطر على بال الاميرة سلمى انا اباها يفضل الذهاب الى حاصبيا على البقاء في كفر شيما

او النزول الى بيروت . وكانت تتبع حوادث الجبل وتعلم ان اهاليهُ يستعدون لحرب اهلية وكثيرًا ما سمعت اباها يتكلم عن رعونة القائمين بهذه الحركة وانها ستعود عليهم بالضعف غالبين كانوا او مغلوبين مستشهدًا بالحروب الاهلية الماضية ونتائجها الوخيمة . وحسبت كل حساب الأحساب الذهاب الى حاصبيا والابتعاد عن بيروت فانهُ لم يخطر لها ببال . فلما جاءتها امها تقول لها ان اباك عازم على الذهاب بنا الى حاصبيا ووادي التيم نظرت الى امها نظر المستفهم المرتاب وقالت حاصبيا ألى هناك ثم صمتت وكانت آخذة في كتابة كتاب الى ابنة عمها الاميرة صفا فوقف القلم في يدها ولم يعد يجري . وقالت لها امها ان احمد ارسل يدعونا لنذهب الى دارهِ فرفض ابوك ذلك واغتاظ من دعوتهِ لنا . فقالت سلمى اذا قال ابي قولاً لا يرجع عنهُ وانت تعلمين طبعهُ فليس لنا الاَّ التسليم لارادتهِ

قالت ذلك لانها رأت اضطراب امها فارادت ان تخفف عنها اما هي فكانت كارهة لهذا السفر نافرة منهُ اشد النفور ثم مضت الى غرفة ابيها وكلمتهُ على انفراد مبينة لهُ ان قنصل الانكليز يحميهم اذا نزلوا الى بيروت ولما قال لها من اين تعلمين ذلك اسقط في يدها ولكن بداهتها كانت قوية فقالت لهُ اني اشعر بهذا الامر من نفسي وقد سمعت احمد يقول غير مرة ان قنصل الانكليز مضاد للوالي فاذا عرف ما بينك وبين الوالي فلا بدَّ من ان يحميك منهُ

فقال ابوها هذا قد يكون وقد لا يكون والمسألة مسألة حياة وموت وعار وشماتة فلا القي بيدي الى التهلكة وكانت تعلم انهُ اذا قال كلمة لا يعود عنها فتركتهُ . وعادت الى الكتاب الذي كانت تكتبهُ لابنة عمها وهي تقول في نفسها لعلَّ صفا احكم مني ولو ذهبت وترهبت مثلها لخلصت من كل هذه الهموم وتجلت امام عينيها حينئذٍ صورة السر هنري بدمونت وكانت قد مضت ايام كثيرة لم ترهُ فيها ولا سمعت عنهُ شيئًا ولا سمعت اسمهُ بلسان احد فجالت الدموع في عينيها وهي تقول ما اشقى المرأة تحب فتضطر الى الكتمان وتميت قلبها وعواطفها لكي تحافظ على عادات قومها . ولقد طالما عللت نفسي باني اسلوهُ فمضت الايام وانا لا ازيد الاَّ شوقًا اليهِ فماذا يصيبني اذا ابعدت عنهُ ولم يبقَ لي اقل امل ان اراهُ . ورآها القزم وهي على تلك الحال ورأى آثار الدموع في عينيها فلم يخفَ عليهِ امرها

ومضي النهار وهي سكرى لا تدري ماذا تفعل وكان الخدم يهيئون ما يلزم اخذهُ من الامتعة ونهضوا في الصباح وركب الامير عباس وزوجتهُ واولادهُ خيولهم وحملوا الامتعة على ستة بغال ركب عليها بعض الخدم ايضًا وام يوسف معهم اخذتها معها الاميرة هند لتسليتهم حتى اذا بلغوا نهر الدامور وجدوا الماء فيهِ غزيرًا الى بطون الدواب وكاد يحمل

واحداً من المكارين فعلا صياح الجواري واضطر الامير عباس ان يعود اليهن ويتهددهنَّ بالضرب ان لم يصمتنَ. اما الاميرة هند والاميرة سلمى فكانتا معتادتين ركوب الخيل فخاض فرساهما الماء بهما من غير ان توجسا شرًّا . وتغدوا في النبي يونس ووصلوا صيداء بعيد الظهر فباتوا فيها في بيت قاضيها وهو من اصدقاء الامير عباس ومن اهل التقى وقاموا منها قبل الفجر قاصدين حاصبيا فوصلوها عند الغروب وخرج الامراء الشهابيون للقائهم ومعهم جماعة من اهالي حاصبيا فرحبوا بهم وانزلوهم على الرحب والسعة . وانست الاميرة سلمى بمن رأت هناك من بنات اعمامها لا سيما وان بعضهنَّ كنَّ متعلمات في المدارس الانكليزية واباؤُهن على واسع علم وحسن محاضرة . ورأت عندهم كثيرًا من كتب الادب فاخذت تطالع فيها لتسلي نفسها وتنسى ما مرَّ بها في الشتاء الماضي مما شغل بالها ولا يرجى تحققهُ في زمن من الازمان ولكن لم يكد يستقر بهم المقام حتى وردت الاخبار ان الدروز هاجموا ساحل بيروت وحرقوا قراهُ وقتلوا كثيرين من سكانهِ فعلا البكاء والنواح في دار الخدم وقامت ام يوسف تطالب الاميرة هند بزوجها وتطلب منها ان ترجعها الى كفر شيما وهي تقول خرجنا يوم الجمعة وهو يوم نحس ما اقلَّ عقلي . وقلق الامراء لانهم رأوا ان الفتنة اوقظت ولا بدَّ ما ينتشر سعيرها في البلاد كلها

الفصل العشرون

شكوى الحب

قام السرهنري عن العشاء واتم التقرير الذي شرع في كتابتهِ للسفير وارسل صورتهُ الى نظارة الخارجية بعدما قرأها للقنصل . ثم دخل غرفتهُ واخذ قلماً وقرطاساً وجعل يكتب لامهِ وكان كلام القزم لا يزال يرنُّ في اذنيهِ ولا سيما قولهُ ان الاميرة سلمى تحبهُ كما يحبها فاخذ يصف لامهِ ما شاهدهُ من احتراق قرى لبنان وما رآهُ من احوال سكانهِ الفارين منهُ وما سمعهُ عن الحرب التي نشبت ذلك اليوم ومما قالهُ لها مهما اطنبت في جمال هذه البلاد لا اوفيها حقها من الوصف فقد طفت اسكتلندا في اجمل فصول السنة ورأيت بحيراتها وجداولها وجبالها ووهادها ومررت على سويسرا في فصل الصيف واقمت فيها نحو شهرين ولكنني لم ارَ اجمل من ربى لبنان وساحل بيروت في فصل الربيع . والناس هنا اهل جد ونشاط الرجال يحرثون الارض و يغرسون الاشجار والنساء يغزلن ويحكن وكلهم يربون دود القز و يستخرجون

منهُ الحرير وامراؤهم ليسوا على ثروة طائلة مثل امرائنا ولا قصورهم فخيمة مثل قصورنا ولكنهم متمتعون بشيء من ابهة السيادة والاستقلال وعندهم الخدم والحشم من العبيد والجواري والخيل والبغال ويركب الامير منهم ومعهُ خدمهُ بالسلاح الكامل . ويظهر لي ان البلاد غنية على ما فيها من سوء الادارة ولكن مهما بالغتُ في قولي سوء الادارة فلا تفهمين مرادي لانكِ لا تستطيعين ان تتصوري ان حكومة تقسم شعبها قسمين وتحرّض القسم الواحد على الآخر لكي يفتك بهِ ويخرب دياره٠ هذا هو الامر الواقع الآن وقد بذل الكولونل جهده لكي يمنعهُ فما استطاع لان المغرين بالشر اقوى منا . ومما يسوءني ذكرهُ ان جيراننا عبر البحر مساعدون على هذا التحريض لكي يحتلوا البلاد . وقد ذهبت نصائحنا سدًى وكان اليوم يوماً مشهوداً رأيت فيهِ الدخان صاعداً من منازل السكان الى عنان السماء وشاهدت بالنظارة البحرية التي عندنا جماهير الاهالي باثوابهم البيضاء والزرقاء واعلامهم الحمراء والبيضاء ومعهم قليلون من الفرسان وهم امراؤهم ومشايخهم يجتمعون ويفترقون ويترامون بالرصاص ويتضاربون بالسيوف ثم يهجم بعضهم على بعض وينذحر بعضهم من امام بعض وجنود الحكومة معسكرة في الطريق تصدُّ الفارين عن الفرار وضلعها مع احد الفريقين على الآخر وهي لو ارادت لاطفأت هذه الحرب بكلمة يقولها قائدها اومدفع يرمي بهِ المعتدين

ونزلت بعد الظهر الى شوارع المدينة واحيائها فرأيت ما تتفتت لهُ الاكباد رأيت النساء جالسات تحت اشجار التوت او في عرصات البيوت يندبن وينحبنَ واولادهنَّ يبكون طالبين ما يسد الرمق. ورأيت بعض الرجال واقفين حيارى لا يدرون ما يفعلون ولا كيف يعولون عيالهم وعيال الذين قتلوا من اخوانهم وقد نهبت امتعتهم وحرقت منازلهم . ورأيت امرأة بديعة الجمال ومعها ولدان كأنهما بدران وهي تندب ندباً ابكى الترجمان فترجم لي كلامها فاذا هي تقول " انها ذهبت الى القبر تطالبهُ بحبيبها فاجابها ان حبيبها ملقى على الطريق تأكلهُ طيور السماء وتنهشهُ وحوش البرية "

نحن باذلون جهدنا الآن لنجمع من المال ما يخفف بعض الكرب عن هؤلاء المساكين ولو بتقديم الخبز لهم . فابذلي جهدك لتجمعي لنا ما يمكن جمعهُ من احسان المحسنين وقولي لاقلين ان هذا يومها فارسلوا لنا نقوداً وثياباً ان امكن والنقود احسن لان ارسالها اسهل بتحاويل على الصيارفة ولا بدَّ ما تزيد الحاجة لانهُ يبلغنا ان الاوامر صدرت بقتل كثيرين في انحاء سورية او حيثما يمكن الايقاع بهم ويصعب علينا ان نصدق هذا الخبر لغرابتهِ ولكن ما حدث اليوم يدل على صحتهِ وسنرى ما تفعلهُ حكومتنا في هذه الحال

اخبرتك في تحرير سابق عن الاميرة سلمى التي رأيتها في بلدة قرب بيروت وقد رأيت اليوم النار مضطرمة في دار ابيها ثم بلغني ان اباها ارتحل بها الى بلدة تبعد نحو يومين عن بيروت ولا اظن انها في مأمن هناك . ولا اخفي عليك يا اماهُ ان لهذه الفتاة في نفسي منزلة لا اراها لغيرها نعم اني لم انسَ اڤلين وحبالي ولكنني كنت اشعر دائمًا انها لا تنظر اليَّ كما انظر اليها وقلبي يحدثني انها نسيتني الآن او انها كانت تحبني محبة الصداقة او محبة الاقرباء بعضهم لبعض . وهذه الاميرة لم تكلمني كلمة تدلُّ على الحب ولا انا ذاكرتها في هذا الموضوع لا صريحًا ولا تلميحًا ومع ذلك كنت اشعر من قلبي اني وقعت في نفسها كما وقعت في نفسي وبقي هذا الاعتقاد فيَّ مبنيًا على التصوُّر لا غير الى اليوم فسمعت اليوم ما حقق لي ظني وذلك انني عثرت على القزم المهرج الذي رأيتهُ في دارهم فاخبرني بامور وفي جملتها انهُ عارف عن ثقة ان هذه الاميرة تحبني وان ابن خالتها طلب الاقتران بها فرفضتهُ وهو الامير احمد الذي اخبرتك عنهُ قبلاً . فهذا الخبر وذهابها مع اهلها الى حاصبيا في هذه الاوقات بلبلا افكاري ولا اعلم ما يأتي بهِ الغد . لا داعي لاخبار اڤلين بشيء من هذا القبيل بل يكفي ان تخبريها بحاجة الناس هنا الى مساعدتها وكرمها ولقد اعطاها الله ثروة وافرة لتساعد بها المحتاجين فلجّي عليها لتتصدق بكل ما يمكنها التصدُّق بهِ وانا اراقب توزيعهُ على مستحقيهِ بنفسي. ثم التفت الى امور اخرى خصوصية من حيث املاكهم وريعها وراتبهُ وطلب في الختام رأيها في امر الاميرة السورية

الفصل الحادي والعشرون

الشهابيون في بيروت

وصل الامراء الشهابيون الى مدينة بيروت بخدمهم وحشمهم واستأجروا بيوتًا نزلوا فيها فرأوا ان نفقاتهم اليومية زادت عما كانت وهم في دورهم لان اكثر مواد الطعام لهم والعلف لخيلهم ودوابهم كانت تأتي من املاكهم فلا يدفعون ثمنها اما الآن فاضطروا ان يشتروا الحنطة واللحم والسمن والزيت والزيتون والحبوب على انواعها والشعير والتبن . وكان لا يزال عندهم قليل من النقود من ثمن الحرير الذي باعوهُ او انزلوهُ معهم الى بيروت فانفقوهُ في ايام قلائل وجعلوا يستدينون ممَّن اعتادوا الاستدانة منهم من تجَّار بيروت وصيارفتها فاعتدل الدائنون اولاً في معدَّل الربا ثم زادوا رويدًا رويدًا يومًا بعد يوم

والتقى اثنان من التجار ودار بينهما الحديث التالي

نقولا — هذه فرصة نادرة يا مارون اذا لم نستغنمها سبقنا اليها بخور

مارون — وما هي هذه الفرصة النادرة عسى ان لا تكون مثل فرصة الصوف التي خسرنا بها عشرة آلاف ليرة

نقولا — من كان يعلم ان استراليا تمتلئ غنمًا في سنة واحدة وتملأُ الدنيا صوفًا ومع ذلك فالتورُّط الى هذا الحد في المشترى والتخزين كان رأيك ورأي عمك وجهد ما هنالك انني ارشدتكم الى الصنف وقلت انهُ ينتظر الصعود في ثمنهِ بناء على ما كنت اقرأُهُ في الجرائد التجارية وبناء على ما كتب بهِ اليَّ عميلي من بلاد الانكليز

مارون — ما علينا من مسألة الصوف فما هي هذه الفرصة النادرة

نقولا — الشهابيون في بيروت وقد صاروا على الارض فقد باعوا كل حريرهم وصرفوا ثمنهُ ولا امل لهم بشيء من مواسم الغلال وهم يستدينون المئة الآن بعشرين وبثلاثين وبخور ورفاقهُ عازمون ان يسلخوا جلدهم اما انا فلا رأي لي ان ندينهم لاني لا استحلُّ ان ندين بعشرين وبثلاثين بل ان نشتري منهم املاكهم في سقي بيروت ووطإ نهر الكلب فان كل بساتين التوت هناك لهم ويمكننا ان نشتريها منهم الآن بارخص ثمن

مارون — أتعرف كم ايراد الملك الآن

نقولا — اظن ان الايراد قليل لا يزيد على اربعة او خمسة في المئة ولكن اسعار الحاصلات ستزيد فيزيد معها ثمن الملك

مارون — كيف عرفت ان اسعار الحاصلات ستزيد وما ادرانا انها لا تنقص

نقولا — اني اعرف ذلك لسببين السبب الواحد يمكنني ان اخبرك بهِ وهو ان دود الحرير مضروب في فرنسا وايطاليا وقد اجتهد الفرنسويون كثيرًا في علاج الضربة فلم يجدوا لها علاجًا ولا بدَّ ما يرتفع ثمن الحرير فيرتفع ثمن بساتين التوت هذا هو الامر الاول . والامر الثاني اخبرك بهِ على شرط ان تعدني انهُ يبقى الآن في سرك

نقولا — اذا كان الامر يحتاج الى كتمان فاعدك بكتمانهِ

مارون — لو ما كان يحتاج الى الكتمان ما كنت اطلب منك كتمانهُ

نقولا — قل لي ما هو وانا اعدك بكتمانهِ

مارون — اني اعلم عن ثقة ان عساكر فرنسا ستحتل سوريا والمرجح انهُ لا يمضي شهران حتى يكونوا هنا

فلما سمع نقولا هذا الكلام ابرقت اسرَّتهُ وقال اذا كان الامر كذلك فستتضاعف قيمة

الاملاك حتماً فما العمل ومَن يطلبها لنا من الشهابيين

مارون -- ليس لنا الّا السمسار غنطوس فهو يدخل فيهم مثل النعس ويلبص عليهم مثل الباطلينوس

ثم استدعياه ُ وسألاه ُ عن الشهابيين وتدرَّجا معهُ في الحديث الى مشترى الاملاك اي الاراضي المزروعة توتاً وجنائن في ساحل بيروت ووطإِ نهر الكلب فوجداه ُ على تمام الخبرة باحوال الشهابيين واتفقا معهُ على السمسرة وعلى ان يذهب و يعاين الاملاك ويأتيهما بوصفها

وقام من ساعتهِ لهذا الغرض فاجتمع برجل اسمهُ عبد الله كان مستلماً اشغال امير من اغنى الامراء واكثرهم اسرافاً . ويحكى عن هذا الرجل انهُ تورَّط في اختلاس اموال مولاه ُ حتى اغتنى واقتنى املاكاً و بنى دوراً فاشتكى منهُ اولاد مولاه ُ لابيهم وقالوا له ُ ان عبد الله نهبك والناس كلهم يلوموننا لاننا ابقيناه ُ عندنا كل هذه المدة فقال لهم ان هذا الرجل كان جائعاً فشبع الآن فاذا عزلناه ُ واتينا بانسان آخر يكون جائعاً فيضطر ان ينهب لكي يشبع فخير لنا ان نبقي الشبعان من ان نستخدم رجلاً جوعان

وكان عبد الله هذا على ما يُطلَب من اتساع الذمة فساره ُ غنطوس واتفق معهُ على قسمة السمسرة مناصفةً . وكان الامير قد فوَّض اليهِ عقد سلفة بالفي ليرة فجاءه ُ في المساء بعد العشاء وجعل يشكو من ارتفاع الفائدة وان المداينين ماسكون السكين ليذبحوا ذبحاً فلا يعطون المئة باقل من خمسة وعشرين في السنة وبعد كل جهد انزلهم الى اثنين وعشرين

وكان الامير اكولاً يأكل دجاجةً او دجاجتين على عشائهِ ومتى شبع اتكأ على مسند الى ان ينام فيقلَب الى فراشهِ قلباً وينزل دمهُ الى معدتهِ فلا يبقى منهُ في رأسهِ ما يكفي لتوليد الافكار او لتشغيل العقل فقال لعبد الله وما رأيك ولا اظن ان احداً يديننا باقل من ذلك في هذه الضيقة . فقال عبد الله انني اهتديت الى طريقة أُخرى لاخذ المال المطلوب من غير ان نخسر خسارة تذكر وهي ان الاملاك التي تحت قناطر زبيدة لا يبلغ ايرادها مئة ليرة في السنة ويمكننا ان نبيعها بالفي ليرة وفائدة الالفي ليرة ٤٤٠ ليرة على الاقل فاذا بعناها نكون قد وفرنا ٣٤٠ ليرة في السنة وعندي سمسار يمكنهُ ان يبيعها لنا بهذا الثمن اذا اعطيناه ُ سمسرتهُ

ففتح الامير عينيهِ وقال له ُ اعد لي ما قلتهُ ثانية . فكرَّر له ُ الكلام الاول بالتأني . فقال فهمت فهمت نبيع العلقة التي تحت القناطر بالفي ليرة هي والمطحنة طيب بعت اكتب الحجة حتى امضيها لك

وفي اقل من خمسة ايام اشتري غنطوس للخواجه نقولا والخواجه مارون املاكاً بنحو عشرة آلاف ليرة وهي تساوي عشرين او ثلاثين الف ليرة . ودرى غيرهما من التجار بذلك فجعلوا يتسابقون الى مشترى الاملاك وهي من جنى الشهابيين لانهم هم استخدموا الفلاحين لنقب الارض وحرثها وغرسها ولكن الذين تعبوا على انشائها ماتوا واورثوها اناساً لم يتعبوا بها فسهل عليهم بيعها وهكذا انتقل جانب كبير من املاكهم الى تجار بيروت . ولقد احسنوا في ما فعلوا من بيع الاملاك بدل استدانة الاموال ورهنها لانهم لو استدانوا ورهنوا املاكهم لتضاعف الدين في ثلاث سنوات فالذين اشاروا عليهم بالبيع لم يضروهم ولكن جاءهم الضرر من جهة اخرى وهي ان كثيرين منهم رأوا نجاح التجار ومكاسبهم الكثيرة فسوّلت لهم النفس ان يبيعوا املاكهم و يتجروا بثمنها وفاتهم ان التاجر يمارس التجارة ولداً ويربى فيها من صغرهِ حتى يتمرّن عليها و يعرف اساليبها واسرارها و بغير ذلك تكون التجارة خاسرة فلم يمضِ عليهم وقت طويل حتى خسروا كل الاموال التي وضعوها في التجارة وهذا شأن كل من يستسهل الاعمال ويتعاطاها قبلما يتمرّن عليها

الفصل الثاني والعشرون

المذاكرات السياسية

اجتمع مجلس الوزراء في بلاد الانكليز للنظر في ما سيطرح على البارلمنت من المسائل ومنها مسألة عن جبل لبنان والفتنة التي اتقدت نارها فيهِ . فقال وزير المستعمرات هذا هو الامر الذي كنت اخشاهُ من حين شرعت الشركة الفرنسوية في انشاء سكة المركبات من بيروت الى دمشق فقد اخذت الآن تقول ان لها مصالح مالية في سورية لا يمكنها الاغضاء عنها وانهُ لابد لها من ارسال جنودها لحماية مصالحها هناك

فقال وزير المالية الى اين وصلوا في انشاء ذلك الطريق . قال ذلك موجهاً خطابهُ الى ناظر الخارجية

فاجابهُ وزير الخارجية لايمكنني ان اقول بالتأكيد الى اين وصلوا لانهم ابتدأوا من اماكن مختلفة في وقت واحد على ما كتب بهِ اليَّ قنصلنا في بيروت لان البلاد جبلية وفيها كثير من الآكام والاودية والغدران ولا بدَّ من بناء جسور كثيرة في اماكن مختلفة فبنوا هذه الجسور ومهدوا الطرق بين جانب كبير منها على ميول معتدلة . ولا يسعنا ان ننكر انهُ

صار لهم مصلحة مالية ثابتة في البلاد ولنا نحن ايضاً مصلحة مالية بسبب تجارتنا الواسعة وهي اوسع من تجارة فرنسا بل مثل تجارة اوربا كلها ولكن ليس لنا رأس مال موضوع في البلاد مثل فرنسا الآ اذا اشترينا الشركة الفرنسوية · وقد خابرت بعض الماليين في مشتراها فلم ارَ منهم رغبة في ذلك لانهم يظنون ان ترعة السويس ستبطل طريق التجارية البرية بين بيروت وبلدان المشرق وليس الاعتماد على تجارة دمشق نفسها بل على البلدان الشرقية التي تصل تجارتها الى دمشق

فقال وزير الحربية وهل تظن ان الفتنة خمدت واكتفى الفريقان بما حدث

فاجابهُ وزير الخارجية كلا بل يظهر من تقارير قناصلنا ان النار لا تزال مخبوءة تحت الرماد وانهُ لابدَّ من امتداد الفتنة الى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ودمشق نفسها ليست بمأمن من ذلك · والقناصل باذلون جهدهم لاخماد الفتنة وحماية النصارى ولكن الامر ليس في يدهم لانهُ يظهر ان اوامر سرية وردت من الاستانة الى رجال العسكرية لايقاد نار الفتنة وليس المراد بها الفتك بالنصارى دون الدروز بل مساعدة فريق على فريق فيصح ان يساعدوا الدروز على النصارى ويصح ان يساعدوا النصارى على الدروز والمراد اثارة الفتنة على كل حال وتضحية بعض النفوس لغرض سياسي وهو تحريك اوربا لالقاء المسؤولية على الحكومة الحالية · هذا هو الغرض الذي يرمون اليهِ على ما اتصل بنا واخواننا عبر الخليج يرمون الى غرض آخر ولكنهم يتوسلون اليهِ بالطريقة نفسها اي بايقاد نار الفتنة في البلاد ونحن نكاد نكون مغلولي الايدي وقد كتب الينا قنصلنا في بيروت انهُ باذل قصارى جهدهِ لايقاف الفتنة عن هذا الحد واطفاء نارها ويساعدهُ على ذلك صديق قديم لنا من مشايخ الدروز لهُ اكبر سلطة على جماعتهِ فاذا نجح في سعيهِ ووقفت الفتنة عند هذا الحد فلا اظن ان جيراننا يصرُّون على ارسال جنودهم الى هناك واذا لم تقف عند هذا الحد بل شملت البلاد كما يخشى فلا بدَّ لنا حينئذٍ من تدبير آخر

فقال وزير الحربية اننا نطلب حينئذٍ ان يكون الاحتلال مشتركاً ونرسل فرقة من جنودنا

فقال وزير المالية وهل في الامكان ارسال جيش الآن مع ما نحن فيهِ من الضيق المالي ولا ارى ان الميزانية تساعدنا على ذلك

ونظروا الى رئيس الوزراء كأنهم يطلبون رأيهُ فقال ليس من الحكمة ان نرسل جنودنا مع جنود فرنسا لانهُ قد يتولَّد من وجود الجيشين مشاكل ليست في الحسبان وفوق ذلك فان جيراننا يستسهلون ان يرسلوا عشرة الآن مقاتل الى هناك ونحن لا نستطيع ان نرسل هذا

العدد ولا يليق بكرامتنا ان يكون عدد جنودنا اقل من عدد جنودهم فيضعف نفوذنا حيث نريد ان يقوى ولكنني ارى انهُ يسهل علينا ان نقنع فرنسا بان يكون ارسال جنودها باسم اوربا كلها وحينئذٍ يسهل علينا ايضاً ان نطلب منها ارجاعهم باسم اوربا حينما يتيسَّر الاستغناء عنهم

فاستصوب الجميع هذا الراي وطلبوا من ناظر الخارجية ان يكلم سفير روسيا بهِ وسفير بروسيا قبلما يكلم سفير فرنسا

واجتمع البارلمنت في المساء فقال احد الاعضاء قرأْنا في جرائد الصباح ان حرباً اهلية نشبت في سورية وان لبعض الدول الاوربية يداً في ذلك فما هي الاخبار التي عند الحكومة وما هي التدابير التي عزمت على اتخاذها لاخماد الفتنة

فاجابهُ رئيس المجلس ان ما قرأَهُ حضرة العضو المحترم صحيح بوجه الاجمال والحكومة تنظر الآن في التدابير التي يجب اتخاذها ومتى اقرَّت عليها لا تتأَخر عن اخبار المجلس بها

فقال عضو آخر ان لنا مصالح مالية كبيرة في مدينة بيروت فهل يخشى على تلك المدينة وما هي التدابير التي اتخذتها الحكومة لوقاية مصالحنا هناك

فاجابهُ الرئيس ان الاخبار التي وردت الينا حتى الآن لا يظهر منها انهُ يخشى على مدينة بيروت وعلى ذلك فقد امرت نظارة البحرية بارجة من اسطول البحر المتوسط بالذهاب من مالطة الى سواحل بيروت وسواحل سورية

وقال عضو ثالث ان جماعة من المبشرين الانكليز منتشرون في مدن سورية فهل أُخذت الاحتياطات اللازمة لوقايتهم

فقال الرئيس يظهر ان قناصلنا لم يغفلوا عن ذلك ولا عن حماية المرسلين الاميركيين والمرجح ان المتحاربين يحترمون الراية الانكليزية مهما كانوا لان اعمال بحريتنا المجيدة في سورية ولا سيما في بيروت وعكاء لم تنسَ من تلك البلاد حتى الآن

ثم دارت المناقشة في مواضيع اخرى داخلية وخارجية

اما في فرنسا فلم تدخل المسأَلة مجلس النواب بل اكتفت الوزارة بالمداولة فيها وبيَّن ناظر الحربية ان الجنود مستعدة للسفر عند اول اشارة وان معارضات انكلترا على ما جاءهم في التقارير السرية لا يعبأُ بها لان انكلترا لا تستطيع ان ترسل جيشاً مثل جيش فرنسا ولا تستطيع ان تمنع ارسال الجيش من فرنسا بعد ان يتفاقم الخطب في سوريَّة ويتحفَّز نصارى كسروان للاخذ بثار اخوانهم

الفصل الثالث والعشرون

استفحال الفتنة

سُرَّ الدروز بالفوز المبين الذي فازوهُ في ساحل بيروت وودُّوا الاكتفاء بهِ حاسبين انهم قهروا الشهابيين وهم عمدة النصارى الآن والي بيروت لم يكن من رأيهم فجمع بعض امرائهم الى الحازمية خارج بيروت وقال لهم انكم لم تفعلوا شيئاً حتى الآن ولم يزل النصارى اقوى منكم كثيراً ولا بدَّ لهم ان يأخذوا بالثار ولا سبيل لاضعافهم حتى تامنوا شرهم الاَّ بتخريب مدنهم الكبيرة زحلة ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا فازحفوا عليها والفوز لكم

فدبَّت النخوة في رؤوس البعض منهم وقالوا لهُ سمعاً وطاعة وخاف البعض الآخر سوء العاقبة ولا سيما لانهم كانوا يعلمون ان دول اوربا لا يمكن ان تسكت عن ذلك فقالوا لهُ اننا في المتن والشوف والعرقوب ووادي التيم كثار ولا يعسر علينا التغلب عليهم ولكن لا يخفى على دولتكم ان نصارى كسروان اكثر منا كثيراً فاذا جاءُوا لنصرة اخوانهم فلا طاقة لنا بهم

فقال لهم اننا احتطنا لذلك ونصارى كسروان لا يحركون ساكناً ولو تظاهروا بمساعدة اخوانهم ألم تروا كيف انفضَّ جمعهم من بعبدا حالما امرناهم بذلك . ثم انصرفوا من لدنهُ واكثرهم واثق انهُ يفعل ما وعدهم بهِ

ووصل الي دمشق في تلك الاثناء رجل اسمهُ صادق افندي وجعل يجتمع بمشايخ الدروز من حوران وببعض مشايخ لبنان حتى اذا اتمَّ عملهُ الذي حضر لاجلهِ أُمر بالعودة الى الاستانة بعد ان اسرَّ الى الوالي بما جاء لاجلهِ . ويقول اهالي دمشق ان سلوك الوالي تغير معهم بعد سفر صادق افندي

ثم اجتمع الدروز وحاربوا اهالي جزين وبكاسين وحرقوهما وقتلوا كثيرين من سكانهما وزحفوا بعد ذلك على زحلة وكان كثيرون من نصارى العرقوب قد قاموا لمعاونة اهاليها فالتقوا بالدروز عند ظهر البيدر وكادت الدائرة تدور على الدروز وقتل هناك ابن عقيدهم علي ابن خطار العماد. وكان الشيخ اسمعيل الاطرش قد جمع دروز حوران وعربها عملاً بامر والي دمشق وقام بهم لنجدة دروز لبنان حتى اذا دخل وادي العجم وجد فيهِ بعض النصارى من اقليم البلان فقتلهم وهم ١٣٥ نفساً وسار برجالهِ الى ان وصل الى زحلة وفي اثناء ذلك وصلت اليها فرقة من الجنود العثمانية وعسكرت امامها وحينئذٍ هجم الدروز عليها من الجنوب والغرب فصد اهاليها هجماتهم وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية وظلت الحرب سجالاً الى ان قدم عليها

رجال من الدروز من الجهة الشمالية وكان الاهالي ينتظرون نجدة من يوسف بك كرم فظنوهم النجدة المنتظرة ولكنهم ما لبثوا ان وصلوا حتى اخذوا يطلقون النار على الحامية فانهزمت من امامهم ورأى اهالي زحلة ان الدروز دخلوا مدينتهم من ورائهم فارتدوا رويداً رويداً وظلوا يناوشون مَن امامهم الى ان خرج اكثر الذين في زحلة وساروا الى جهة بسكنتا . والظاهر ان الخوف من العرب وجنود الدولة كان مالئاً القلوب ولولا ذلك لتعذَّر اخذ تلك المدينة

وكان في زحلة رجل من اهالي دير القمر رأى ما جرى وتدبَّرهُ فعلم ان الحركة مدبَّرة وان لا بدَّ من الزحف على دير القمر فكتب الى ترجمان قنصل الانكليز في بيروت يخبرهُ بما جرى في زحلة وبما يوجس منهُ وتوسل اليهِ لكي يبذل كل ما في وسعهِ لحمل القناصل على الذهاب الى دير القمر بانفسهم لانهُ اذا احاط الدروز بها لم يبقَ لاهلها مهرب منهم

فسعى الترجمان مع غيرهِ من وجوهِ دير القمر المتوطنين بيروت لدى قناصل الدول فلبوا طلبهم واتفق قنصل انكلترا مع قنصل فرنسا على الذهاب الى دير القمر ولو ذهبا ماحدث شيءٌ مما حدث فيها ومما حدث في غيرها بعدها ولكن والي بيروت اقنع قنصل فرنسا بان لا داعي لذهابهِ وانهُ هواي الوالي يرسل قومندان مركز الولاية لوقايتها وقال مثل ذلك لقنصل الانكليز واقنعهُ بان لا داعي لذهابهِ. ثم ارسل القومندان فذهب واجتمع بمشايخ الدروز وحرضهم على الفتك بالنصارى . قيل ولما رأى سعيد بك جانبلاط منهُ ذلك بعث اثنين من خواصهِ الى اهالي دير القمر يطلب منهم ان ينزحوا اليهِ الى المختارة اذا فارقها القومندان فصدَّق بعضهم كلامهُ وساروا اليهِ فحماهم واما الباقون فجمع اميرالاي العساكر العثمانية سلاحهم بعد ان تهددهم بان لا امان لهم ان لم يعطوهُ السلاح وكانوا قد افنوا كل ما عندهم من البارود والرصاص فسلموهُ اسلحتهم فادخل الدروز الى مدينتهم فنهبوها ثم ذبحوا كل الذين التجأُوا من الاهالي الى سراي الحكومة . قيل وكان متسلم دير القمر مخالفاً للاميرالاي في هذا العمل الوحشي وحمى كل الذين التجأُوا الى دارهِ من الاهالي لكن الاميرالاي امر الجنود والدروز ان يدخلوا دار المتسلم عنوةً ويقتلوا كل من لجأ اليها ففعلوا ثم ان المتسلم نفسهُ جُرّع غصص المنون بعد ان عاد الى بيروت

هذا بالاختصار التام اما التفصيل فتقشعرُّ منهُ الابدان وتذوب لهُ النفوس اسىً فانهم كانوا يذبحون الولد على ركبة والدتهِ وينزعون الطفل من يد امهِ ويضربونهُ بالسيف فيشطرونهُ شطرين ويردونهُ اليها قائلين خذيهِ فقد اسكتناهُ لكِ ويقطعون اوصال الرجل

قبل ان يذبحوهُ ولم يبقوا على احد من الذكور وقد جنَّ بعض النساء ممَّا رأينَ من الفظائع . ما اشد توحُّش الانسان اذا اطلق العنان لشهوة الغضب وما اقبح التعصب الديني اذا حمل اصحابهُ على الانتقام من الذين يخالفونهم ديناً . واقبح من هذا وذاك تدبير المذابح وتنظيمها لغرض في النفوس كما فعل ذلك الوالي وزبانيتهُ وتلك الفئة الطاغية في الاستانة فانهُ كان يجب عليهم ان يعرفوا ما ستؤُول اليهِ الحال ولكنهم اغمضوا عيونهم لكي لا يروا وصموا آذانهم لكي لا يسمعوا

ووصل تفصيل هذه الحوادث الى الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال في بيروت ووصلهُ ايضاً تفصيل ما جرى في حاصبيا وراشيا وخلاصتهُ ان الامير سعد الدين كان في دمشق وقد استعفى من الولاية على بلاد حاصبيا فاعطيت لابنهِ الامير احمد وكان احمد باشا والي دمشق يتودَّد اليهِ فطلب منهُ ان يعود الى حاصبيا مع فرقة من الجنود العثمانية لتحصيل الاموال الاميريَّة من دروزها . واستشار الامير سعد الدين صديقاً لهُ من النصارى فاشار عليهِ ان لا يذهب لئلاَّ يغتاظ الدروز من مطالبتهم بالاموال في ذلك الوقت ويثوروا عليهِ فاستعفى من الذهاب لكن الوالي لم يعفهِ بل اضطرَّهُ اضطراراً وارسل معهُ فرقةً من الجند حتى اذا وصل الى حاصبيا وطالب الدروز بالاموال الاميرية ثاروا عليهِ واجتمعوا على حاصبيا من كل الجهات المجاورة لها . فخرج النصارى منها لمناوشتهم ثم تقهقروا وتحصنوا في السراي فهجم الدروز على بيوتهم وسلبوها ثم حرقوها وقال امير الاي العسكر للنصارى انهُ لا يستطيع ان يحميهم ما لم يسلموهُ اسلحتهم فسلموهُ اياها فبعث بها الى الدروز وسدَّ منافذ السراي ليمنعهم من الهرب منها . وبلغ القناصل في دمشق ما حدث فطلبوا من الوالي ان يرسل ضابطاً كردياً من دمشق ليأتي بنصارى حاصبيا اليها وقرَّ القرار على ارسال احمد بك اجليقين فطلب ان يؤْذن لهُ بضرب الدروز ان هم منعوهُ من جلب النصارى فلم يأْذن لهُ الوالي في ذلك فرفض الذهاب على هذه الصورة فاستدعى الوالي الشيخ كنج العماد وارسل معهُ ياوراً الى حاصبيا ومعهُ الاوامر اللازمة لامير الاي الجنود العثمانية التي هناك وبعد وصولهما بيوم واحد أُدخل الدروز الى السراي التي فيها النصارى فقتلوهم عن بكرة ابيهم ذبحوهم ذبح الغنم ومثلوا بهم تمثيلاً ثم صعدوا الى دار الامير سعد الدين في اعلى السراي فقتلوهُ وقتلوا صهرهُ الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء الشهابيين ظنًّا منهم انهم من النصارى . وهجم دروز حوران على راشيا فادخلهم الجنود الى سراي الحكومة وقتلوا كل من التجأ اليها من النصارى وبلغ قتلى حاصبيا نحو ٧٠٠ نفس

وقتلى راشيا ٥٠٠ وقتلى دير القمر وما جاورها نحو ١٥٠٠ نفس قُتلوا كلهم في الدم البارد بعد ان سلموا اسلحتهم لرجال حكومتهم

ولا تحسبنَّ الدروز كلهم اشتركوا في هذا العمل الفظيع خاصتهم وعامتهم . كلاًّ فان بعض العامَّة وكثيرين من الخاصَّة كانوا اشد الناس مودة للنصارى فدافعوا عنهم وحموهم في بيوتهم من كل اعتداء ولولاهم ما نجا احد

ولما اطَّلع السر هنري بدمونت على ما حلَّ بحاصبيا حيث كانت الاميرة سلمى ووالداها رجفت شفتاهُ واصطكَّت ركبتاهُ وكاد يغمى عليهِ ثم غلى الدم الاسكتسي في عروقهِ فاحمرَّت وجنتاهُ ونهض وجعل يمشي في غرفتهِ ذهابًا وايابًا بل يركض فيها ركضًا كمن يطاردهُ عدو ودخل الكولونل روز عليهِ وهو على تلك الحالة وكان قد قرع الباب مرارًا ولم يسمع مجيبًا ففتحهُ خائفًا ان يكون السر هنري مريضًا فلما وقعت عينهُ عليهِ قال لهُ السر هنري قرأت تواريخ البشر الحاضرين والغابرين فلم ارَ ولم اسمع ان دولةً تقتل رعاياها لغير اثم ولا حرج قضاءً لمآرب شخصية كيف صبرنا على هذا الجور وكيف نصبر عليهِ . اذا رأينا رجلاً يعذب نعجة او عصفورًا بغير سبب ألا نتعرض لهُ فهب ان هؤلاء المساكين نعاج او عصافير افلا تقضي الشفقة علينا ان نتعرض لمن يمسك الرجل منهم ويقطع اذنيهِ ويديهِ ثم يذبحهُ ذبحًا. ألا نتعرض لمن يلقي راس الولد على ركبة امهِ ويذبحهُ عليها ألا نتعرض لمن يأخذ الطفل الرضيع من يدي والدتهِ ويطعنهُ بخنجر ثم يردهُ اليها والدم يسيل من صدرهِ . ما هذا التوحش وما هذا الجمود الذي نحن فيهِ. اين الشهامة اين المروءة ثم ما حال اولئك الارامل الثاكلات النائحات النادبات وما حال بناتهنَّ اذا كنَّ قد تُركن لهنَّ واين مقرهنَّ الآن . وفي تلك اللحظة عينها خطرت ببالهِ صورة سلمى ممزقة الاذيال تجري بين الصخور والادغال ووراءها وغد يجدُّ في اثرها فجمد الدم في عروقهِ ثم انتفض كما انتفض العصفور بللهُ القطر وقال للكولونل روز ألا تظن انني استطيع ان اقوم ببعض ما يجب علينا اذا ذهبت الى صيداء واستصحبت قنصلنا او بعض القواسة ومضينا الى جهات حاصبيا ووادي التيم نفتش عن الذين سلموا من القتل والموت فنغيثهم ونأتي بهم الى بيروت

وقبل ان يجيبهُ الكولونل على ذلك شعر انهُ اخطأ في ما قال لان غرضهُ الاكبر من هذا الذهاب شخصي وقد عبَّر عنهُ على اسلوب يفهم منهُ انهُ مجرد عن كل غاية شخصية فلام نفسهُ على ما فرط منهُ واستدرك قائلاً ولي في ذلك مأرب شخصي لا اخفيهِ عن الكولونل . ثم قصَّ عليهِ قصتهُ مع الاميرة سلمى من اولها الى آخرها

وكان الكولونل يعرف الامير عباساً ويوده' لاخلاصهِ ويعلم انهُ على خلاف مع الوالي وانهُ غير راضٍ بما حدث من الفتن ولكنهُ لم يكن يعرف شيئاً عن ابنتهِ ولا عن علاقة السر هنري بها فتحركت في نفسهِ عوامل الشهامة وشعر بسلطة الحب شعور من نسي صديقاً عزيزاً ثم التقى بهِ فرثى لحال السر هنري وقال لهُ قم ولا تتأخر ساعةً واني لاستغرب سكوتك عن ذلك الى الآن نعم انك غير واثق بحب هذهِ الاميرة لك ولكن مهما كان شأنها فليس من الشهامة وعزَّة النفس ان تتركها في هذا الوقت وانت قادر على مساعدتها . لو كنت مكانك لذهبت الآن ولم اتاخر ساعةً

فشكره' السر هنري على ذلك وقال لهُ يشقُّ عليَّ جدًّا ان اتركك في هذا الوقت مع تراكم الاشغال عليك واشتداد هذا الحر الذي يكاد يزهق النفوس ولكن ما دام الذهاب فرضاً عليَّ فانا ذاهب

وقام من ساعتهِ وامر احد القواسة ان يعد ما يلزم لذهابهم الى صيداء وجهات مرجعيون وغيابهم شهراً من الزمان وكتب الى امهِ بخلاصة ما بلغهم من اخبار المذابح وطلب منها ان تبذل كل ما في وسعها لجمع الصدقات من اهل البر والاحسان وقال لها ان ما ترسلونهُ من نقود واحرمة واقمشة تشكرون عليهِ اعظم شكر لان علينا ان نطعم الوفا من النساء والاطفال ونكسوهم . وختم الكتاب بالسلام لاقلين وبالالتجاء الى كرمها وحنانها

الفصل الرابع والعشرون

حادثة دمشق

لا اعدى من الحمس الديني ولا اشدَّ منهُ خطراً على البلاد لاسيما وانهُ سلاح الرعاع الذين اذا ثار ثائرهم امسوا وحوشاً ضارية لا تأخذهم شفقة ولا رحمة . ويا ويح بلاد يطلق العنان لرعاعها ويُحرّضون على الانتقام من مخالفيهم مذهباً فان التاريخ يشهد انهم كانوا يفتكون بالالوف ولا يملون ويرتكبون اقبح الموبقات مع اسيادهم الذين هم غرس نعمتهم. واي عمل اقبح من ان تربي ولداً مسكيناً في بيتك وتأتمنهُ على اولادك واموالك ثم تراه' وقت الشدَّة مقبلاً اليك كالوحش الضاري والخنجر في يدهِ يغمده' في صدرك وصدور اولادك لكي يغتنم اموالك . الوحوش الضارية لا تصل الى هذه الشراسة ولكن ابن آدم يقدم عليها عفواً اذا ثار في صدرهِ ثائر الحمس الديني . كذا فعل اليهود بالنصارى والنصارى باليهود واهل الشيعة باهل السنة واهل السنة باهل الشيعة ولا تزال امثال هذه الفظائع تجري في بلدان

المشرق وان زالت الآن من بلدان المغرب حتى لقد يقف المرء حائرًا بين فوائد الاديان ومضارها وايها اكثر لنوع الانسان وان شئت فقل المتنطعين في الاديان لان الدين بريء مما يفعله المتنطعون فيهِ باسمهِ

اهالي دمشق من مسلمين ونصارى من الين الناس عريكة واكثرهم وداعةً وقد عاشوا السنين الطوال متآلفين متحابين والنصارى قلال العدد جدًّا وكأنهم عائشون في حمى المسلمين وهؤلاء اهل تقًى ومسالمة ولا سيما الكبراء منهم ولكن لما اراد ذوو الشأن ان يوقعوا الجفاء بينهم وبين المسيحيين لاغراضهم لم يتعذَّر عليهم ان يجدوا من يجيب نداءهم من العامَّة فحرَّضوهم واطلقوهم فانطلقوا كالنار في الهشيم يذبحون ويفتكون الى ان جرت الدماء انهارًا وحلَّ بالمسيحيين هناك ما لم يحلَّ بهم مثلهُ من زمن الفتح الى الآن . ولولا بعض الصلاَّح ذوي الشهامة والنجدة لما ابقى الاشرار على احد. كلُّ ذلك والوالي متسلح بالاوامر السرية التي في يدهِ وغير خائف ان يطالَب بشيء مما فعل

ووصلت اخبار هذهِ المذابح الى بيروت وهاجر اليها من بقي حيًّا من نصارى دمشق وسائر مدن الشام التي اصابها ما اصاب دمشق فازدحمت بهم منازلها وشوارعها وبساتينها حتى كنت ترى عائلتين او ثلاثًا في غرفة واحدة بل اخرجوا الدواب من مزاربها وسكنوها. والاولاد المعتادون رفاهة العيش كانوا يفتشون عن اوكار النمل ليأكلوا ما فيها من الحبوب واذا اصاب احدهم رغيفًا اجتمع حولهُ عشرون من امثالهِ يقاسمونهُ اياهُ

وبادر اهل البر والاحسان في اوربا الى معونة اولئك المنكوبين بسخاء حاتمي فارسلوا اليهم اكياس الدقيق واثواب القطن والصوف وكثيرًا من النقود واقيمت اللجان في بيروت لتوزيع الاحسان ولولا ذلك لمات كثيرون جوعًا

وظلَّ المنكوبون في بيروت يتقلَّبون على مثل جمر الغضا ويبحث بعض النساء عن ازواجهنَّ واولادهنَّ وهنَّ لا يعلمن أفي عداد من قُتل هم او لم يزالوا في قيد الحياة وكل يوم يصل جريح لم يجهز الاعداء عليهِ فبقي مغطًّى بالقتلى مغمًى عليهِ من كثرة ما نزف من دمهِ الى ان افاق ودفعتهُ بقية الحياة الكامنة فيهِ الى الهرب فجعل يسري ليلاً ويختبئ نهارًا وهو يسدُّ رمقهُ باعشاب الارض الى ان بعُد عن مواقع الخطر. والاطفال الذين ارضعتهم امهاتهم لبن الحزن يموت الواحد منهم بعد الآخر. وقناصل الدول يكتبون الى دولهم يشرحون لها وقائع الحال وهم مجمعون على استقباح ما جرى واستفظاعهِ . ورجال الدولة متربصون ليروا ماذا تكون العاقبة وهم يكذِّبون تارة ويشمخون اخرى قائلين ان لا شأن للدول الاجنبية حتى

تطالبهم بما يجري بينهم وبين رعاياهم · ووحوش البر وطيور السماء قزت نفوسها من اكل لحوم القتلى فجلست امامها يدفعها الطبع اليها ويبعدها الشبع عنها وهو شعور جديد لم تعرفهُ من قبل · والشمس تشرق على منازل اكلتها النار والنجوم تتطلّع عليها فلا ترى فيها غير الضباع وبنات اوى· وقد ندم الله على خلق الانسان كما ندم في عهد نوح وودَّ ملائكتهُ ان تصاب الارض بطوفان آخر يطهرها من الاشرار

ايعجب احد بعد هذا ان كانت ارض الموعد جنة الله في خلقهِ الارض التي كانت تفيض لبناً وعسلاً الارض التي نشأت فيها دمشق وصور وصيداء واورشليم وبيروت وعكاء وعسقلان ارض حكمة اليهود وصناعة الفينيقيين التي طمع فيها الفاتحون من كل الاقطار لكثرة خيراتها وتوسط موقعها . بلاد الضيافة والشهامة وعزة النفس· هذه البلاد اوصلها سوء السياسة الى ان صار ابناؤُها يحرّش بينهم ليفترس بعضهم بعضاً

قدُّورا — من اين يا ابا نخر والى اين

ابو نخر — صليت الجمعة وانا راجع الى البيت والله ما عاد لي نفس اجلس في القهوة

قدُّورا — ولماذا . ماذا جرى

ابو نخر — اماسمعت ؟ قال ان السفرا والقناصل طلبوا مسك كل مشايخ الدروز وشنقهم · الصبح كنت عند الوالي لا تقل هو خبرني انا القطها طائره من هنا كلمة ومن هنا كلمة . والله العظيم لو سلَّح رجال الباشوره لطلعوا مقابل كل الافرنج

قدُّورا — ولكن انا سمعت ان فرنسا عازمة ان ترسل عسكراً كبيراً الي هنا

ابو نخر — هل هذا صحيح من قال لك ذلك· فرنسا كانت مع مولانا السلطان وقت حرب المسكوب هي والانكليز ولكن الكلام بسرك زادوها قال قتلوا كل النصارى في الشام . هذا حرام · الله وصّانا بالذمي وبالجار. الله يساعدنا قل آخر زمان قرب وقت المهدي . ما سمعت ولا كلمة عن بيت رسلان · الامير احمد انا ربيتهُ وبالي مشغول عليهِ سألت الوالي عنهُ قال سمع انهُ ترك البلاد وقصد حوران . الله يهونها آخر زمان آخر زمان

وبينما كان ابو نخر يتذاكر مع قدُّورا افندي على ما تقدَّم كان الخواجه بخور والخواجه شمعون يتذاكران في الاخبار التي بلغتهما من دمشق وفي ما يخشى منهُ على بيروت

فقال بخور كانت المذبحة هائلة وقد انتقمنا منهم على ما جرى لنا في مسألة البادري توما واشترى يوسف كل الصيني الذي كان في بيت الخوري وكل شيلان الكشمير

فقال شمعون وما ادرانا انهم لا يرتدون الينا بعد ما يخلصون منهم

بخور — كان بالي مشغولاً من هذا القبيل في اول الامر اما الآن فقد اطمأن فان اصحابنا دبروها في اسطانبول واتت مكاتيب توصية للوالي بنا في الشام وفي بيروت حتى اخواننا الذين في دير القمر ما اصابهم شيء الله يهونها على البرطيل فهو يحل شاشة القاضي

شمعون — والصيني الذي اشتروهُ هل هو شيء يحرز

بخور — شيء لا مثيل لهُ في قصور الملوك فانهم كانوا يتوارثونهُ ابًا عن جد صحون وزبادي وقوارير كبيرة وصغيرة من كل الاشكال وبعضهُ قديم جدًا عمرهُ اكثر من الف سنة وكان الناهبون عازمين على تكسيرهِ ولكن ربك الحميد وصل يوسف اليهم قبلما كسروا شيئًا منهُ واشتراهُ كلهُ بليرتين واذا كان هو كل الصيني الذي اعرفهُ فيساوي خمسة آلاف ليرة واشترى ايضًا من شيلان الكشمير ما يساوي الفي ليرة على قولهِ ولم يدفع ثمنهُ الاَّ نحو عشرين ليره . اما الفضيات والنحاس فلا تسأل عنها لانها كثيرة جدًا وتسابق الناس الى مشتراها

شمعون — اذًا سنة مباركة وهل تظن انهُ يحدث شيء هنا

بخور — لا يبعد فاني كنت عند الوالي امس فكلمني بالتلميح ولم يصرح اما انا فاخاف من المراكب الحربية لانهُ اذا جاء مركب واحد حربي لا يعود احد يجسر على شيء

شمعون — والاخبار من لندرا

بخور — الدنيا قائمة قاعدة هناك الاعضاء في مجلس النواب يسأَلون الوزارة مئة سؤال كل يوم . والقسوس يعظون في الكنائس ويحرضون الناس على الدولة . والنتيجة طيبة على كل حال لانهم يجمعون الاموال ويرسلونها الى هنا .هذه خلاصة آخر مكتوب وصلني اليوم

يوسف — الله يصرفها على سلامة اقول لك مال الدنيا يبقى في الدنيا وانا قلبي رفيق فاني حينما ارى هؤُلاء الارامل والاطفال يتفتت قلبي واتذكَّر الايام التي كان يصير فيها بنا مثل ذلك واخاف ان ينقلب الدهر والدهر دولاب فيصيبنا كما اصابهم . اله اسرائيل حي لا يموت الله ينجينا من اولاد الحرام

بخور — الحق معك مال الدنيا يبقى في الدنيا هذا سلمون مات وماذا أَخذ معهُ ولكن الله أُوصانا ان نجمع مال الامم . أَلا تتذكر ماذا قال لنا لما أُمرنا بالخروج من مصر . والمال قوة كما يقول الانكليز

ودخل ثالث فانقطع الكلام في هذا الموضوع

الفصل الخامس والعشرون

توقُّع القضاء

كانت البيوت في حي مارمتر احد احياء بيروت قليلة صغيرة متفرقة بين بساتين التوت وقد لجأ اليها كثيرون من النصارى الذين سلموا من المذابح فكنت ترى البيت الذي فيهِ اربع غرف تسكنهُ اربع عيال . ولم يكد يستقرُّ بهم المقام حتى اخذ الرجال منهم يفتشون عن اعمال يعملونها وشارك النساءَ نساءُ الحي في تسليك الحرير وكبّهِ فاكتسبن ما ساعدن بهِ رجالهنَّ على نفقات بيوتهم . ولم يترك الاولاد يلعبون في الشوارع بل أُرسلوا الى المدارس لان اهالي سورية يحسبون تعليم اولادهم من الضروريات التي لا بدَّ منها فترى الرجل يقتصد في نفقاتهِ لاجل تعليم اولادهِ والمرأة تبيع حلاها وتعلم اولادها ولا يكتفون بتعليم الصبيان بل يعلمون البنات ايضاً

في مدرسة من هذه المدارس وهي غرفة واحدة على دائرها مقاعد من الخشب والاولاد جلوس عليها مرصوصين رصاً والمعلم جالس على كرسي الى جانب الباب وامامهُ مائدة صغيرة عليها جرس ودواة وفي يدهِ قضيب من الرمان — وقف ثلاثة اولاد امام المعلم وجعلوا يقرأُون في كتاب طُبع حديثاً في المطبعة الاميركية وبينما هم يقرأُون والمعلم يصلح اغلاطهم ويأمر المجتهد بشد اذن الكسلان دخل رجل طويل القامة اسمر اللون عابس الجبين لابس دامراً مرخي الاكمام . دخل يتهادى في مشيهِ لطول قامتهِ فنهض المعلم واقفاً اكراماً لهُ ووقف التلامذة كلهم لوقوفهِ . فامسك بيد المعلم واسرَّ في اذنهِ كلمتين ثم خرجا من المدرسة ووقفا امام الباب يتحادثان وبعد هنيهة عاد الرجل من حيث اتى ودخل المعلم وقرع الجرس وقال للتلامذة اذهبوا كل واحد الى بيتهِ لا تحيدوا يمنة ولا يسرة ولا تتأخروا في الطريق وقولوا لاهاليكم ان المعلم صرفنا وستقفل المدرسة بضعة ايام وخذوا كتبكم معكم

فقام التلامذة وتأبط كلٌّ كتابهُ او كراستهُ وتكتفوا وخرجوا في صف واحد ثم تفرقوا وسار كلٌّ منهم في طريقهِ ولم يكادوا يصلون الى بيوتهم حتى وجدوا فيها حركة غير عادية وبعضهم التقوا بآبائهم ذاهبين للمجيء بهم وقابلهم امهاتهم بلهفة وادخلنهم حالاً الى داخل البيوت وكنَّ قد اخذن يجمعن القليل من ثيابهم ويرزمنها

فدُهش الاولاد من ذلك وسأل الكبار منهم اباءهم وامهاتهم عن سبب هذا الاضطراب واقبلت حنَّة واصبعها على فمها وهي تقول لاخيها "هس قتِل مسلم وبدهم يقتلونا كلنا"

فامسكت امها بكتفها وهزَّتها وقالت لها اسكتي يا مضروبة

ما ارهب تلك الساعة وما اثقلها على النفوس . الوف مؤلفة من الارامل والايتام الذين نجوا من المذابح وقصدوا بيروت للاحتماء بها . الوف من النساء اللواتي ذُبح رجالهنَّ واولادهنَّ امام عيونهنَّ . الوف من الصبيان والبنات الذين نجوا مع امهاتهم وساروا يوماً بعد يوم مشياً على اقدامهم الى ان بلغوا بلاد الامان . مئات من الرجال الذين ساعدتهم التقادير على النجاة وعلى كلٍّ منهم ان يعول عائلتين او ثلاثاً من عيال اخوتهِ الذين ذهبوا شهداء السياسة والطمع — كل هؤلاء التجأوا الى مدينة بيروت وهم يحسبون انهم نجوا من كل خطر وفي ساعة واحدة رأوا سيف النقمة مسولاً فوق رؤوسهم فتصوروا المشاهد الفظيعة التي مرَّت بهم منذ شهر او شهرين ورأوا فيها اشلاء القتلى لم تزل تتحرك والدم يفور من جراحها وايقنوا ان نجاتهم كانت حلماً مرَّ وانقضى وان السيف تابعهم لا محالة ولم يبقَ لهم مهرب ولا نصير . الجبل وراءهم محروق القرى والبحر امامهم يرغي و يزبد

مضى العصر ومالت الشمس الى المغيب وطالت ظلال البيوت والاشجار واكدَرَّ ماء البحر بعد صفائهِ وبدت تباشير الشفق فوق جبال لبنان وامتدَّت اصابعهُ من الشرق الى الغرب . الطبيعة ساكنة جامدة ولكن النفوس جائشة مضطربة

ماذا نعمل يارجل والى اين نذهب بهولاء الاولاد اولادنا واولاد اخيك واولاد صهرك

ليس لنا مهرب الآَ الى بيت ابرهيم فانهُ واسع ولهُ بوابة كبيرة متينة ولا بدَّ ما يجتمع فيهِ كثيرون من اهالينا واقاربنا فندافع عن انفسنا الى ان يفرجها ربنا

وبعد قليل جمعوا ثيابهم وساروا هي وزوجها وسلفتها وابنة حميها واولادهم الى ان وصلوا الى بيت الخواجه ابرهيم وهو من وجوه بلدهم وكان قد نجا مع الذين نجوا احتمى ببيت الست نائفة ثم هرب بعد المذبحة ورحل الى بيروت واستأجر بيتاً كبيرًا فيها لانهُ كان على شيءٍ من الثروة . ولما اتت اموال الاحسان جُعل وكيلاً على توزيعها نخصَّ نفسهُ بجانب كبير منها . اما الآن فهرب من بيتهِ الى بيت رجل من وجهاء بيروت لهُ بوابتان الواحدة داخل الاخرى وهو احصن من بيتهِ وكان صاحبهُ مشهورًا بشجاعتهِ وبانهُ من امهر الرجال بلعب السيف ولكنهُ كان قد هرب من بيتهِ والتجأ الى دار وجيه كبير من اكبر اغنياء بيروت فلما وصلها وجدها مملوءَة بالناس الذين التجأوا اليها من النازحين ومن اهالي بيروت انفسهم والدار كبيرة ساحتها مرصوفة بالحصى الملونة ولها سور عالٍ على دائرها وفي وسطها حديقة غناء فيها من انواع الازهار والرياحين وفسقية كبيرة يتدفَّق الماء منها وعلى جانبي الحديقة بناءان فخيمان

كلٌّ منهما طبقتان فيهما الغرف الكبيرة الدالة على غنًى وافر ولا عجب فان صاحبها جمع ثروة طائلة من مصر وبر الاناطول من التجارة والمرابحة لكنهُ شعر الآن بالخطر كما شعر غيرهُ فاخذ زوجتهُ واولادهُ وامواله ونزل الى سفينة بخارية كانت راسية في المرفإ ووافاهُ اليها اولاد عمهِ وكثيرون من اغنى اغنياء المدينة وعزموا على السفر تلك الليلة تاركين الدار تنعى من بناها

وغابت الشمس وخيَّم الليل والرجال يعدون ما وجدوهُ من الاسلحة ليدافعوا بها الدفاع الاخير والنساء يضرعن الى الله والى السيدة والاولاد سهروا مع والديهم الى ان غلبهم سلطان الكرى فانطرحوا في اماكنهم وجالت نفوسهم في فردوس الاحلام يحلمون بالعابهم تارة وبدروسهم اخرى ولم تغمض في تلك الليلة الاَّ عيونهم

وجلس اثنان من الشيوخ يحدث احدهما الآخر عن حركة الامير بشير الاولى والثانية وعن خروج ابرهيم باشا ويقول مرَّت بنا التباريج ولكن لم يحلَّ بنا مثل هذا الضيق ايذبحوننا ذبح الغنم برجل واحد ولا احد يشفع ولا احد يدفع وقد تخلَّى الله عن شعبهِ واسلمنا الى يد الاعداء

فقال الآخر هذه آخر الايام كما انبأنا الجفر ولكن لا بد ما يأتي المسكوب من اقصى الشمال كما قال النبي دانيال

فقال الاول يأتي ولكن بعد خراب البصرة وما نفعُ مجيئهِ الآن وقد اجتمعت طوائف الدروز وقبائل العرب في حرش بيروت

فاجابهُ الثاني ولكن لماذا لا ينزل رجال كسروان لخلاصنا اين يوسف كرم واين البطرك لم نرَ منهما الاَّ المواعيد

فقال الاول — سمعت ان يوسف كرم مخاوذ معهم ولكنني لا احط بذمتي وعلى كل حال آخر زمان يا ابا نهرا

الثاني آه على ايام الصبا رزق الله على تلك الايام ولكن ما العمل والسن لهُ حق انظر كيف ترتجف يدي فلا استطيع رفع البندقية ولا يزال الرصاص في فخذي من ايام ابرهيم باشا . هذا الذي كتبهُ الله علينا ولكن لا بد ما يجيء المسكوب قلبي يقول لي ان مراكبهُ الآن في البحر ولا بد ما نراها غداً

والتقى نقولا بمارون هناك وقال لهُ اين عساكر فرنسا التي وعدتنا بمجيئها فاننا لم نسمع عنها كلمة والامر كما ترى وكنت عازماً على النزول في البحر مع الذين نزلوا ولكننا لم نكتب حتى الآن حجج الاملاك التي اشتريناها اخيرًا من الشهابيين واخاف ان يصيبهم شيء وينكر اولادهم المشترى

مارون — الحق بيدك ولكن اذا اصابهم شيء وكنا باقين معهم اصابنا كما يصيبهم فماذا تنفع الحجج

نقولا — صحيح ولكن المال اعز من الروح وانا تأخرت في المخزن حتى صفيت اشغالي وما وصلت الى البيت الأ منذ ساعة ولولا ذلك لالزمتني ام متري ان تنزل الى البحر مع الذين نزلوا

مارون — هل تظن ان فرنسا عدلت عن ارسال عساكرها

نقولا — كلاً ما عدلت ولكن الانكليز وضعوا لها الف عرقولة لانهم لا يريدون ان تأتي وتأخذ البلاد وحدها

مارون — الله ينجينا من مناظراتهم و يصرفها على سلام

نقولا — اظن انها تنصرف فان القناصل اجتمعوا كلهم وذهبوا الى الوالي ودرَّكوهُ بالمسؤولية واجتمع عقلاء المسلمين ونبهوا علي الجهلاء في الجوامع ان لا يفعلوا شيئاً وقد سمعت الآن وانا داخل انهم قبضوا على القاتل وقتلوهُ ولكن الاشرار كثار ويقال ان العسكر معهم وهذا الذي يخوفنا . وارسل القناصل يطلبون مراكب حربيَّة فاذا وصل ولو مركب واحد لزم الاشرار حدهم

مارون — الله كريم وكيف حال بخور وشمعون واخوانهم

نقولا — ما على قلبهم فان الوالي طمنهم بنفسهِ

مضى الليل بتباريحهِ واشرقت الغزالة وانعكست اشعتها عن وجوه صفراء لم تغمض لها عين وعيون غائرة لم يغمض لها جفن واطفال يبكون وينتحبون طالبين كسرة خبز او شربة ماء ولم يكن الأ القليل حتى اهتزت تلك النفوس طرباً كأنهُ بسلك كهربائي وجعل الالوف يستشرفون البحر او يصعدون على السطوح ليتمكنوا من رؤيتهِ وهم يقولون اتى الله ينصرهُ الله ينصرهُ

في اقصى الشمال بارجة تشق سطح الماء وقد رفعت شراعها للنسيم واستعانت بما فيها من البخار يقودها الامل ويسوقها الواجب وكأن اله السلام اوحى الى ربانها ان قمْ على عجل واقصد مدينة بيروت فهناك مئة الف نسمة حياتهم معلقة بخيط من العنكبوت . فقام لا يلوي على احد واستعان بالرياح والبخار حتى اذا اشرف على المدينة جعل يطلق اكبر ما عندهُ من المدافع فاهتزت المنازل وتكسَّر زجاج الشبابيك واخذت الدهشة قوماً والفرح آخرين . اخذت الدهشة رعاع القوم الذين يتوقعون الفتن والثورات لكي يطلقوا لنفوسهم المنحطَّة عنانها

ويأتوا من الشر ما فطروا عليهِ واخذ الفرح العقلاء والفضلاء الذين يعلمون ان الفتن تفضي الى خراب البلاد وتضييع مصالحها

والتقى احمد بمصطفى بعد ساعة من الزمان وقال لهُ الحمد لله على انفراج الازمة. فقال مصطفى الحمد لله على كل حال فقد اويت في بيتي ثلاثين عائلة من هؤلاء المساكين وكنت حائرًا كيف ادافع عنهم وادفع عنهم الاشرار . انا لا افهم هذه السياسة سياسة والينا وستأتي كلها على رأسهِ . باي شرع وفي اي سنة تحرّض الرعية بعضها على بعض — الله ينجينا من القوم الظالمين · ليأخذوا الآن على ايديهم فقد جاء المسكوب وسبع دول ما وقفت في وجههِ اسمعتَ صوت مدافعهِ كسَّر نصف الزجاج في شبابيك بيتي

فقال احمد نعم قبق كبير لم ارَ مثلهُ في حياتي مع اني سافرت الى قبرص والى الاسكندرية . ولكن ماذا فعلوا بالقاتل

مصطفى — مسكوا واحدًا وقتلوهُ

احمد — هل هو القاتل

مصطفى — لا اظن ولكنهُ لم ينكر انهُ هو القاتل — على كل حال انقضى الاشكال ولما كنا في المجلس عند الوالي سفَّهت رأيهُ ووافقني اكثر اخواننا ولكن هذا الثرثارة ابا نخر كان حاضرًا ولا اعلم باي صفة يحضرهُ الوالي في مجلسهِ وقال ان عندهُ كتابات من كل مشايخ الدروز وانهم كلهم مستعدون لاول اشارة حتى ينزلوا على بيروت فقلت للوالي سلمنا انهم نزلوا وانهُ تمَّ كل شيء على حسب رغبتك فمن ينجينا بعد ذلك من الفرنسوي والانكليز والمسكوب والله نحن غير قادرين على الاروام · فقال لي حملك يا حاج مصطفى حملك اما دوَل اوربا فانا عالم انها لا تحرك ساكنًا نعم ان اهاليها ترسل الصدقات ولكن رجال الحكومة لا يفعلون شيئًا ومهما جرى فالحالة الحاضرة لا بدَّ من تغييرها · وقد انصرفنا من عندهِ واكثرنا غير موافق لهُ على رأيهِ ونبهنا في الجوامع حتى لا يصير شيء وقد أتت هذه الفرقاطة نحلت عزائمهُ وستراهُ الآن يحاسن ويجامل ويقول انهُ كان باذلاً غاية جهدهِ في حفظ الامن وسينزل الآن للتسليم على الاميرال

احمد — هل ردت القشلة السلام للفرقاطة

مصطفى — نعم ردّت ولكن كان صوت مدافعنا مثل صوت الفقاعة

احمد — اتظن اذًا انهُ انقضي الاشكال

مصطفى — انقضى وقتيًا ولكن الله يسترنا من عواقبها

وانفرجت قلوب الالوف من سكان بيروت واللاجئين اليها على اثر مجيء البارجة الروسية وجعلوا يعانق بعضهم بعضاً ويهنئ بعضهم بعضاً بالسلامة وعاد كلٌّ الى منزلهِ

الفصل السادس والعشرون

الذهاب الى العرب

وصل الامير عبَّاس وزوجتهُ واولادهُ الى حاصبيا كما تقدم وخرج الامراء الشهابيون ورجالهم للقائهم الى سوق الخان ولم يقابلوهم باطلاق البنادق على جاري العادة لان الامير عبَّاساً ارسل ينهاهم عن ذلك وامراء حاصبيا انفسهم كانوا يخافون ايقاظ الفتنة باية وسيلة كانت لكن حذرهم لم يجدهم نفعاً · ولما وصل الامير سعد الدين الى حاصبيا مرسلاً من قبَل والي دمشق ليجمع الاموال الاميرية من الدروز قصَّ على الامير عبَّاس ما اشار عليهِ بهِ احد اصدقائهِ في دمشق وكان الامير عبَّاس يعرف هذا الرجل ويعرف انهُ واسع الخبرة شديد الفراسة فقال للامير سعد الدين لا رأي لي بالاقامة بينكم بعد الآن ولا اظن انهم يضمرون لكم الَّا الشر. وقد دعاني الامير عمر الفاعور امير عرب الفضل اليهِ فاری في تلبية دعوتهِ السلامة · ثم اخبر زوجتهُ واولادهُ بما عزم عليهِ فوقع الخبر على زوجتهِ وقع الصاعقة لانها كانت ترى البدو الذين يشتون في ساحل بيروت وهم في حالة من القذر تشمئز منها النفوس فظنت ان كل البدو مثلهم اما الاميرة سلمى فطربت اولاً لهذا الخبر لانها كانت تودُّ ان تقف على حال البدو في قفارهم وترى معيشة نسائهم وبناتهم وتحقق بالخُبْر ما قرأتهُ عنهم بالخَبَر . وكانت تحب ركوب الخيل فتصورت نفسها راكبة مع اميرات العرب يجبن القفار وينشدن الاشعار فطربت نفسها لذلك ثم تذكرت انها تبعد عن السرهنري وقد لا تعود تراهُ نخفق فؤادها وصعد الدم الى وجهها ثم تقلَّص عنهُ فاصفرَّت وجنتاها وارتجفت شفتاها وجالت الدموع في عينيها فالقت جبينها على يدها وحاولت ان تنسى كل شيء حتى وجودها

وسرَّ اخواها بهذا السفر لانهما كانا يحبان ركوب الخيل ايضاً ولم يغتظ منهُ الَّا امها وام يوسف وكادت ام يوسف تعدل عن الذهاب معهم وودت ان ترجع الى كفرشيما او بيروت ولكنها لم تجد من يوصلها اليهما فعادت تندب زوجها واولادها وسلمت بالذهاب مع الاميرة هند مكرهة وهي لا تنشف لها دمعة

وكان الامير عبَّاس على وفاق مع الست نائفة اخت سعيد بك جنبلاط فارسلت معهُ اثنين من رجالها ليوصلاهُ الى عرب الفضل ويخبرا الدروز الذين يلتقي بهم في الطريق انهُ

من اصدقائهم . ولم يكن السير شاقاً كما ظنت الاميرة هند ونزلوا في الطريق على مشايخ الدروز والعرب الى ان وصلوا المزار في جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر بخمس مئة فارس رامح على بعد ساعتين من مضاربهِ وكانت عيونهُ مبثوثة في البلاد فاوصلت اليهِ اخبارهم قبل وصولهم بيومين . ولما دنا من الامير عباس ترجل الاميران وتصافحا فترجل الفرسان كلهم في اقل من طرفة عين وعلا صهيل الجياد . ثم دنا الامير عمر من الاميرة هند وقبل يدها وعاد الى الاميرة سلمى فطارحها السلام مصافحة وقبَّل يدهُ بعد ان صافح بها يدها وكانت مسفرة عن وجه يخجل البدر فوقهُ عينان تفتنان الظبي وقد تورَّدت وجنتاها من هواء الصحراء ومما جاش في صدرها من الفخار لما رأت الجياد تتدفق كالسيل المنهمر كأن الاخلاق التي غُرست في نفوس اسلافها وهم في بطحاء مكة وجبل كامل لم تزل من خلفائهم بل بقيت آثارها فيهم تظهر كلما حانت لها الفرص ونبهتها العوامل

وكان الامير عمر شاباً في نحو الخامسة والعشرين طويل القامة ابيض الوجه اسود العينين ولم يطلق العنان لعارضيهِ على جاري عادة العرب ولا جدل شعر رأسهِ كما يفعلون لان اباهُ احضر لهُ معلمين من دمشق فعلموهُ مبادىء العلوم وزار دمشق غير مرة وتزيا بزي اهلها وكان لابساً قفطاناً من الاطلس الاحمر فوقهُ رداءٌ من الجوخ الرصاصي وعلى رأسهِ كوفية وعقال من الحرير والقصب وتدلُّ ثيابهُ ورائحتهُ على انهُ عائش في نعمة ونعيم فسرَّت الاميرة سلمى بمنظرهِ وطلاقة وجههِ

ثم ركب الاميران وركب الفرسان لركوبهما وانشقوا شطرين فسار الامير عباس والاميرة هند في المقدمة والامير عمر والاميرة سلمى وراءهما واخواها وراءها ثم سائر الخدم والحشم الى ان بلغوا مقدمة الفرسان وكان السهل قد لثم الجبل فصعدوا فيهِ بين المناهل والغدران وواصلوا السير على هذا النمط الى ان وصلوا الى مضارب الامير عمر فلقوا مئات من النساء بالمزاهر والدفوف قد خرجنَ للقائهم وهنَّ ينشدن نشيد الترحيب ويقلن

هَلاَ بالضيف هلا بالضيف امير شهاب عزيز ومهابْ
وآل الفضل ضيوف الفضلْ وكل الفضل لآل شهابْ

وكانت واحدة منهنَّ تقول الدور والباقيات يرددن عليها على نقر الدفوف والمزاهر فطربت الاميرة هند والاميرة سلمى ووقفتا هنيهة تسلمان عليهنَّ وتقولان مرحباً بالزَّينات مرحباً بزينات الدار ربات الفخار حتى اذا دخلتا الحلَّة وجدتا الاميرة عاتكة ام الامير عمر واقفة في باب خدرها فسلمت على الاميرة هند مصافحةً واعتنقت الاميرة سلمى وقبلتها في

وجنتيها. وجلس الامراء وحدهم في مضرب كبير والاميرات وحدهنَّ وقدّمت لهم كلهم القهوة الجديدة وكؤوس الشراب ثم مدَّت اسمطة الطعام وعليها الخرفان المحمَّرة وكان عند الاميرة عاتكة جارية تحسن الطبخ التركي فطبخت للاميرات الواناً من الطعام والحلوى لم يأكلنَ اطيب منها

ولم يكن الامير عباس ضعيف البنية ولكن الترفُّه الكثير والانقطاع للمطالعة اضعفا جسمهُ فصار لا يقوى على عوادي الادواء وكأَنهُ اكل طعاماً غير صالح او شرب ماء تطرَّق اليهِ الفساد وهو آتٍ في الطريق او اثرت فيهِ حرارة الشمس او اصابهُ امرٌ آخر فلم يكد يتمُّ عشاءهُ حتى اصابهُ صداع شديد وكانوا قد اعدُّوا لهُ مضرباً خاصاً فقام اليهِ وجاشت نفسهُ فتقيأَ ما اكلهُ وحُمَّ واصابهُ شيءٌ من الهذيان . وأُخبرت زوجتهُ واولادهُ فاتوا مضربهُ وقد تولاَّهم القلق ولما رأَت ام يوسف التيءَ قالت ان سيدي مسموم قالت ذلك همساً في اذني الاميرة هند وخرجت تدعو الخدم ليأْتوها بكثير من اللبن حتى تسقيهُ وفهم الامير عُمر مرادها فاسودَّت الدنيا في عينيهِ وقال لها اننا اكلنا معاً من خروف واحد وعن سماط واحد وشربنا القهوة من غلاية واحدة وانا شربت قبلهُ . فاخذت تعتذر عن نفسها وقالت ربما يكون سيدي قد شرب شيئاً او اكل شيئاً في الطريق واتوها بكثير من اللبن لكن الامير ابى ان يشربهُ

وأرسل الامير عمر اربعة فرسان الى دمشق يستدعي طبيباً من امهر اطبائها

واشتدَّت الحرارة على الامير عباس الى درجة لا تطاق حتى كاد يشتعل ثم انحطّت سريعاً وجعل يشكو من ضيق النفَس والعطش الشديد وجعل جلدهُ يجفُّ ثم يتندَّى بالعرق دواليك ونبضهُ يسرع ثم يبطئُ وازرقَّ وجههُ وعنقهُ وانقبضت حدقتاهُ ثم اتسعتا واصابتهُ تشنجات صرعية وعقب ذلك سبات عميق

وكان في القبيلة شيخ كبير مارس صناعة التطبيب من غير معلّم ومن غير كتاب ناقلاً ما يعرفهُ عن ابيهِ وجدهِ ومضيفاً اليهِ ما عرفهُ بالاختبار فاستدعاهُ الامير عمر حالاً فامر بصب الماء الكثير على رأس الامير عباس قائلاً ان ما اصابهُ ضربة شمس . ورأَت الاميرة هند ان ما قالهُ الرجل صواب لان الشمس كانت حارة وكان نورها ساطعاً جداً حتى اضطرت ان تسدل نقابها على وجهها اكثر الطريق ولم تخفَّ حرارتها بعد غيابها فاذنت لهم في صب الماء على رأسهِ وخالفتها ام يوسف في ذلك وهي تقول ــــ سموهُ يا ستي سموهُ اسمعي مني واسقوهُ اللبن وزلال البيض لكن الاميرة هند لم تصغ اليها بل امرت بصب الماء وكان ماؤُهم بارداً لان الارض جبليَّة فانتعش الامير عباس قليلاً ثم عاودتهُ الحمى واسلم الروح

الفصل السابع والعشرون

المأتم

تمرُّ الرزايا بالمرء فيراها عن بُعد ويستعظمها قبلما تصل اليهِ ويظن انها اذا وقعت بهِ ضاق بها ذرعاً لاسيما وانهُ يعظّم امرها في غيرهِ ويعجبُ من صبرهم عليها ثم اذا حلّت بهِ فالغالب انهُ يصبر عليها ويجري معها كأَنها امرٌ عاديٌّ وقع لهُ لان الامل بالنجاة منها يخفف وطأَتها ويحلي مرارتها. ولكن اذا جاء المصاب الاكبر ونفذ سهم القضاء وانقطع الامل من البقاء وخطف الموت عزيزاً ورأَى المرء امامهُ رزيئة لا يمكن دفعها ولا منعها نفد صبرهُ وغاض ينبوع املهِ وضاقت بهِ الحيل وارتدَّ دمهُ الى قلبهِ فلم يعد يغذي دماغهُ لتذكيرهِ بالمواعظ والحكم. فيسمع منك اقوال التعازي ويقول سمعتُ وفهمتُ ويكون قد سمع وفهم ولكنهُ لم يعِ شيئاً — حالة لا يتصورها الاَّ من وقع فيها ورُزِئَ بفقد عزيز ولاسيما اذا كان سندهُ الوحيد ومدبر امرهِ

هذا ما اصاب الاميرة هند واولادها وهي غريبة نزيلة على قوم من البدو في بلاد لم تطأْها قدماها من قبل وبين اقوام لا تعرف احداً منهم

كان زوجها يعرف الامير عمر ويعرف اباهُ وقد حارب معهُ كتفاً لكتف في عهد ابرهيم باشا لكن ذلك كان قبل ان اقترنت بهِ. وكان الامير عمر يواصلهم بالهدايا ولكنها لم ترَ صورتهُ الاَّ ذلك اليوم فلم تكد تأْنس بهِ وبامهِ حتى وقعت بها هذه الضربة الاليمة

وقد عاشت مع زوجها نحو عشرين سنة على تمام الهناء والصفاء وكانت تهتم بهِ اكثر مما يهتم النساء بازواجهنَّ عادةً لان معرّفيها غرسوا في ذهنها انهُ هالك ولا بدَّ لها من ان تجاهد جهاداً مستمرّاً في الصلاة لاجلهِ. فاكثرت من الصلوات والنذور في السنة الاولى والثانية ثم رأَت ان زوجها افضل سيرةً وسريرةً من كل الذين تعرفهم حتى من رجال الدين وسمعت مرةً واحداً يتلو آيةً من التوراة مفادها ان كلَّ من يعمل البر فهو مقبول لدي الله مهما كانت امتهُ فانجلى لها وجه الصواب وقالت ان الله لا يأْخذ بالوجوه بل الناس لديهِ حسب اعمالهم ونياتهم. وكانت لا ترى من زوجها الاَّ العمل الطيب والنية الصالحة على ما فيهِ من الرزانة والوقار ومجادلة الناس بالحسنى حتى ان المطران كان يسرُّ بحديثهِ ولا يُسمعهُ كلمة تغيظهُ فزالت الشكوك من نفسها ومنعت القسوس عن الكلام معها في امر زوجها. ثم لما كبر اولادها اتجهَ همها كلهُ الى تعليمهم وتهذيبهم فلم تعُد تهتم بالخلاف الديني الذي بينها

وبينهُ ولم يخطر لها ببال انهُ يمكن ان يموت قبلها لانهُ لم يمرض قط مدة اقترانها بهِ فلما رأتهُ الآن مطروحاً على فراشهِ لاحراك بهِ لم تصدق انهُ ميت بل اخذت يدهُ وجعلت تناديهِ وتكنّيهِ ثم غلبتها عواطفها واسودّت الدنيا في عينيها فاعولت بالبكاء

وغلب الحزن الاميرة سلمى وجفّف دموعها فوقفت شاخصةً ولكنها لم تكد تسمع بكاء امها حتى وقعت على الارض وطرحت رأسها على صدر ابيها وهي تبكي وتقول يا ابي يا ابي. وفاضت الدموع من عيون اخويها وجعلا يبكيان وينتحبان وقد قام كلٌّ منهما في زاوية من المضرب

ووقف الامير عمر حائرًا في امرهِ رأى هذا المشهد وسمع نواحاً يفتت الاكباد فاغرورقت عيناهُ بالدموع ولكنهُ لم ينسَ هول الموقف وما يُطلَب منهُ ويطالَب بهِ فوقف يفكّر في امرهِ وجلست ام يوسف على الارض وقد غلبها الحزن فلم تحاول الندب على جاري عادتها فانها كانت من النادبات الشهيرات ولكن الحزن الشديد يبكم الالسنة

وعلا البدر فقصرت ظلال المضارب واشتد حلكها بالنسبة الى النور الذي حولها ونبحتهُ الكلاب من كل ناحية فانقطع عواء الذئاب خوفًا ورهبةً . وبركت الجمال وربضت الثيران والاغنام تجترُّ وتلوك جرتها على مهل ووقفت الصافنات الجياد تغمض جفونها ثم تفتحها كلما مرَّ خفّاش من امامها . وخمدت النيران امام المضارب وعلا نقيق الضفادع من جوانب الغدران حيث تظللها اغصان الصفصاف والبان فامتزج بهِ خرير الماء امتزاج الحسيني بالعشيران. واجتمعت الخفافيش على اشجار الاجاص والزعرور تختصم وتصيح ولكنها لا تنتقل من الحجاج الشجاج لانها تكتفي بالكفاف من الطعام ولا تفعل فعل ابن آدم الذي لا يكفيهِ شيء يلهمهُ فيطمع بما في يد غيرهِ ويجور على ابناء نوعهِ

ودخل الامير عمر مشورَهُ وجمع رؤَساء عشيرتهِ الادنين وقصَّ عليهم ما حدث بالاختصار فقال ان اباهُ كان متآخياً مع الامير عباس من عهد ابرهيم باشا إخاء الدم[1] وقد اوصاهُ ابوهُ قبل وفاتهِ ان يحسب الامير عباساً عمًّا لهُ ويبرَّ بهِ بر الاب بابنهِ وانهُ استدعاهُ اليهِ الى جبل عجلون لما علم ان في النيَّة قتل امراء حاصبيا واللاجئين اليهم ولكن يظهر انهُ كان مريضاً فاثرت فيهِ الشمس وقتلتهُ والطبيب يقول انهُ مات من ضربة الشمس ولا بدَّ من ان يطالبهُ الشهابيون والحكومة بدمهِ قبلما تنجلي لهم الحقيقة ولكنهُ واثق ان الاميرة هند وابنتها الاميرة سلمى تقرران الحقيقة وهي انهُ وصل المضارب متعباً ثم اكل من الطعام الذي اكل منهُ ولداهُ واصحاب المنزل واصيب بعد ذلك بصداع شديد وحمّى وقضى نحبهُ قبل ان يشرب دواء. قال

(١) ان يجرح كلٌّ منهما يدهُ ويمصَّ كلٌّ واحد من دم الاخر

وقد احضرتكم الآن لاستشيركم في امرين الاول ان الامير عباساً كان مسلماً فهل ندع الامام يغسلهُ وندفنهُ مسلماً والثاني هل ندعو رؤساء العشائر كلهم ونقيم لهُ مأتماً يليق بهِ . قال ذلك واومأ الى شيخ كبير السن شيبت الايام رأسهُ ولكنها لم تحنِ ظهرهُ كأنهُ يطلب منهُ الجواب على سؤالهِ

فقال هذا الشيخ اما عن الامر الاول فالرأي عندي ان نستشير زوجة الامير ونعمل بقولها ولاسيما اذا وافقها عليهِ اولادها . واما الامر الثاني فواجب الضيافة وعهد الاخوة بين الامير المتوفى وبين المرحوم ابيك يقضي علينا ان نحتفل بمأتمهِ كما احتفلنا بمأتم ابيك

ووافقهُ سائر الرؤساء والمشايخ على ذلك وللحال نادى الامير عمر بالسعاة وبعث معهم الى كل احياء قبيلتهِ وعيَّن وقت الدفن عصر اليوم التالي واعطى الطبيب خنجراً من عطر الورد حتى يصبهُ في الماء الذي يغسل الميت بهِ فيمنع فسادهُ . واوصى مدبر بيتهِ ان ينحر مئة خروف وعشرة جمال ويطبخها كلها غداء للجموع التي تحضر المأتم وان يطبخ معها عشرين قفَّة من الارز ويخبز ما يكفي ثلاثة آلاف نفس ويفعل كما فعل في مأتم ابيهِ بحيث تكون مضارب طبخ الطعام مفصولة عن المضارب التي يقام فيها المأتم ولو لم تكن الارض سهلاً كما كانت حينئذٍ

واتمَّ هذه المهام كلها بما لا مزيد عليهِ من السرعة وعاد الى المضرب الذي فيهِ الميت وكانت امهُ قد جلست الى جانب الاميرة هند تشاركها في البكاء والنوح ووقف خدم الامير خارجاً يبكونهُ ويندبونهُ ولا سيما مربي اولادهِ وكان رفيقاً لهُ في صباهُ وشبابهِ وشهد معهُ المواقع التي حضرها وقضى عمرهُ عزباً منقطعاً لخدمتهِ وخدمة اولادهِ فشعر الآن كأنهُ فقد ركنهُ الوحيد في الدنيا وجلس عند باب الخيمة يبكي سيدهُ ويعددهُ ويلوم الموت لانهُ لم يأخذهُ بدلاً منهُ . وجلست ام يوسف الى جانب الاميرة سلمى وهي تندب مرةً وتنوح أُخرى وبات الجميع على هذه الصورة الى ان ثقل سلطان الكرى على الاجفان ولجَّ الامير عمر على الاميرة هند واولادها لينهضوا ويناموا في مضاربهم مؤكداً لهم انهُ يتولى حراسة الميت بنفسهِ

وقد يُظن لاول وهلة ان مضارب البدو خالية من كل وسائل الراحة والرفاهة ولكن ليس الامر كذلك لان امراءهم على ثروة واسعة وهم يترددون على المدن القريبة منهم ويقتبسون ما فيها من الكماليات لا سيما وانهُ يزورهم رجال الحكومة احياناً وينزل بعض السياح عليهم ضيوفاً فيضطرون الى اقتناء الامتعة الفاخرة مما يلزم لراحتهم ولذلك تجد عندهم الفرش الوثيرة مهيأة للضيوف ويقتنون الجواري المعتادات على خدمة اهل الرفاهة فنامت الاميرة هند وابنتها في مضرب مبطن بالحرير على فرش وثيرة تغطيها دثر من الحرير والكتان ونام ولداها في

مضرب آخر متصل بهِ والمضربان الى جانب مضرب ام الامير

واصبح الصباح وسُوّمت الانعام واجتمع الخيامون فخاطوا مضرباً كبيراً من مضارب كثيرة لفقوها معاً وسمكوهُ على عمد عالية وشدوا اطنابهُ فكان منهُ قبة واسعة كقبة نجران ووضعوا الميت في نعش كبير مجلل بشالات الكشمير ونصبوا لهُ دكة في وسط القبة وسرجوا اربعة من الخيول المطهمة ووقف السياس بها امام المضرب

ولم يمضِ ساعتان او ثلاث من النهار حتى انتظم عقد النائحات حول النعش وهنَّ مسدولات الشعور وقص بعضهنَّ شعورهنَّ وطرحنها عليهِ اكراماً للميت وجعلت ام يوسف وامرأة من البدو تتباريان في انشاد ابيات الندب والرثاء والنادبات يرددن اقوالهما والاميرة هند والاميرة سلمى لا تكفان عن البكاء حتى تقرَّحت اماقهما

واعدوا نعشاً آخر يمثل نعش الميت وجعلوا فيهِ حجارة كبيرة وجللوهُ بشيلان الكشمير وجعلوا يحملونهُ ويرفعونهُ فوق رؤُوسهم ويطوفون بهِ حول قبة المأتم والجياد الاربعة ماشية امامهُ وعلى جانبي كل جواد رجلان معهما سيفان مسلولان فوق ظهر الجواد ورجل ثالث يقودهُ ووراء النعش شاعر يعددهُ وباقي الرجال يرددون ما يقول ومن ذلك قولهم

يا سيدي ويا سنجق	كل القول لك يليق
لما شاعت اخبارك	الشركا لبست الازرق

وقولهم

يا سيدي ويا ابن دلال	يا رمح انشكل بالمال
قال السيف خبوني	لغير سيدي لا تعطوني
اين الكان ينقلني	ويرخي بنودي عالشروال

وكلما اقبل فريق من قبائل العرب وقف في اول الميدان هنيهة ونادى بصوت جهوري معدداً مناقب الميت ثم تناول النعش من حامليهِ وطاف بهِ حول القبة على ما تقدَّم واستمرَّ على ذلك الى ان يصل فريق آخر ويتناول النعش منهُ ودام الحال على هذا المنوال الى ان تكبَّدت الشمس السماء

وكان رؤَساء القبائل جلوساً مع ولدي الامير في مضرب كبير تجاه قبة النعش يدخّنون التبغ ويشربون القهوة فلما بلغت الشمس الهاجرة جاء الخدم واخبروا الامير عمر ان الاسمطة مدَّت للطعام في مضارب الرجال وجاءت الجواري فاخبرنَ امهُ بمدها في مضارب النساء فنهض الامير ودعا رؤَساء القبائل وسار امامهم فجلس نحو مئتي نفس من الرؤَساء دفعةً واحدةً ولما شبعوا جلس مئتان غيرهم وهلمَّ جرًّا الى ان بلغ عدد الآكلين اكثر من الفي نفس

واكل النساء في مضربهن‌ٍ اما الاميرة هند والاميرة سلمى فكانتا مع ام الامير عمر في مكان منفرد ومن طعام خاص ولم يكدْنَ يذقن طعاماً

حُمل النعش بعيد العصر وسير بهِ الى مدفن عائلة الامير عمر في سفح ذلك الجبل ودفن فيهِ ونحرت على القبر النياق والقيت عليهِ الحجارة الكبيرة وودعت الجماهير الامير عمر وابني الفقيد وعادت الى احيائها وصعد هو مع رجالهِ الى مضاربهِ مضيَّع الرشد لا يعلم ماذا يفعل

ودام المأتم ثلاثة ايام والعرب يفدون افواجاً افواجاً كل يوم يعزون ولدي الامير لكنهم يقتصرون على المجيء نهاراً ولا يبقون الى الليل ولما انقضت الثلاثة الايام وثلاثة بعدها جلست الاميرة هند وابنتها وابناها واستدعت صبيَّ(١) اولادها وجعلوا ينظرون في ما يحسن بهم عملهُ في تلك الاحوال هل يعودون الى بلادهم بخفارة الامير عمر ورجالهِ او يبقون عندهم الى ان تنجلي تلك الغياهب وتطمئن الخواطر · فقالت الاميرة سلمى وكان لها الرأي المعلَّى ان الفتنة لا تزال قائمة في بلادنا فلا نكون بمأمن فيها ولا يليق بنا ان نكلّف الامير عمر الذهاب اليها في هذه الاوقات ورأيي يا اماه ان نبقى هنا الى اواخر فصل الخريف وحينئذٍ يرحل الامير عمر من هذا الجبل الى بلاد الساحل فنطلب منهُ ان يوصلنا الى دمشق · وقلبي يحدثني ان قنصل الانكليز في بيروت سيبحث عنا ويعرف مقرنا ويُرسل الينا من يردنا الى بيروت ان لم يأتِ هو بنفسهِ الينا والعرب على تمام الوفاق مع الانكليز لانهم ينقلون لهم البريد بطريق البر الى خليج العجم وقد سمعتُ تشرشل بك يتكلم مع ابي في هذا الموضوع لما زارنا آخر مرة

فقالت الاميرة هند فهمت مرادكِ فانتِ تعنين السرهنري الذي زارنا مع ابن خالتك لا قنصل الانكليز نفسهُ · لماذا تظنين انهُ يبحث عنا وكيف يستطيع ان يهتدي الينا اذا كانت حاصبيا قد احترقت الآن كما يظن · ولنسمع ما يقولهُ اخواكِ وصبيهما

فقال الاخوان انهما يفضلان البقاء عند الامير عمر الى ان يفرجها ربنا · واما صبيهما فارتأى ان يُرسل رسول من العرب لاخبار الامير احمد وهو يدبر طريقة لحمايتهم وكادت الاميرة هند توافق على هذا الرأي ولكن الاميرة سلمى رفضتهُ ووافقها اخواها لانهما كانا يكرهان ابن خالتهما ويقولان انهُ متكبر مدَّعٍ

واشتد الجدال بين الاميرة هند وامها وبين الاخوين وصبيهما واخيراً قالت الاميرة سلمى ما ضرنا يا اماه لو انتظرنا شهراً من الزمان الى ان يفرجها الله فاننا لم نرَ من الامير عمر وامهِ واهل قبيلتهِ كلهم الا كل اكرام ولا اظن انهم يسمحون لنا بالرحيل عنهم الآن ما

(١) الصبي في اصطلاح الشهابيين الذي يربي اولادهم ويذهب بهم الى المدرسة

دامت القلاقل قائمة في جبل لبنان وكل البلاد المجاورة لهُ

ودنا اخواها من امهما واخذا يديها يقبلانهما ويقولان نعم يا اماه مثل ما تقول سلمى نبقى هنا ونحرس تربة والدنا الى فصل الشتاء ثم نرحل مع الامير. ففاضت الدموع من عيني الاميرة هند لما قال ولداها ذلك وصمتت هنيهة ثم قالت مثلما يريد الله . ولم يقل صبيهما شيئًا بل عزم ان يرسل رسولاً يخبر الامير احمد كيفما كانت الحال وكان الامير احمد يكرمهُ ويواصلهُ بالهدايا واعطاهُ مرةً خنجرًا محلًّى بالذهب وملقطًا من الفضة لمسك السيكارة قصد استمالتهِ اليهِ حتى يمدحهُ امام الاميرة سلمى كلما ذكر اسمهُ . ولما رآها الآن تشير الى السر هنري اوجس شرًّا وكانت الظنون قد خامرت نفسهُ قبل الآن واطلع الامير احمد عليها لكنهُ خاف ان يطلب من الامير عمر ارسال الرسول لئلا يرفض ذلك ويعاتب الاميرة هند فعزم ان يتصاحب مع غيرهِ من الامراء ويرسل رسولاً من رجالهم

وألِفت الاميرة سلمى الاميرة عاتكة ام الامير عمر وجعلت تجلس في مضربها ساعة بعد ساعة تسمع منها اخبار العرب وقصصهم عن الجن والغيلان والحروب والغزوات واخذ اخواها يخرجان مع الامير عمر للصيد والقنص وطابت لهما الاقامة هناك اما الاميرة هند فاستوحشت كثيرًا لبعد كل اقاربها عنها

الفصل الثامن والعشرون

خطر غير منتظر

مضى على قبائل العرب اكثر من اربعة آلاف سنة من حين ورد ذكرهم في التاريخ المكتوب والمنقوش وهم رُحَّل يعيشون بالغزو والنهب وتربية المواشي وحمل بضائع التجار ولم تتغيَّر حالهم

قامت ممالك اشور وبابل وصور وصيداء ومصر والنوبة واينعت ثم انحطت وانقرضت وقام اليونان والرومان ودوَّخوا المعمور ثم زالت دولهم. وخرج من العرب اناس بلغوا في فتوحهم قلب الهند والصين شرقًا واطراف اوربا وافريقية غربًا ولكن ابناء البادية المقيمين فيها بقوا على بداوتهم لهذا العهد يعيشون في الخيام ويضربون في انتجاع الرزق ويغزو بعضهم بعضًا كما كانوا يفعلون منذ الف سنة والفي سنة . وقد يظن ان بداوتهم هذه على تأصُّلها فيهم وتمكنها من عروقهم تفارقهم اذا خالطوا اهل الحضارة ورأوا فيها من الرفاهة ما ليس في البداوة لكنهم لم يروا في البلاد التي حولهم لهذا العهد ما يرغبهم في الحضارة فبقوا بعيدين عنها ما امكن

ولما لم يكن لقبائل العرب وازع عام يقضي بينهم تراهم يلجأون دوامًا الى اخذ ثارهم بيدهم وهذا هو السبب الاكبر لما يقع بينهم من العدوان

وكان بين عرب الفضل وعرب بني صخر ثارات قديمة واتفق ان عرب بني صخر انسوا الضعف من عرب الفضل او حرَّضهم محرض علي غزوهم لكي يضعف الفريقان معًا فشنوا الغارة عليهم وبلغ الامير عمر ان بني صخر زاحفون عليهِ فجمع رجالهُ في سفح جبل عجلون وكان هناك سهل فسيح يبتدئ بوادٍ عند اسفل الجبل ثم ينتشر شمالاً وجنوبًا وشرقًا وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وترك النساء والاولاد في الجبل ومعهم نحو الفين من الرجال لحمايتهم واراد ابنا الامير عباس ان يخرجا معهُ للقتال فمنعهما واوصي امهما ان لا تدعهما يخرجان من مضربها واكد لها وللاميرة سلمى انهُ يعود فائزًا مساء ذلك اليوم لان رجال بني صخر لا يقاسون برجالهِ

وخرج هو في مقدمة جيشهِ وكان رجالهُ مسلحين بالسيوف والرماح ومعهم نحو مئتي بندقية من البنادق القديمة ذات الزناد فلما توسطوا السهل رأوهُ يموج بفرسان العدو فتقدم فارس منهم براية بيضاء ومعهُ رسالة الى الامير عمر مفادها ان يسلم للامير حسَّان امير بني صخر الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ ويردَّ لهُ احمال البن التي نهبها رجالهُ من قافلة كان فيها عشرون جملاً لبني صخر على كل جمل منها نصف قنطار من البن ويسلم لهُ الامير عباسًا واهلهُ ليحميهم عندهُ لان بني صخر اولى بحمايتهم من عرب الفضل

فقرأ الامير عمر الرسالة وقال للرسول قل لمولاك ان الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ انما قتلاهُ بثار قديم لهما عندهُ وان العرب الذين نهبوا القافلة لم يكونوا كلهم من عرب الفضل ولا هم فعلوا ذلك بامرهِ ولا رأى البن الذي يقال انهم نهبوهُ وان الامير عباسًا رحمة الله عليهِ لجأ الى حماهُ واوصاهُ بزوجتهِ واولادهِ قبل وفاتهِ وهو وحدهُ حامي الذمار في تلك الديار وعرب صخر معتدون عليها واوطانهم بعيدة في البلقاء وهو يطلب منهم ان ينكصوا على اعقابهم ويعودوا اليها فيعود عنهم وَالَّا اشبع غربان الجو ووحوش البر من لحومهم

فرجع الرسول واخبر مولاهُ بما سمع فالتفت الى الذين حولهُ واخبرهم بمفاد الجواب فاشرعوا رماحهم وقالوا لهُ مرنا بالهجوم عليهم فقال هلموا يا شجعان العرب واستلَّ سيفهُ وهمَّ بالهجوم معهم فمنعهُ رجالهُ واقسموا عليهِ ان لا يهجم ما لم يبرز لهُ الامير عمر لكن رجالهُ قوَّموا الاسنَّة واطلقوا الاعنَّة فالتقى الجيشان كانهما جبلان ودار الطعن والضرب وكانت الشمس قد علت عن الافق وارسلت اشعتها في وجوه عرب الفضل فكادت تعمي ابصارهم .

وانفصلت كتيبة من بني صخر ودارت وراء عرب الفضل وربطت عليهم المضيق المؤدي الى جبلهم . واحترَّ القتال واشتدَّت حمارَّة الصيف وتعثرت الجياد بجثث القتلى و برز الامير عمر للامير حسان فتنازلا ساعة زمانية على ميمنة الجيش حتى تكسَّر رمحاهما وتثلم سيفاهما وكاد فرساها يسقطان تحتهما ثم افترقا للم شعث رجالهما وكان بنو صخر قد فازوا على عرب الفضل واثخنوا فيهم لا لانهم اشد منهم بأساً وامهر في الكر والفر والضرب والطعن بل لان اشعة الشمس كادت تعمي ابصار عرب الفضل فسقط منهم مئات من القتلى ولما حاولوا الفرار رأوا فرسان بني صخر تفصل بينهم وبين جبلهم فانتشروا في عرض البر و بنو صخر يجدون وراءهم و يضربون في اقفيتهم وصعد فريق منهم الى الجبل وهجموا على خيام الامير عمر فنهبوها وسبوا مَن فيها وفي جملتهم امهُ والاميرة هند واولادها واحتملوهم وعادوا بهم يجدون السير الى جهة البلقاء

ولما بلغوا السهل التف حولهم فرسان بني صخر يخفرونهم وكان الامير عمر قد سعى وراء رجالهِ يلمُّ شعثهم و يتخيهم ليعاودوا الكرة فجمع نحو الف منهم وعادوا الى السهل وبلغهُ حينئذٍ اسر امهِ والاميرة هند واولادها فصار الضياء في عينيهِ ظلاماً والتفت الى رجالهِ وقال لهم هذا يومكم يا عرب الفضل النار ولا العار من منكم اخو اختهِ يرضى بهذه المذلَّة افتضحنا والله بين العرب الى آخر الدهر وقد مالت الشمس الآن ولم يبقَ لنا عذر فهلموا يا ابطال الحرب والطعان . ثم اشار بيديهِ الى الاعداء وهجم عليهم هجمة منكرة واخذ يجندل الابطال يمنة و يسرة حتى دنا من الفرَس الذي عليهِ امهُ وكاد يخطفها من سرجها ولكن عثر جوادهُ حينئذٍ فسقط واجتمع رجالهُ حولهُ يدافعون عنهُ فاسرع الفارسان اللذان معهما الاميرة سلمى وامها وابعدا عنهُ . ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى عاد الى صهوة جوادهِ واقتحم فرسان العدو بصدرهِ وكانوا قد اطبقوا عليهِ من كل ناحية وسدوا في وجههِ منافس الفضاء . ومضت ساعة من الزمان بيعت فيها الارواح بيع السماح وفعل الامير عمر فعالاً تشيب الاطفال وكان معهُ فارس اسود يحمي ظهرهُ لكنهُ لم يستطع استرجاع الاسرى مع كل ما بذلهُ من الجهد ورأى رجالهُ استبسالهُ فزادت نخوتهم واستقتلوا كلهم ولكن اجتمع عليهم نحو الفين من الفرسان الاشداء ومضت ساعة لم ترَ تلك البطاح مثلها من عهد الصليبيين واخيراً رأى الامير عمر ان الكثرة غلبت الشجاعة وان شمل رجالهِ قد تمزق فعزم ان يرجع ويجمعهم ثانية و يبيت بني صخر بهم تلك الليلة

الفصل التاسع والعشرون

خيبة الامل

وصل السرهنري الى صيداء وبات عند قنصل الانكليز واخبرهُ انهُ ذاهب الى حاصبيا فقال لهُ القنصل ان حاصبيا والقرى المجاورة لها امست رماداً وقتل اكثر رجالها ووصل الفارون من النساء والعجائز الى هنا وهم في حالة يرثى لها· فطلب منهُ السرهنري ان يريهُ بعضهم فارسل القنصل قواساً من قواستهِ فجاءهُ بشيخ طاعن في السن فقصَّ عليهِ ما جرى من اول الفتنة الى ان جُمع الرجال في السراي وذُبحوا ذبح الغنم · فسألهُ السرهنري عن الامراء الشهابيين فقال لهُ انهم قتلوا ايضاً فسألهُ عن الامير عباس فقال لهُ انهُ رحل الى عرب الفضل في جبل عجلون منذ عشرين يوماً او اكثر

وطلب السرهنري من القنصل ان يسير بهِ الى حيث يقيم المهاجرون من اهالي حاصبيا والقرى المجاورة لها لكي يراهم فسار بهِ الى الخانات التي كانوا مقيمين فيها فقابلهُ النساء بالبكاء والعويل ورأى مناظر تفتت الاكباد فتداول مع القنصل في امرهم ثم مضى وقابل المتسلّم واسمعهُ من الكلام امرَّهُ واستأجر سفينة كبيرة ليُرسل بها المهاجرون الى بيروت وارسل معهم القوَّاس الذي اتى معهُ وكتب الى الكولونل روز يخبرهُ بما سمع ويستأذنهُ في السفر الى جبل عجلون وارسل الكتاب مع رسول وقام يطوف في صيداء ليرى مبانيها القديمة فرأى خان الافرنج وقلعة البحر وصعد الى قلعة الملك لويس ورأى ابراجها وما فيها من المدافع المصرية الباقية فيها من عهد ابرهيم باشا فاعجبهُ منظرها وخرج الى خارج المدينة من عند الميناء القديم ورأى اكمة الحلازين البحرية التي كان الصيدونيون يستخرجون الارجوان منها· وركب في اليوم التالي وذهب الى ضواحي المدينة وزار بيت لادي استيرستانهوب واستقصى اخبارها من بعض الذين يعرفونها وعاد عند الظهر الى المدينة فوجد الجواب من الكولونل روز ينصح لهُ فيهِ ان لا يوغل في البلاد ما دامت الفتنة قائمة قاعدة ويؤكد لهُ ان الامير عباساً فعل عين الصواب برحيلهِ الى عرب الفضل ولابدَّ ما ينزل هناك على الرحب والسعة لان الامير عمر اميرهم من اكرم امراء العرب ووسائل الراحة والرفاهة متوفرة لديهِ . قال الكولونل وقد زرتهُ منذ سنتين واقمت عندهُ ثلاثة ايام فرحَّب بي واكرمني غاية الاكرام ووجدت عندهُ كل وسائل الراحة التي يمكن ان توجد خارج المدن ولو كنت اعلم ان الوصول اليهِ سهل لاشرت عليك بالذهاب اليهِ من غير تردُّد اما والاحوال كما ترى فليس من الحكمة ان تخاطر بنفسك لاسيما وان خصومنا قد

ينسبون ذهابك لغاية سياسيَّة ولا يخفى عليَّ انشغال بالك ولكن ما كل ما يتمنى المرءُ يدركهُ . والصبر مرٌّ ولكن ثمرتهُ حلوة كما يقول المثل الفرنسوي . وما دام الاميرة سلمى واهلها في حمى عرب الفضل فلا خوف عليهم . وبعد شهر او شهرين نرى كيف تتصرف هذه الامور لان دوام الحال من المحال . ولقد اسفت جدًّا لما اصاب هؤلاء المساكين على ما وصفت لي ولا بدَّ من ان تصل السفينة التي ارسلتهم بها اليوم او غدًا فيجدوا هنا بعض الراحة وكل مساعدة ممكنة

لما قرأ السر هنري هذا الكتاب رأى ان رجوعهُ الى بيروت اجدر بهِ في الاحوال الحاضرة فاستدعى الشيخ الذي رآهُ قبلاً وكان لا يزال باقيًا في صيداء عند اقاربهِ وسألهُ عن عرب الفضل ومنازلهم وعدد رجالهم واوصاف اميرهم فقص عليهِ الشيخ ما يعلمهُ من امرهم وقال انهم بطون كثيرة تنزل جبل عجلون والسهول المجاورة لهُ فتقيم في الجبل صيفًا وفي السهول شتاء وهم نحو ستة الاف بيت . واذا خرج اميرهم الامير عمر الفاعور للغزو خرج معهُ اربعة آلاف فارس وقد حاولت الدولة ادخالهم في طاعتها مرارًا فاخفقت لكنهم لا يضمرون العداء لها على ما يظهر بل يكرمون رجالها ويهادون الولاة بالهدايا ويقصدهم التجار ويشترون منهم السمن والصوف والغنم والجمال والخيل اذا لم تكن كريمة وقد يبيعون الفرس الكريم بالف ريال او اكثر ويشترون من التجار الاقمشة المختلفة والتبغ والرز والبن والسكر والطيوب والآنية النحاسية والحلى والاسلحة ويقيم الى جنوبيهم بنو صخر وهم لا يقلون عنهم عددًا وعُدَدًا وقد ذهبت اليهم في تجارة منذ عشر سنوات وكان معي ولداي

ولما نطق بهذه الكلمة اغرورقت عيناهُ بالدموع والقى رأسهُ على عصاهُ وجعل يبكي كالطفل الصغير ثم كفكف دموعهُ وعاد الى الحديث فقال نعم ذهبت مع ولديَّ وكانت الحرب ناشبة بين عرب الفضل وبني صخر لكن العدول من الطرفين اجتمعوا يوم وصولنا ووقعوا شروط الصلح فاستبشر العرب بنا واشتروا كل ما معنا من البضائع واعطونا غنمًا بدلاً منها فرجعنا راكبين على دوابنا ومعنا قطعان كبيرة من الغنم رزق الله على تلك الايام ياليتني متُّ فيها

فسألهُ السر هنري عن حال المعيشة في بيت امير عرب الفضل . فقال الشيخ العرب عرب اينما كانوا وقد ضافنا امير عرب الفضل في بيتهِ فاكلنا وشربنا مع رجالهِ وهو وبعض الامراء يأكلون وحدهم وطعامهم الرقاق والرز المفلفل والخرفان والامير متأنق في طعامهِ فيصطادون لهُ الحجال ويطبخون لهُ احيانًا مآكل تركية لان عندهُ الجواري السود المعتادات على طبخ المآكل التركية وعمل الحلويات وهم يكثرون من اكل الحلوى وعندهم العسل البري يشتارونهُ من الجبل ويكون في شقوق الصخور العالية . وقد اكلت منهُ وهو اطيب من العسل الشبعاوي

فقال لهُ السر هنري وكيف ينامون هل عندهم فرش مثلنا

فقال نعم عندهم فرش كبيرة محشوَّة بالصوف الناعم وكثيرًا ما يزورهم كبار رجال الحكومة وينامون عندهم والهواءُ هناك طيب منعش فينام الانسان ساعتين كأَنهُ نام الليل كلهُ فان كنت عازمًا على الذهاب الى هناك فاذهب ولا تخف فان كثيرين من السياح قد ذهبوا الى هناك وانا ذهبت مع جماعة من الانكليز الى مصر بطريق البر ومررنا على عرب الفضل وعلى كل العربان الذين في الطريق من هنا الى عريش مصر . نعم ان السياح كانوا ينامون في خيامهم ولكن امراءُ العرب كانوا يدعونهم للاكل عندهم فيجدون ما يسرهم

فاطمأَن بال السر هنري من هذا الحديث وسلَّم امرهُ لله وصرف الشيخ بعد ان ناولهُ صرةً من النقود وقام في اليوم التالي وعاد راجعًا الى بيروت

الفصل الثلاثون

البحث والتحقيق

لم يكد السر هنري يصل الى بيروت حتى وصل اليها فوءَاد باشا الصدر الاعظم جاءَ ليصلح الحال من اقرب الطرق خوفًا من مداخلة اوربا وقد فُوّض اليهِ ان يفعل ما يرى فعلهُ لازمًا لاطمئنان الخواطر وارجاع الامن الى البلاد فقبض على والي بيروت والقاهُ في السجن وسجن معهُ بعض رجال الحكومة لكنهُ لم يفعل ذلك الَّا بعد ان جاءَهُ كتاب قوي اللهجة من اميرال الاسطول الانكليزي الذي كان راسيًا تجاه بيروت وصف لهُ فيهِ الفظائع التي جرت وابان لهُ ان الامم الاوربيَّة لا تستطيع السكوت عنها وانهُ اذا لم تبادر الدولة الى الاقتصاص من المرتكبين فالدول الاوربية متفقة على ان تتولَّى هي بنفسها الاقتصاص منهم وارجاع الامن الى نصابهِ . واشار في هذا الكتاب الى ان اللوم الاكبر واقع على كبار رجال الحكومة الذين امروا بهذه الفظائع وتولَّوا اجراءَها

فوقع هذا الكتاب وقعًا شديدًا في نفس الوزير وصعد الى دمشق وقبض على واليها وامر بقتلهِ وقتل معهُ المأمور الذي كان في حاصبيًا وثلاثة من ضباطهِ ومئة وسبعة عشر جنديًا ونحو خمسين او ستين من الاهالي . وكان الذين قُتلوا من دمشق وضواحيها نحو ستة آلاف نفس

وسُئِل احد وجوه دمشق ليكتب محضرًا يصف فيهِ ما جرى لهُ وكان قد نجا من المذبحة فكتب ما خلاصتهُ

لما فشت الفتنة في لبنان والبلاد المجاورة لهُ اضطربت الافكار في دمشق حتى اذا ورد الخبر بالاستيلاء على زحلة كان فرح عظيم وزُيّنت الاسواق بالانوار فزاد الخوف وهرب كثيرون الى دمشق من البلاد المجاورة لها فامتلأت بهم الكنائس والازقّة . وكانت الآمال معقودة بان الامير عبد القادر الجزائري يستطيع منع الفتنة وقد بذل جهدهُ في هذا السبيل فاطمأنت الخواطر وعاد الناس الى اعمالهم في السابع والثامن من شهر يوليو . وفي التاسع منهُ استبيحت الارواح ودخل الاشقياء البيوت والاديرة والكنائس وقتلوا من فيها حتى العاجز والاعمى من السكان ومن اللاجئين اليهم بل قتلوا المجذومين الذين يقصدون دمشق للتداوي فيها وحرقوا مكانهم

وكما فعل هؤلاء الاشقياء المنكرات فعل الفضلاء الصالحات فالامير عبد القادر والشريف اسعد حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ عمر العابد وامثالهم طافوا احياء المدينة برجالهم ينقذون الناس ويمنعون الاعتداء عليهم فخمدت الفتنة في اليوم الثاني ثم اشتدّت في اليوم الثالث ودامت الشدّة الى ان وصل الى دمشق والٍ جديد وامّن من بقي حيًّا

وانا كنت نائمًا في بيتي فايقظوني صباح الاثنين في ٩ يوليو واخبروني ان الفتنة فشت في المدينة فخرجت الى باب داري لاتحقق الخبر فرأيت الناس يتراكضون فاقفلت بابي منتظرًا قدوم قواس من قنصلاتو الانكليز لاني تابع لها وبعد قليل حضر قوّاس فارسلتهُ الى الامير عبد القادر اطلب منهُ رجالاً يوصلونني اليهِ فرجع القوّاس وحدهُ بعد برهة قائلاً ان الامير اعطاهُ ستة رجال ولكن لم يمكنهم الوصول اليّ لشدّة الازدحام ولانهم غير مسلحين . فانتظرت آملاً ان يتسلحوا ويعودوا اليّ وبينما انا جالس في انتظارهم هجم جماعة على باب داري وكسروهُ بالبلطات ودخلوا الدار الخارجيّة وجعلوا يطلقون الرصاص على غرف البيت فخرجت من باب صغير خارجي ومعي ابني وعمرهُ تسع سنوات وابنتي وعمرها ست سنوات والقوّاس واخذت معي مبلغًا من النقود لاستعين بهِ بدل السلاح وكنت كلما التقيت بجمهور من الثائرين ورأيتهم هاجمين عليّ ارميهم بقبضة من النقود فيلتهون بها عني الى ان وصلت الى زقاق ضيق ظننت اني لا اجد فيهِ احدًا فاصل منهُ الى دار الامير عبد القادر ولكن خاب ظني وهجم عليّ رجالهُ ليقتلوني وضرب واحد منهم ابنتي ببلطة على رأسها فاسال دمها واطلق آخر عليّ الرصاص مرتين فاخطأني وبادرني واحد ببلطة على رأسي فشق جبيني وأُصبت بضربات كثيرة في جنبي الايمن ولم يعد الذين حولي يستطيعون اطلاق الرصاص عليّ لئلاّ يصيب بعضهم بعضًا فقلت لهم اني ذاهب لاقابل حضرة البك محافظ المحلة في شغل لهُ فيهِ

مصلحة كبيرة . فقال بعضهم هلمَّ نأخذهُ الى البك فاخذوني اليهِ بعد ما سلبوا مني ساعتي وكل ما معي من النقود . وبينما نحن سائرون لحقنا درويش بعمامة خضراء وشعر مسدول وبيدهِ عصا طويلة في رأسها منجل كبيرة وكان يمدُّها من فوق رؤُوس الرجال ليجز بها رأسي . حتى اذا وصلتُ الى بيت المحافظ اخذني بيدهِ وصرف الناس عني ووضعني في بيت احد اتباعهِ مع القواس وكان قد صار العصر وليس في البيت الاَّ امرأَة عجوز والتفتُّ فلم ارَ ولديَّ ولا كنت اعلم ماذا جرى لزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها وكنت قد فارقتهم في البيت اما ولداي الكبيران فكان اولهما عند قنصل الانكليز والثاني في مدرسة الروم البطريركية ولم اكن اعلم ايضاً ماذا جرى لهما. واصعدوني الى غرفة عالية (قصر) تطلُّ على الشارع فرأَيت منها المحافظ آتياً الى بيتهِ باناس كثيرين وعيالهم فاستغربت كيف يحمي هؤُلاء في بيتهِ ولا يحميني انا فيهِ بل يضعني في بيت احد اتباعهِ وترجح عندي انهُ يقصد الايقاع بي ليلاً ولا يريد ان يقتلني في بيتهِ امام الجمهور فاخبرت القوَّاس بذلك وقلت لهُ الاجدر بك ان تنجو بنفسك . فقال وانت ماذا تفعل فقلت لهُ اني انتظر حتى يخيم الليل وادخل بيت المحافظ فلا اظن انهُ يتجاسر على قتلي في بيتهِ وبيتهُ مملوء بالناس . فقال هذا هو الصواب ولكنني لا افارقك الاَّ بعد ان تصل الى بيت المحافظ وحينئذٍ اذهب واخبر الامير عبد القادر. فاستحسنت رأيهُ وانتظرنا الى ان خيم الظلام وحينئذٍ رأينا سبعة رجال جاؤُوا وقرعوا الباب بعنف ففتحت لهم العجوز فسأَلوها هل فلان هنا فقالت نعم هو في القصر (الغرفة العليا) . فقلتُ دنت الساعة واشرت الى القوَّاس لينجو بنفسهِ ويخبر عما حلَّ بي . وبينما انا اكلمهُ بذلك صرخ واحد من الرجال قائلاً انزل يا فلان فانا صديقك السيد محمد السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي انقذك فلا تخشَ بأْساً فنزلت اليهِ والبسوني برنساً كالمغاربة ومشيت بينهم وسرنا ندوس على القتلى في الازقَّة حتى وصلنا الى بيت الامير وكان مزدحماً باللاجئين اليهِ لان الامير بقي ثمانية ايام متسلحاً يطوف في الشوارع وينقذ الناس من القتل . ولما رأى السيد محمد السوطري ان بيت الامير مزدحم الى هذا الحد طلب منهُ ان يسمح لهُ باخذي الى بيتهِ وهو قريب من بيت الامير فسمح لهُ ومضى بي الى بيتهِ وسأَلني عن عائلتي فقلت لهُ ان ابني الكبير في قنصلاتو الانكليز والثاني في مدرسة الروم وكان معي ولدان ففرَّقوا بيني وبينهما ولا اعلم ماذا جرى لهما وقد تركت زوجتي وطفلها في البيت. فقال اما ابنك الكبير فلا خوف عليهِ لانهُ لم يدنُ احد من قنصلاتو الانكليز واما الباقون فانا امضي الآن افتش عنهم وهم لا يعرفونني فقد يمتنعون عن المجيء معي فدع القواس يذهب برفقتي لاطمئنانهم

ومضى هو والقواس فوجدوا زوجتي واولادي كلهم ما عدا الثاني الذي كان في المدرسة وسألت السيد محمدًا كيف عرف اني في البيت الذي كنت فيهِ فقال انهُ لما بلغهُ ما حصل بباب البريد ظن ان الامر طفيف وان الحكومة تتلافاهُ حالاً فاقفلوا الباب الواصل الى حارة النصارى لمنع اولاد محلتهم من الاشتراك مع الثائرين فاتى جمهور من اكراد الصالحية وخلعوا الباب فخاف حينئذٍ على بيتي واتاهُ واحد فاخبرهُ بما اصابني وبوصولي الى بيت محافظ الحارة فتوجه اليهِ وطلبني منهُ فانكرني فرجع واخبر الامير عبد القادر فاعطاهُ ستة من المغاربة المتسلحين ليطلبوني من المحافظ فذهب معهم وطلبوني منهُ وشددوا عليهِ فاضطرَّ ان يرسل ابن اخيهِ معهم ليدلهم على مكاني

وفي تلك الليلة زارني المستر برانت قنصل الانكليز وطمنني عن ولدي الاكبر ٠ اما ولدي الثاني فمضى ثلاثة ايام ولم اقف لهُ على خبر ولا وجد بين القتلى المطروحة في الازقة

ثم اتى رجل تركي الى قنصل الانكليز واخبرهُ انهُ متزوج ابنة علي آغا كاتب الخزينة (وكنت قد اسكنت المستر روبنصن المرسل الانكليزي في بيتهِ) فلقيت زوجتهُ ابني المفقود واخفتهُ في بيتها ٠ فللحال ارسل القنصل رجالاً من المغاربة فاحضروهُ اليهِ

وبقيت شهرًا في بيت السيد محمد السوطري حتى شفيت من جراحي ثم دعاني الشريف محمود افندي حمزة الى دارهِ فانتقلت اليها لان الاشقياء خرَّبوا بيتي ونزعوا خشبهُ وبلاطهُ وبقيت في بيت محمود افندي الى ان حضر فؤاد باشا

وعادني السيد محمد الامين الشاعر المشهور مفتي بلاد بشارة وقال لي ماذا اصابكم فقلت الذي تراهُ ٠ فقال سفكت دماؤكم وسبيت نساؤكم وهدمت بيوتكم ولكن عليكم ان تتأسوا بمصاب غيركم فان اهالي دمشق الذين فعلوا بكم هذه الفعال قتلوا اولاد نبيهم وسبوا نساءهم وهدموا الكعبة المشرَّفة

الفصل الحادي والثلاثون

مؤتمر باريس

ما هذا الحر الذي يزهق النفوس حقًّا ان باريس لا تطاق في شهر اغسطس

المتكلم مندوب روسيا والمخاطب مندوب انكلترا

فقال مندوب انكلترا — والحرُّ عندنا شديد ايضًا على خلاف المعتاد وقد بلغت درجة الحرارة التسعين امس

مندوب روسيا — التسعين ما هذا وكيف تحسبون درجات الحرارة

مندوب انكلترا — نسيت انكم لا تحسبون الدرجات مثلنا · ان التسعين بميزان فارنهيت تقابل نحو ٣٢ بميزان سنتغراد ولكنني اشعر برطوبة هنا لا نشعر بها عندنا وعلى كل حال الحر شديد هنا ولا اظنهُ شديداً في بطرس برج

كلاَّ ولكنهُ يشتد احياناً كثيرة في فصل الصيف · الظاهر ان فرنسا تريد ان تفتح المسألة الشرقية من جديد

مندوب انكلترا — هل انتم من رأيها

مندوب روسيا — انتم تعلمون انهُ لا يمكن ان نكون من رأيها · ومولاي الامبراطور مستاءٌ جدًّا مما حدث في سورية ولكنهُ يقول انهُ ان كان الحق في المداخلة لدولة واحدة فذلك الحق هو لروسيا لا لغيرها وقد وصلت بارجة من بوارجنا الى مدينة بيروت في الوقت اللازم فمنعت حدوث مذبحة فيها

مندوب انكلترا — نعم بلغنا ذلك ومولاتي الملكة شكرت لسفيركم لما بلغها الخبر لانها مستاءة جدًّا من هذه الحوادث وانتم مصيبون في قولكم انهُ لا يحسن بدولة واحدة ان تنفرد بالمداخلة اي بارسال جنودها الى تلك البلاد ولكن هل ترون من الحكمة ان ترسل كل دولة من الدول المتحابة فرقة من جنودها

ففكر المندوب الروسي هنيهة ونظر في وجه المندوب الانكليزي لعلهُ يقرأُ فيهِ ما يضمر ثم قال لهُ كلاَّ ولكن لماذا نفضل فرنسا على غيرها اذا فضلنا ان تنفرد دولة واحدة بارسال جنودها

فقال المندوب الانكليزي نحن لا فرق عندنا فاذا اردتم فنحن نرسل جنودنا او انتم ترسلون جنودكم او ترسل جنود نمسوية

فلم يجب المندوب الروسي على هذا الكلام بل بقي صامتاً يفكر في ارسال الجنود الروسية اذا امكن ولكنهُ يحسب ذلك ضرباً من المحال

وتكامل الاعضاء حينئذٍ ودارت المذاكرة بعد ان تليت عليهم تقارير القناصل كلهم وكان حاضراً في ذلك المؤتمر معتمد بريطانيا ومعتمد روسيا ومعتمد تركيا ومعتمد فرنسا ومعتمد النمسا ومعتمد بروسيا ولم يسع مندوب تركيا ان ينفي شيئاً مما ذكرهُ القناصل

وبعد بحث طويل اقرَّت الاكثرية على انهُ لا بدَّ من ارسال جنود اوربية لارجاع الامن الى البلاد وتبرَّعت فرنسا بارسال ستة آلاف من جنودها وكانوا مستعدين للسفر عند اول اشارة فشكرها المندوبون على هذه المروءة · وقال مندوب انكلترا يجب ان نقرر ايضاً

ان هذه الجنود ذاهبة باسم اوربا كلها لا باسم فرنسا وحدها٠ فبُهت المندوب الروسي والبروسي من هذه السياسة الرشيدة وقالا نعم هذا هو الصواب ووافقهما المندوب النمسوي فلم يسع المندوب الفرنسوي الاَّ القبول بذلك وقال هذا هو غرض مولاي الامبراطور فان الذي دفعهُ الى ارسال جنوده انما هو الشفقة والحنان وليس لهُ ادنى مأرب سياسي فباسم اوربا كلها نرسل جنودنا الى سورية

فقال المندوب الانكليزي والمفهوم ايضًا ان هذه الجنود ذاهبة لغرض مخصوص وهو توطيد الامن فمتى توطد تعود مشكورة كما ذهبت مشكورة٠ فابرقت اسرَّة مندوب الدولة العلية حينئذٍ وكان قد اوجس شرًّا لما طلب مندوب انكلترا ان يكون ارسال الجنود باسم اوربا كلها قائلاً في نفسهِ ان هذا يدل على اتفاق اوربا كلها علينا فلما سمع القول الثاني وهو ان الجنود تخرج من سورية حالما يتوطد الامن فيها سُرّي عنهُ ووافق على ذلك ووافق سائر المندوبين ولم يقل مندوب فرنسا شيئًا لان كلمة توطيد الامن واسعة المعنى تحتمل التعليل الكثير والمطل الطويل

وتذاكر اعضاء المؤتمر في امور شتَّى تتعلق بهذا الموضوع وعادوا الى معاهدة باريس التي عقدت بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ والحوا على مندوب الباب العالي بوجوب العمل بها من حيث المساواة بين كل اصناف الرعية فقال لهم ان الباب العالي قد بذل اقصى جهده للقيام بتلك المعاهدة وسيبقى باذلاً اقصى الجهد للقيام بها

وختم المؤتمر وكان ابتداء اجتماعهِ في الثالث من اغسطس سنة ١٨٦٠ ووصلت الجنود الفرنسوية الى بيروت في السادس عشر منهُ اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر كامل وعسكرت في حرش بيروت نصبت خيامها هناك وانتظرت الاوامر٠ وحالما وصلت سادت السكينة في كل مكان واطمأنت القلوب وراجت الاعمال لاسيما وان اموال المحسنين من اوربا واميركا كانت تتدفق لاعانة المنكوبين٠ وجعل كثيرون منهم يعيشون من بيع الاطعمة للجنود٠ وتصرَّف الجنود تصرُّف الكرام فكانوا يدفعون كل ما يطلب منهم ويعطون الباعة شيئًا من طعامهم حتى ان الفقراء الذين كانوا لا يأكلون الاَّ الخبز الحاف ولا تصل يدهم الى شيء من الادام صاروا يأكلون اللحم الغريض مما يعطيهم اياهُ الجنود واكتسى كثيرون من الثياب القديمة التي اعطوهم اياها وظهر كأن البلاد انتعشت بعد ما خيم عليها ظل الموت

الفصل الثاني والثلاثون

الخيبة والفشل

رجع الامير عمر الى مضاربهِ كاسف البال يكاد يشتعل غيظاً وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فترجَّل عن جوادهِ واجتمع حولهُ شيوخ قبيلتهِ وكان قد اصيب بجرح في ذراعهِ اليسرى فاتى المتطبب وغسل الجرح بالماء وحمي اداة من الحديد وكواهُ بها كأنهُ يميت ميكروبات الفساد ورش على الجرح رماد خرقة محروقة وربطهُ والامير رابط الجاش لا يتألم ولا يتكلم . ثم سأل الذين حولهُ عن عدد القتلى فقالوا لهُ زهاء مئتين وقد ابلينا بلاء حسناً فقتلنا اكثر من ذلك . فامر ان يرسل من يهتم بحمل الجرحى ودفن القتلى وان يستريح الرجال ساعتين من الزمان ثم ينهضوا ويلحقوا بالعدو حيث يبيت تلك الليلة

فقال لهُ رجل شيخ من رجالهِ ليس تبييتهم من صواب الرأي لان الليل حالك الظلام وقد نصيب احداً من اولاد الامير عباس . والرأي عندي ان نرسل نستنجد عرب عنزه فانهم استنجدونا مرتين في حياة المرحوم والدك فانجدناهم ونضرب موعداً نهجم فيهِ على بني صخر من جهتين مختلفتين فإما ان يثوبوا الى رشدهم ويردوا الأسرى ويصالحونا واما ان نخرب ديارهم ونمحو آثارهم

فقال رجل آخر وهذا ليس من صواب الرأي لان عرب عنزه ارتحلوا الى جهات الجزيرة او هم على اهبة الارتحال ورأيي ان نرسل الى بني صخر نعرض عليهم افتداء الاسرى ثم نترقَّب الفرص للاخذ بالثار . وقال ثالث ان الامير حساناً ان قبل بافتداء اسرانا لا يقبل بتسليمنا الاميرة هند واولادها ولا بدَّ ما يكون قد كتب كتابهُ الآن على الاميرة سلمى على جاري عادتهِ

ولما سمع الامير عمر هذا الكلام صار الضياء في عينيهِ ظلاماً فنهض واقفاً وقال من منكم اخو اختهِ يسير ورائي ويحمي ظهري وعليَّ انا وحدي ببني صخر كلهم

ولكنهُ كان خائر القوى لكثرة ما نزف من دمهِ فارتجفت ركبتاهُ وكاد يغمى عليهِ فقال لهُ الطبيب تناول الآن شيئاً من الطعام حتى تسترد قوتك وبعد ذلك تنظر في الامر . وشعر هو بخوران قوتهِ فاتكأ على عمود الخيمة واطرق وهو يكاد يتميز غيظاً من نفسهِ ومن سوء طالعهِ لانهُ لو لم يعثر جوادهُ لردَّ الاسرى وقهر الاعداء ولولا اشعَّة الشمس التي اعمت ابصار رجالهِ لما دارت الدائرة عليهم فكأَنَّ التقادير كلها كانت معاندة لهُ . فالتفت الى الذين حولهُ وكادت دموع الغيظ تنفجر من عينيهِ وقال لهم لا بدَّ لنا من الراحة على كل حال فعلقوا لخيلكم واستريحوا قليلاً

ثم امر خدمهُ ان يقدموا لهم ما حضر من الطعام ودخل خباءهُ وانطرح على بساط وحاول جمع افكارهِ المتشتتة فلم يستطع وشعر كان رأسهُ يكاد يشتعل فنزع كوفيتهُ وعقالهُ واتكأ على مسند وجعل يغمض عينيهِ ليزول من امامهِ شبح امهِ وشبح الاميرة هند واولادها فزادت تلك الاشباح تجسماً وكأنهُ كان يسمع اصواتهم ترنّ في اذنيهِ وتناديهِ ليسرع الى نجاتهم. وخُيّل لهُ انهُ سمع الاميرة سلمى تناديهِ وتقول لهُ نزلنا عليك ضيوفاً لتسلمنا الى هذا الوغد الزنيم ما كذا تفعل العرب الكرام. وسمع الامير حسّاناً يعرض عليها الزواج بهِ ويهددها بقتل اخويها ان ابت. فارتعدت فرائصهُ وحاول النهوض ولكنهُ لم يستطع لان الحمى كانت قد تمكنت منهُ وجعلت الاخيلة تتراءى امام عينيهِ وخُيّل لهُ انهُ عاد الى ميدان القتال فجعل ينخي رجالهُ ويحرضهم على الهجوم. وكان صوتهُ يرتفع احياناً حتى يسمعهُ فيستيقظ وفي اقل من لحظة يعاودهُ البحران

وسمع خدمهُ هذيانهُ فخافوا ونادوا الطبيب فدخل وجسّ نبضهُ وغلى بعض الاعشاب وسقاهُ غلايتها ونزع جزمتهُ من رجليهِ وغطاهُ فعرق عرقاً غزيراً ثم نهض وخلع ثيابهُ وشرب قليلاً من اللبن فانتعشت قواهُ ولكنهُ لم يستطع ان يصرف عن ذهنهِ التفكير بامهِ والاميرة هند واولادها لا لانهُ كان يخشى عليهم شرّاً لان العرب لا يسيئون الى اسراهم ولا سيما اذا كانوا من كرام القوم بل يحتفظون بهم ليأخذوا فكاكهم ولكن لان الكلام الذي سمعهُ عن الامير حسّان كان اوقع في نفسهِ من ضرب الحسام فجعل يضرب اخماساً لاسداس ويوازن بين الاساليب التي يمكن ان يسترد الاسرى بها ويقهر عدوهُ من غير ان يقع بهم ضرر فلم يرَ اسلم عاقبة من افتكاكهم ولو بكل ما يمتلكهُ. وقال في نفسهِ ان حساناً وان كان زير نساء الّا انهُ يفضل المال على كل شيء فان انا اعطيتهُ مئة جمل او مئتي جمل او خمس مئة جمل فعل ما اريد فاشتري شرفي الآن بالمال القليل ومتى انفرجت هذه الازمة يدبرها الله. ثم استدعى رجالهُ وقال لهم ما قولكم لو عرضنا الفداء على الامير حسان واجزلنا لهُ العطاء. فاجمعوا على انهُ ممن يشترى بالمال ولكنهم خافوا ان يصرّ على بقاء الاميرة هند واولادها عندهُ إما رغبةً في الاميرة سلمى واما طمعاً بان بني شهاب يفتدونها بالاموال الطائلة

وبينما هم في الحديث دخلت ام يوسف وهي تصيح وتقول اين شهامة العرب يا امير عمر اتترك ستي واولادها في السبي ارسلني الى بيروت حتى خبّر قنصل الانكليز فان الست سلمى مخطوبة لامير انكليزي واذا عرف ما اصابها اتاكم بالف عسكري انكليزي

فكان لكلامها وقع عظيم في نفوسهم فاجلسوها وسكنوا روعها وسألوها عن قصة الامير

الانكليزي فاكدت لهم ان في دار قنصل الانكليز في بيروت اميرًا انكليزيًا من اولاد عم ملكة الانكليز وهو خطيب الاميرة سلمى وقد سافر ابوها بها على غير علمهِ وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بالعساكر للتفتيش عنها . فطيبوا خاطرها وجعلوا يتداولون في ايصال هذا الخبر الى الامير حسَّان

اما الامير عمر فصمت ولم يعد يتكلم لانهُ رأَى انهُ ان كان ذلك ينجيهِ من خصم يكرههُ هو وتكرههُ الاميرة سلمى ايضًا فهو يوقعهُ في خصم آخر تحبهُ الاميرة سلمى ولا يمكن نجاتها منهُ فرأَى ان الآمال التي احياها في فؤَادهِ اماني فارغة واضغاث احلام فلم يعرف كيف يتقي النبال . فشلٌ وخذلان واسر وذل . ثم هو مضطر ان يحمل العار لينقذ فتاةً تكون لغيرهِ ولا يعود يراها في حياتهِ . فوجم ولم يعد يتكلم وظن رجالهُ انهُ كان يفكر في طريقة لانقاذ الاسرى من غير فكاك فصمتوا هم ايضًا ثم نظروا اليهِ يستوضحونهُ رأْيهُ فقال وهو لا يدري ما يقول ارسلوا اعرضوا عليهِ الفكاك وخذوا من مالي خمس مئة جمل او اكثر حسب دواعي الحال واخبروهُ ان الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بعساكر الانكليز ومدافعهم وهو يعلم ما حلَّ بهِ وبرجالهِ يوم خربوا عكاء . وان فسَّح الله لي في الاجل اخذت ثاري بيدي والَّا تركت ثاري لكم لتأْخذوهُ بعدي وقد عاودتني الحمى الآن ولا ادري ماذا اقول . ثم اتكأَ على ذراعهِ واسند رأْسهُ الى كتفهِ . وقام رجالهُ وتشاوروا ساعة من الزمان ثم ارسلوا ثلاثة منهم ومعهم رايات بيضاء ليعرضوا الفكاك على الامير حسان ويخبروهُ بقصة الامير الانكليزي

وكان قد وصل الى القبيلة شاعر دمشقي فنظم ابياتًا في واقعة الحال وانشدها الامير عمر يعزيهِ بها عما حلَّ بهِ ومنها قولهُ

تعزَّ فان الصبر بالحر اجملُ	وليس على ريب الزمان معوَّلُ
فلو كان يغني ان يُرَى المرءُ جازعًا	لحادثة او كان يغني التذللُ
اذًا فالتعزي عند كل مصيبة	ونائبة بالحر اولى واجملُ
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامهُ	وما لامرءٍ عمَّا قضى الله مرحلُ
فان تكن الايام فينا تبدلت	بؤُوسًا بنعمى والحوادث تفعلُ
فما لينت منا قناةً صليبة	ولا ذللتنا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوسًا كريمة	تُحمَّل ما لا تستطيع فتحملُ

فشكرهُ الامير وامر لهُ بصلة سنية وفرس كريم

الفصل الثالث والثلاثون

البطر بعد الظفر

عاد الامير حسَّان ورجالهُ وهم لا يصدقون بما نالوهُ من الفوز المبين فان غاية ما رجوهُ ان يأخذوا بثار رجالهم من عرب الفضل ويكشفوا عنهم العار ويستردوا ما نُهب من قافلتهم ففازوا باكثر مما أَملوهُ قتلوا مئتي رجل او اكثر واسروا ام الامير عمر وضيوفهُ واستاقوا قطيعاً كبيرًا من الماشية وجدوهُ في طريقهم وانتظروا الفكاك الكبير للاسرى فواصلوا السير بالسرى الى ان ابعدوا مرحلة كبيرة عن منازل عرب الفضل ونزلوا في آخر الليل واستراحوا قليلاً ثم قاموا في الصباح وساروا وئيدًا ثلاثة ايام الى ان وصلوا الى محلتهم في البلقاء والامير حسان لا يصدق ما يرى بل يحسب انهُ في حلم وكانت اخبارهم قد بلغت من بقي في المحلّة فخرجت النساء للقائهم بالدفوف والمزاهر والاناشيد الحماسية • وذبحت الذبائح في اليوم التالي واولمت الولائم واديرت الخمور وأَنزل الامير حسان الاميرة هند والاميرة سلمى وام الامير عمر في مضرب كبير قرب مضرب زوجتهِ واقام جاريتين على خدمتهنَّ وانزل ولدي الاميرة هند في مضرب آخر . وكان في بني صخر شاعر من متاولة جبل عامل فنظم لهُ قصيدة يمدحهُ بها ويذكر مناقبهُ الحسان وبلاءهُ بالاعداء ويحذرهُ من التمادي في عدائهم ومما قالهُ فيها

تجافَ عن الاعداء بقيًا فربما	كُفيتَ ولم تجرَح بناب ولا ظفرِ
ولا تبرِ منهم كل عود تخافهُ	فان الاعادي ينبتون مع الدهرِ
اذا انت افنيتَ النبيه من العدى	رمتك الليالي عن يد الخامل الذكرِ
وهبْك اتّقيت السهم من حيث تتقي	فكيف بمن يرميك مَن حيث لاتدري

ففطن الامير حسان الى مرادهِ وظن بهِ السوء فلم يصلهُ بشيء بل امر احد اعوانهِ ان يأخذهُ الى خيمتهِ ويحتفظ بهِ الى ان ينظر في امرهِ • وشرب من معتقة الدنان الى ان امتلأ رأسهُ ببخارها فذهبت بعقلهِ وقام قاصدًا مضرب الاميرة هند فالتقت بهِ زوجتهُ ولم يخفَ عليها امرهُ فقالت لهُ الى اين يا سيئ الفعال اتريد ان تتركنا عارًا بين قبائل العرب • وامسكت بهِ وردتهُ من حيث اتى وكان يخشى صولتها وقد طلّق نساءً كثيرات قبلها اما هي فملكتهُ وكان يجلس امامها كالعبد الذليل فعاد الى مضربهِ سكران بخمرتين خمرة الظفر وخمرة العنب فخيّل لهُ انهُ راكب على جوادهِ والفرسان تتسابق بين يديهِ فجعل يضرب يمنةً ويسرةً كأنهُ يجندل الاقران ويصيح مرةً بعد اخرى ثم يضحك حتى يستلقي على ظهرهِ ويقوم ويسير مهرولاً

طالباً الخروج من المضرب فيمسك بهِ عبدهُ ويردهُ الى مكانهِ واذا اكثر من الجلبة والعربدة اتت زوجتهُ اليهِ وتهددتهُ فيضحك لها اولاً ويحاول القبض عليها ثم يقول لها انا الفارس المغوار انا قاهر عرب الفضل هه هه من انتِ حتى تقفي في طريقي تعالي يا حبيبتي هه هه أَلا تأتين اذهبي عني يا لكاع اغربي من وجهي لا بدَّ ما اطلقك وآخذ الاميرة هند لا لا بل الاميرة سلمى هه هه اين الاميرة سلمى اذهب يا لعين وائتني بها اذهب والاَّ قطعت رأسك بهذا السيف . ثم يلوح بيدهِ كمن يستلُّ سيفاً من غمدهِ

ولم يهتم الخدم بسكرهِ لانهم كانوا معتادين ان يروهُ سكران اما زوجتهُ فخافت ان يسمع احد من الاميرات الاسيرات صوتهُ وحاولت وضعهُ في فراشهِ فدفعها عنهُ واراد الخروج لكن السكر كان قد اضعفهُ فتغلبت عليهِ هي والعبد واجلساهُ على فراشهِ ولم يعد يستطيع القيام لكنهُ بقي يعربد ويهذي ساعةً من الزمان ثم جاشت نفسهُ فاستفرغ بعض ما في معدتهِ وانطرح في فراشهِ كالميت الى ان اصبح الصباح

الفصل الرابع والثلاثون

التزلف والنفور

الاميرة هند وابنتها وولداها في خيمة سوداء من الشعر مرفوعة العماد مبطَّنة بشقق الحرير الدمشقي المخطط بالاصفر والازرق وهي جالسة على اريكة متكئة على مسند عابسة الوجه مقطبة الجبين والسيكارة في يدها والامير حسَّان واقف امامها يكلمها بصوت منخفض ويسترق اللحظ الى الاميرة سلمى وهي جالسة الى جانب امها مستندة الى مسند آخر لكنها صامتة لا تتكلم وحاول الامير حسَّان جهدهُ لكي يصلح منطقهُ حتى يكون بلغة مفهومة لدى الاميرة هند فقال لقد ابنت لحضرتك اننا لم نقصدك انتِ واولادك بسوء على الاطلاق ولم يكن لنا غرض الأَ عرب الفضل لاخذ الثار وكشف العار وانتم آل شهاب من العرب الكرام الذين يعرفون عادات القبائل ولا يرضون لنا بمذلة اذا امكننا ان نرفعها عنا

الاميرة هند — انا لا اجادلك في ذلك ولا اقول لك ان لا تأْخذ بثارك من اعدائك ولكن كان في امكانك ان تخبرنا حتى نرحل عن عرب الفضل او ان تخبر رجالك لكي لا يمسونا بمكروه ولا يحملوا اليك بنات شهاب سبايا كما حملونا ما هذا ظني بك يا امير ولا تستطيع ان تعتذر بانك لم تكن تعلم اننا نازلون على الامير عمر لانني ارى انكم تعلمون كل شيء في هذه البلاد فقال لا انكر عليك انني كنت عالماً بنزولكم على عرب الفضل وكنت احسدهم على هذا

الشرف ولكن لم يخطر ببالي اننا نفوز عليهم هذا الفوز المبين وغاية ما كنت اتوقعهُ ان نأْخذ بثارنا منهم ونستاق بعض ماشيتهم غنيمة اما الوصول الى مضاربهم وسبي من فيها فلم نكن لنطمع بهِ والظاهر ان وجودك في مضاربهم غلّ ايديهم وافسد تدابيرهم ولولا ذلك لناوشونا الى ان نبعد عن حماهم · واميرهم بطل مجرّب ولكن خانتهُ الاقدار هذه النوبة لانهُ ظلمنا هو وقومهُ والله لا ينصر القوم الظالمين

الاميرة هند — والآن على اي شيء عوّلت

الامير حسان — على الذي تريدينهُ فان شئتِ ان تبقوا عندنا فعلى الرحب والسعة ونحن ندافع عنكِ وعن اولادك بسيوفنا ورماحنا ونبذل جهدنا في مرضاتكم ومسرتكم وان شئتم ان نرحل بكم الى مكان آخر رحلنا واينما ذهبنا فكلنا في خدمتك وخدمة اولادك وغاية ما نتمناهُ رضاؤُك ورضاء الاميرة سلمى . قال ذلك ونظر اليها

وكان واقفاً ويدهُ اليسرى على مقبض سيفهِ ويدهُ اليمنى مطلقة يشير بها حينما يتكلم وهو كهل في نحو الاربعين من العمر قصير القامة اسود الشعر اسمر الوجه برّاق العينين خفيف اللحية عصبي المزاج

فقالت الاميرة هند لماذا تكلمنا وانت واقف مع اننا اسراك ولماذا لا تجلس وتستريح

فرفع يدهُ الى رأْسهِ وقال العفو يامولاتي بل انا اسيركم ولكن ما دمتِ قد امرتني بالجلوس فانا اجلس اطاعة للامر

ثم جلس مكانهُ متربعاً ووضع سيفهُ على حضنهِ ونادى خادمهُ فاتاهُ بشبق قصير فمهُ من الكهرباء وماسورتهُ من الكرز فمصّ منهُ مصتين واتاهم خادم آخر بالقهوة فقدمها للاميرة هند اولاً ثم للاميرة سلمى واخويها فتناولتها الاميرة هند منهُ واما الاميرة سلمى فاعتذرت عن شربها وكذلك اعتذر اخواها

ولما شربت الاميرة هند بعض فنجانها قالت لهُ يا حبذا لو كنت توصلنا الى الشام (دمشق)

فنظر اليها مستغرباً وقال الم يبلغكم ما حدث في الشام فقد حدث فيها اكثر مما حدث في حاصبيا

فلما سمعت هذا الكلام صرخت قائلة ماذا تقول اقتلوا نصارى الشام ايضاً . وارتجفت يدها ووقع الفنجان منها وضربت بيدها على المسند وقالت قلت لاحمد ان هذا العمل كلهُ بدسيسة والغرض منهُ قتل كل النصارى فلم يصدقني

ثم القت رأْسها على يدها وقالت الله يجازيهم الله يجازي الذي كان السبب ما هذه

المصيبة ما هذه البليَّة اين اهلي الآن اين اخوتي واخواتي واولاد عمي واولاد خالي

وقالت لهُ الاميرة سلمى هل انتم على يقين من صحة هذا الخبر

فقال نعم وقد سمعتهُ من اكثر من واحد من الذين كانوا هناك وقد ارسل الينا والي دمشق لنزحف مع دروز حوران على جبل لبنان فلم اشأ ان افعل ذلك لان الدروز اعداؤُنا ولا اركن اليهم . ولم افهم ما هو غرض الوالي من ذلك ولا كيف استحلَّ قتل الآمنين في دار الولاية نفسها . ونحن نشكر الله لاننا في هذا القفر مستغنون عن الشام وعن النزول اليها . وبلادنا الآن قاحلة لاننا في فصل الخريف ولكن متى جاء الربيع تجدينها من جنان الخلد وسترينها في ذلك الفصل ان شاء الله

قال ذلك موجهاً كلامهُ الى الاميرة سلمى

فقالت لهُ انبقى هنا الى الربيع لا سمح الله . ثم كيف تقيمون في هذه الخيام وقت المطر

فقال ان المطر لا يخرق الخيام ولا سيما اذا كانت محكمة النسج مثل هذه الخيمة . وفصل الشتاء عندنا من ابدع الفصول وسترينهُ ان شاء الله وقد سمعت انكِ تحبين ركوب الخيل فخيلي كلها تحت امركِ وامر اخويكِ وعندي مهرة بيضاء تنجلي كالعروس

ثم صفَّق بيديهِ فدخل عبد اسود فقال لهُ هات غزالة ياشيبوب لتراها الاميرة سلمى . فذهب وبعد دقائق قليلة عاد يقود مهرةً كالريم وقال لها هذه المهرة لا يعلو ظهرها احد غيركِ وهي وديعة كالحمل وسريعة كالنعامة

فشكرتهُ وقالت في نفسها لعل لهُ ابنة من عمري اركب معها . وكانت قد رأت نساءً كثيرات في المضارب وعرفت ان واحدةً منهنَّ زوجتهُ ولكنها لم ترَ لهُ اولاداً وحقيقة امرهِ انهُ كان قد تزوج بابنة عمهِ وولد لهُ منها ولدان ماتا بالجدري ولم يرزق غيرهما ثم طلقها وتزوج كثيرات غيرها وكان كلما سمع بابنة حسناء يخطبها الى ابيها ثم لا يلبث ان يكرهها ويطلقها وعُرِف بهذا الخلق حتى كان العرب يخفون بناتهم عنهُ . فلما وقعت الاميرة سلمى في اسرهِ لم يشكَّ احد في انهُ يتزوج بها حالاً رضيت بذلك او لم ترضَ . اما هو فهابها في اول الامر وخشي ان ينظر اليها كما ينظر الى غيرها من بنات قبيلتهِ ولكنهُ لما جالسها وسمع حديثها سوَّلت لهُ نفسهُ ان يخطبها الى امها وابت عليهِ عادات قومهِ ان يخاطبها في ذلك قبل ان يريها ضروب الكرم . وكان لهُ نديم ربي معهُ وشاركهُ في كل طرق الفساد فاطلعهُ على مرامهِ فسهلهُ لهُ قائلاً انها اسيرتك وليس لها ملجأٌ غيرك ويستحيل عليها ان ترفض طلبك .

وجاء الرسل من قبل الامير عمر الفضل طالبين فك الاسرى واخبروا الامير حساناً ان

الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي . فهاله الخبر لكنه لم يصدقه وسأل الاميرة هند عن حقيقتهِ فاستغربت ذلك ولم تسأله عمن اخبره بهِ بل قالت له انها غير مخطوبة لاحد . فسرّي عنه واستدعى الرسل وقال لهم انه يرد ام الامير عمر اليهِ ان هو افتداها بمئة ناقة ومئتي جمل واما الاميرة هند واولادها فليسوا اسرى بل هم ضيوف عليهِ وقد انزلهم على الرحب والسعة وهو اولى منه بحمايتهم وسيبقون في حماه الى ان يسكن الاضطراب في جبل لبنان ثم يردهم الى بلادهم آمنين . وكان معه رجال من شيوخ قبيلتهِ فاشاروا عليهِ ان يرد ام الامير عمر اليهِ حالاً حسماً لاسباب النزاع وان ما غنموه من الماشية يكفي بدل ما فقده تجارهم فاستصوب رأيهم ونادى الرسل وقال لهم " هوذا ام الامير عمر نخذوها لا فداء ولا فكاك لكي تعلموا اننا اكرم منكم وان ليس غرضنا العداء وانما الاخذ بالثار ورد ما سلبتموه من رجالنا " ثم امر لها بهودج وارسل معها جارية لخدمتها . فرأوا ان لا سبيل لهم للاعتراض ولا للادعاء بان الاميرة سلمى مخطوبة لانها هي كذّبت الخبر فعادوا من حيث اتوا

ومرّت الايام والامير حسّان يزيد تودداً الى الاميرة سلمى وهي تزيد منه نفوراً . وقد ظلم الحبّ من سمّى مثل هذا حباً لانه ميل شهواني دنس . وضعفت سلطة زوجتهِ عليهِ بازدياد شغفهِ بالاميرة سلمى فصار يتهددها بالطلاق كلما لامته . واسقط في يد الاميرة هند ولم تعلم كيف تنجو من هذه البليّة اما ولداها فاخذتهما الغيرة والانفة وعزما على الفتك بهِ ان لم يرعوِ عن غيهِ . ولازمت الاميرة سلمى خيمة امها ولم تعد تخرج منها وقلّ اكلها فنحلت وذبلت ومرّت الايام والشهور وهي تزيد سقماً ونحولاً وذلك الطاغية يزيد جرأة وقحة واخيراً اتفق مع نديمهِ على ان يبعد الاميرة سلمى عن امها وينقلها الى خيمة بعيدة ويحضر الشيخ ويكتب كتابه عليها غصباً . فاحتال النديم عليها ذات يوم واحتملها هو وغلمانه وساروا بها خلسة الى تلك الخيمة فركضت امها حافية حاسرة الى خيمة ولديها وهي تلطم وتنوح فاختطف احدهما سيفاً والآخر هراوة واسرعا وراء اختهما فلاقاهما الامير حسان ورجاله وقبضوا عليهما واعتقلوهما وجاء الشيخ ليكتب كتاب الاميرة سلمى فسأل من وليّ امرها ففطنت الى قولهِ وقالت انا ولية امر نفسي ولا اريد الاقتران بهذا الرجل مطلقاً قالت ذلك وهي لا تدري كيف اتتها القوة لتنطق بهذا القول لشدّة ما حلّ بها من الجزع ولكن النفوس الكبيرة يظهر مضاؤها في المكاره . فقال الشيخ اذن لا استطيع ان اكتب كتابها . والظاهر ان الامير حساناً لم يكون يتوقع هذا السؤال فوقف مبهوتاً لا يدري ماذا يفعل فاشار اليهِ نديمه وانفرد بهِ وقال له ليس لك الآن ان تذلها هي وامها حتى تصغر نفساها وتضطر ان تفتدي امها

بنفسها فقال اصبتَ . وامر ان تخرجا من خيمتها وتنقلا الى خيمة صغيرة وتقدّم لهما لوازم الطعام فقط وتجبرا على اعدادهِ بايديهما من عجن وخبز وطبخ واقام عليهما الجواسيس وابقى الولدين بعيدين عنهما

الفصل الخامس والثلاثون

الاحتفال في الحرش

اشرقت الغزالة وانتشرت اشعتها على ساحل بيروت فتململ ندى الليل من حرها وتجمعت نقطهُ على اوراق القلقاس كالدر وانبسطت على اوراق التوت كاغشية الحرير ثم ركبت متن الهواء وطارت الى اعالي الفضاء فغطى الضباب تلك الهضاب ساعة من الزمان ثم تقشع عنها وصفا اديم الارض ووجه السماء وجفت الرمال الاَّ حيث وقع عليها ظل الصنوبر ثم امتدَّ الجفاف اليها كلها وعلا صرير الصراصير

ما هذه النصُب العالية وما هذا الشعاع الذي يزري بشمس الضحى · دكة تعلوها قبة فوقها نصب يناطح السحاب وفي وجههِ سيوف منظومة بعضها مع بعض كالشعاع المنتشر من كوكب دريّ حولهُ اكاليل الازهار وشعار الامة الفرنسوية واعلامها منتشرة ومجموعة على اشكال شتى تأخذ بالابصار رونقاً وبهاء

وما هذه الاطناب النازلة من اعلى القبة كاعمدة الصبح وقد التفَّت عليها اكاليل الازهار والرياحين وامتدت كالهواجر الى ابعاد شاسعة

الميدان واسع بين الصنوبر والبساتين في ضاحية بيروت تستعرض فيهِ الوف الجنود من عهد ابرهيم باشا ومن قبل عهدهِ وهو الآن مزدحم مكتظ ترمي فيهِ الرمل فيقع على رؤُوس الناس الاَّ في دائرة كبيرة حول الدكة والنصب تركت فراغاً للولاة والقواد ورؤَساء خدمة الدين واعيان المدينة وامامها مركبات المدافع والخيول مقرونة بها والجنود وضباطهم بافخر الملابس والحلل

بُمْ بُمْ بُمْ شهُب تلمع ورعد يصقع والناس يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت

بُمْ بُمْ بُمْ ارتفعت اعمدة الدخان وسردقت فوق تلك الجماهير فحجبت عنها اشعة الهاجرة · ثم صمت كل صوت وسكن كل متحرك وتقشع الدخان وظهر على الدكة تحت القبة حبر جليل القدر بحلتهِ الحبرية حولهُ لفيف من الكهنة يسبح الله بالحان شجيَّة وتحتهُ رؤَساء الانام بملابسهم الرسمية ثياب مقصبة ونياشين تتألق في الصدور · وربات الجمال بالحلى والحلل

خصور كالخواتم ووجوه كالبدور وقد افرطنَ في توسيع اردانهنَ واذيالهنَّ فوقفن كالابراج المستديرة تبتدئ بدائرة لايقل قطرها عن الباع ثم تستدق رويداً رويداً الى ان تنتهي بخصر يصح فيهِ قول من قال

تكاد لهضم الكشح تجعل عقدها نطاقاً كما يستبدلُ المثل بالمثلِ

وحولهم الجنود من الفرسان والمشاة ستة آلاف من رجال فرنسا ونخبة شبانها ووراءهم جمهور لايحصى عددهُ من الرجال والنساء والاولاد يموج كالبحر الزاخر

خشعت الابصار واشرأبَّت الاعناق الى ان انتهى الكهنة من الصلاة والترتيل فعزفت الموسيقى بالسلام السلطاني ثم بالسلام الامبراطوري وعادت المدافع الى الدوي وتلتها الحركات الحربيَّة . فسار المشاة صفوفاً وانتظموا قلعة كبيرة المدافع والمهمات في وسطها والفرسان وراءها وصدرت الاوامر من القوَّاد فاطلقت البنادق طلقات متوالية يتخللها اطلاق المدافع وسردق الدخان ثانية فحجب الشمس واستظلت الجماهير بظلهِ

دام الاحتفال ثلاث ساعات كانها ثلاث دقائق والموسيقى تعزف والجنود تهتف والمدافع تقصف واهالي بيروت ينظرون مدهوشين يزحم بعضهم بعضاً ولا يتنفسون الهواء الاَّ من فوق رؤُوسهم

ثلاث ساعات دام الاحتفال سبقتها ثلاث ساعات ازدحمت فيها الجماهير وتلتها ثلاث ساعات حتى انحل عقدهم وانفضَّ جمعهم . النهار كلهُ من الضحى الى الاصيل والناس مزدحمون لا طعام ولا شراب بل بعضهم جاء قبل الشمس ولم يستطع ان يعود الاَّ بعد مغيبها ولولا باعة الكعك وسقاة السوس لضاقت النفوس من الجوع والعطش اما كبراء القوم فقدم لهم افخر انواع الطعام والشراب

ولكن هل كان الوالي اطيب نفساً من ساقي السوس وهل كانت زوجة الجنرال اطلق وجها من بيَّاعة اللبن . هل كان احد من المجتمعين في الدائرة الوسطى من الحكام والقواد والاحبار والتجار والشرفاء والاغنياء الذين اكلوا حلواء باريس وشربوا خمر شمبانيا هل كان احد منهم انعم بالاً من المزدحمين حول تلك الدائرة من اهالي بيروت والقرى المجاورة . قال احد الفضلاء ان في كل متر مربع من اكواخ الفقراء فرحاً وسروراً اضعاف اضعاف ما في كل متر مربع من قصور الاغنياء . ايطاليا افقر ممالك اوربا ولكنك لا تجد غناء وطرباً في مملكة اخرى كما تجد فيها . واسبانيا تتلوها في الفقر ولكن سكانها يرقصون ويطربون اكثر من سكان انكلترا وفرنسا

والذين شاهدوا ذلك الاحتفال من اهالي بيروت وضواحيها حسبوا ان الجنود الفرنسوية احتلَّت سورية ولن تخرج منها فتمت امنيَّة فرنسا التي تمنتها من زمن حروب الصليب وامنية فريق كبير من سكان سورية . ومضت الشهور والجنود تزيد تودداً الى الاهالي والاهالي لا يجدون سبباً للشكوى بل لم يجدوا الاَّ كل ما يستحق الشكر اذ كثرت الاموال وراجت الاعمال وشيدت المباني الفخيمة في بيروت وساعدت العساكر اهالي لبنان في بناء بيوتهم المحروقة

كان مارون ونقولا التاجران قد اشتريا بساتين كثيرة في سقي بيروت واراضي فسيحة في المدينة فربحا ربحاً وافراً بارتفاع اثمانها وبغلاء سعر الحرير ولم يكن نصيب غنطوس السمسار وعبد الله الوكيل قليلاً . ورأى الخواجه بخور والخواجه شمعون ان ابتياع الاملاك اربح من تديين النقود فعضا اصابعهما ندامةً على فوات الفرص وبادرا الى مشترى ما يمكن مشتراهُ من الاراضي التي قرب ساحة السمك اذ بلغهما ان المدينة ستمتد من تلك الجهة

واجتمع جماعة من الوجوه في بيت كبير من كبراء بيروت وكان الشيخ درويش ابو نخر معهم اتى من غير دعوة شأن كل فضولي . ودار البحث على الاحوال الحاضرة بعد ما قتلَ فؤاد باشا والي دمشق وكثيرين من المأمورين والضباط واعتقل والي بيروت . فقال واحد من الحضور ان الافرنج رشوا الوزير حتى فعل هذا الفعل المنكر وقال آخر بل انهُ فعل ذلك باوامر من اسطنبول لكي يسكت دول اوربا . وكان بين الحضور رجل دمشقي اتى حديثاً من دمشق وشهد ما حدث فيها فقال لهم ان الوزير لم يفعل عشر معشار ما يطلب منهُ فانا قد شاهدت كل ما حدث في الشام ولولا لطف المولى وشهامة الامير عبد القادر ما ابقوا احداً والعملية مدبَّرة من اسطنبول اعترفنا بذلك او لم نعترف ولا اقول ان القصد قتل هذا المقدار من الاهالي بل ايقاظ الفتنة لكي تتداخل دول اوربا على ما قال لي احد العارفين بدخائل الامر والظاهر ان اصحابنا لا يهمهم خربت الدنيا او عمرت اذا كان لهم غرض سياسي

فقال لهُ آخر وما هو هذا الغرض السياسي هل يريدون ان يسلموا البلاد للافرنج قبَّحهم الله وقبح سياستهم فانها كلها نفاق بنفاق

وقال الشيخ درويش الحق في يد الشيخ مصطفى فاني انا سمعت الوالي يقول لمشايخ الدروز انهُ يساعدهم ويحميهم . ولما زارني في رمضان الماضي قال لي يا ابا نخر يجب ان تجتهد وتستميل الامير احمد رسلان . فعملت كل واسطة معهُ والمسأله مدبرة كما قال الشيخ مصطفى ولكن ما عمرهُ خطر ببالي انها تطلع في الآخر من راس الوالي ويلقى كل اللوم عليهِ

فقال الشيخ مصطفى حبسوهُ يومين على عيون الناس وبعدها يفرج عنهُ

فقال الشيخ درويش ولكن والي الشام قتلوهُ

فقال الشيخ مصطفى قتلوهُ لانهُ كان عندهُ اوراق فيها اوامر سرية وتهددهم بها فقتلوهُ حتى يخفوا الخبر انا لا احط بذمتي ولكن الاشاعة مالئة الدنيا ويقول البعض انهم رأَوا الاوامر بعيونهم

فقال آخر ما قولكم الآن هل تبقى العساكر الفرنسويَّة هنا

فاجابهُ ابو نخر لا احد يخرجها الاَّ الانكليز مثل ما اخرجوا بونابارته من عكا . وقواس قنصل الانكليز صاحبي وهو يمر يشرب عندي قهوة كل يوم وقال لي من يومين ان العسكر الفرنسوي دخل على هذا الشرط انهُ يبقى حتى تصطلح الاحوال ثم يخرج وهو سمع هذا الكلام من الترجمان والترجمان صاحبي ايضاً من زمان طويل ولو سأَلتهُ لكان خبرني

الشيخ مصطفى — الله لا يحكِّم الافرنج فينا ولكن الحق اولى ان يقال من حين ما اتوا الى هنا راجت الاشغال واصطلحت احوال الحكومة واذا فرضنا بقاء الفرنسوية هنا وعفونا من العسكرية كما تعفي الدولة النصارى كان ذلك افضل لنا

فاجابهُ الشيخ درويش ان الفرنسويين لا يعفون احداً اما رأَيت عساكر المغاربة وانا قد تصادقت مع كثيرين منهم وزاروني في بيتي فعرفت منهم ان الفرنسوية تأْخذ العساكر من الجميع

وبعد اخذ وعطاء على هذا النمط قرَّ قرارهم على ان لا يحركوا ساكناً وعلى ان يوصوا الجميع بالتزام السكينة الى ان يروا ما يحدث في الاستانة لان بعضهم كانوا يتوقعون حدوث امر ذي بال فيها

الفصل الخامس والثلاثون

مؤْتمر بيروت

اجتمع معتمدو الدول الست الموقعات على عهدة باريس اجتمعوا في مدينة بيروت للنظر في حوادث لبنان وغرضهم البحث عن الجانين وعقابهم والتعويض على المجني عليهم وانشاء حكومة للجبل يؤْمن معها حدوث ما حدث . ورأَى المؤْتمر ان يقدَّم الاهم على المهم فنظر اولاً في مسأَلة التعويض لان الشتاء كان على الابواب واراد ان يُعطي اولئك المساكين ما يسدون بهِ جوعهم ويكسو عريهم ويساعدهم على بناء بيوتهم اذا ارادوا العودة اليها . وانتقل بهيئتهِ الى دمشق ورأَى ما حلَّ بها من الدمار وقدَّر الخسائر بثلاثة ملايين من الجنيهات وبعد بحث طويل واهتمام الوزير بتقليل التعويض المطلوب الى اقل ما يمكن الوصول اليهِ عيَّن مقدارهُ وقيل انهُ قيمة المسلوبات او ما يراد ردهُ منها وكتبت القوائم في ذلك ولكنها

كانت مأْكلاً لاهل الطمع ولم يصل الى الفقير منها الاَّ شيء لا يذكر. وقد طُبع الناس على الظلم حتى وهم متساوون فيهِ وراسفون في قيودهِ يظلم بعضهم بعضاً. خُلق في الانسان موروث من الحيوان لا يفلت منهُ الاَّ قليلون. وكم من مرة وقفت ارملة مسكينة وطفلها على ذراعها امام بيت رجل كبير من اهالي بلدها تطلب منهُ ان يحنَّ عليها بجزء مما يُسمح بهِ لها من مسلوباتها وهو ينتهرها ويقول لها لم اقبض شيئًا او هذا كل ما سمحوا لك بهِ ويعطيها ربع ما اخذ. ومما زاد الطين بلة ان المسلوبات قُسّطت اقساطاً وأُعطيت بها سندات فجعل الصرَّافون يشترونها من اصحابها باقل من قيمتها فقلَّ ما نال اصحابها منها

ولما انقضى البحث في مسأَلة التعويض انتقل اعضاء المؤتمر الى البحث في المسأَلة الاولى اي عقاب المجرمين فطلب فؤاد باشا من رؤساء النصارى ان يكتبوا اسماء كل الذين يعلمون انهم ارتكبوا الجرائم. فارتكبوا الشطط حتى صار اعضاء المؤتمر عليهم بعد ان كانوا معهم فاضطروا ان يعدّلوا طلبهم وما زالوا يعدلون واعضاء المؤتمر يطلبون المزيد في التعديل الى ان انحصر الطلب في نفر قليل من اعيان الدروز فقبض عليهم واودعوا السجن وفي جملتهم الامير احمد ارسلان

وعاد المؤتمر الى النظر في الامر الثالث وهو انشاء حكومة منظمة في جبل لبنان يؤْمن بها العودة الى مثل ما حدث فيهِ فبحث في هذا الموضوع طويلاً وقرَّر اعضاؤُهُ بعد النظر والروية ان يتولَّى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختارهُ الدولة العلية بالاتفاق مع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا ويساعدهُ مجلس ادارة ينتخب اعضاءهُ سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية وقرروا سنَّ دستور لادارة الجبل على غاية الدقَّة وفرضت المساواة التامة بين جميع سكانهِ وانتهت جلسات المؤتمر في اوائل شهر مارس

الفصل السابع والثلاثون

النجاة من السجن

هذا يومك يا مسرور سيدك في السجن واخاف ان يقتلوهُ لا لانهُ مجرم مثل غيرهِ بل لانهُ كان يتردَّد على قنصل الانكليز فلا بد لك من تخليصهِ وقد عرضنا الامر للقنصل فوعدنا خيرًا وهو صادق في وعدهِ ولست خائفة منهُ بل من اولاد الحرام ان يغدروا باحمد نخذ ما شئت . هذه عشرة آلاف غرش خذها وبرطل بها السجان او برطل من تريد واذا ما كفت نخذ غيرها لحد مئة الف غرش وانا اعتمادي عليك بعد الله ولا تخبر احدًا على

الاطلاق بل دبّر كل شيء وحدك ولكن لا بد من العجلة لاني خائفة جدًّا ان تضيع الفرصة علينا · آه يا ربي ما هذه المصيبة من اين اتتنا هذه البليَّة · قلت لهُ الف مرة مالك ولهذه الاجتماعات قلت لهُ انزل بنا الى بيروت وخلصنا من اولاد عمك ومن مشايخ العقل قلت لهُ امشِ مع قنصل الانكليز مثل ما مشى المرحوم والدك فما سمع مني · الله يجازي الذين كانوا السبب الله يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوت الناس · قم يا مسرور وخذ ما شئت ولا تدعني ارى وجهك الاَّ واحمد معك (قالت ام الامير احمد هذا القول والدمع ملء عينيها)

فقام مسرور ووضع نصف النقود في كمرهِ ونصفها في كيسهِ وهي مئة ليرة فرنسوية وركب الى بيت الدين حيث كان امراء الدروز ومشايخهم مسجونين وجعل يتردَّد على السجان ويشرب معهُ الدخان ولما استوثق منهُ اعطاهُ عشرين ليرة فجحظت عينا الرجل لانهُ لم يرَ في حياتهِ نصف هذا المبلغ في يدهِ واتفقا على ان يسكرا الخفراء لانهُ خاف ان يرشوهم فلا يكتموا السر كلهم واشترى مبردًا كبيرًا من بيطار واحضرهُ الى السجان فاوصلهُ الى الامير احمد لكي يقطع بهِ القيود من رجليهِ وانتظروا الى ان كانت ليلة مظلمة من ليالي المحاق تلبدت الغيوم في سمائها وحجبت نجومها فدخل السجان واخرج الامير احمد وسار بهِ الهوينا الى ان وصلا الى الباب الخارجي فوجدا الخفراء قد استيقظوا واوقدوا نارًا اضاءت ما حولهم فعاد بهِ من حيث اتى وجاء مسرور في الصباح فاخبرهُ السجان بما جرى · ووصل الى مأمور السجن في ذلك اليوم كتاب من غير امضاء يقال فيهِ ان احد الامراء المسجونين عازم على الفرار فتعهّد ابواب السجن واقفلها بنفسهِ وضاعف عدد الخفراء

واجتمع مسرور بالسجان فاخبرهُ السجان بما حدث فعزم ان يذهب الى المأمور ويرشوهُ ولكنهُ لم يجد اليهِ سبيلاً فعاد يفكر في الامر فلم يجد اسلم من ان يقيم مقام الامير احمد فرجع الى الشويفات واحضر عبدًا آخر من عبيد مولاهُ وصباغًا اسود واتى بهِ الى السجان ليعطيهُ للامير احمد حتى يصبغ بهِ وجههُ ويديهِ

فتمت الحيلة ووضع مسرور القيود في يديهِ ورجليهِ بدل مولاهُ وخرج الامير احمد من السجن وسار مع عبدهِ الآخر وجعلا يسريان ليلاً ويختفيان نهارًا الى ان وصلا بلاد بشارة واختفيا عند الشيخ نصار احد مشايخها ومرَّت ثلاثة ايام ومسرور يدَّعي انهُ مريض في سجنهِ لا يخرج منهُ واخيرًا دخل المأمور يفتقد المسجونين فرأى العبد مسرورًا بدل الامير احمد وشاع الخبر حالاً في بيت الدين وقامت لهُ البلاد وقعدت وقبض على السجان واودع السجن وتحدث مؤتمر المعتمدين بهذا الامر واصرَّ معتمد فرنسا على معاقبة العبد والسجان والتفتيش عن

الامير احمد ومعاقبتهِ ايضاً وكان فؤاد باشا مؤيداً له ُ وخالفهما لورد دفرن معتمد انكلترا لأن الكولونل روزكان يعتقد براءة الامير احمد ولو لم تكن لديهِ الادلة الكافية على ذلك وقد اعجب بشهامة العبد مسرور كما اعجب بها كل من سمع عنها. وأرسل الرجال للتفتيش عن الامير احمد في كل انحاء الجبل وجهات الولاية ووصل ثلاثة منهم الى قرية الشيخ نصار الذي كان الامير احمد مختفياً فيها وكانوا متنكرين فلما وصلوا الى العين التي يستقي منها نساء القرية جلسوا واخرجوا زادهم وجعلوا يأكلون وطلبوا الماء من النساء ليشربوا فامتنعن لانهن يتنجسن من كل من يشرب من آنيتهن من غير المتاولة واخيراً اتت امرأة من نساء النصارى بجرتها وسقتهم ووقفت تتحدث معهم ووقف غيرها من النساء معها واجتمع بعض الاولاد. فاشارت عليهم احدى النساء ان ينزلوا في المنزول في دار الشيخ نصار فقالت اخرى ان عند الشيخ نصار ضيوفاً فقالت الاولى هؤلاء ليسوا ضيوفاً بل هم امير من امراء جبل لبنان وعبده ُ فاسكتتها الثانية قائلة ان هذا الكلام لا اصل له ُ والتفتت اليها وعضت على شفتها فادرك الرجال حالاً ان ضالتهم المنشودة في بيت الشيخ نصار شيخ تلك القرية لكنهم تجاهلوا ذلك وبقوا في مكانهم الى ان انصرف النساء عنهم وقرّ قرارهم علي ان يعود واحد منهم الى بيروت يخبر بما سمعوا ويبقى اثنان منهم في القرية او ينزلا ضيفين على الشيخ نصار ليراقبا حركات الامير احمد وسكناتهِ

فعاد احدهم وسار الاثنان الباقيان الى دار الشيخ نصار ونزلا في المنزول الذي ينزل فيهِ الضيوف وهو غرفة كبيرة فيها فرش كثيرة يزورها الشيخ كل يوم ليرى النزول فيها ويسألهم عن راحتهم. ويقدم لهم الطعام في اوقاتهِ الثلاثة من غير ان يُسألوا عن غرضهم لكن الشيخ اوجس خيفة لما رآهما فرحب بهما على جاري عادتهِ واخبر الامير احمد بذلك واخرجه ُ في ظلمة الليل من باب سري وارسل معهُ اثنين من خدمهِ ليوصلاه ُ الى حدود بلاد حوران فيصير في بلاد الامان لان حوران ملجأ الدروز وليس للدولة كلمة نافذة فيها

فسار الامير احمد معهما ماشياً على قدميهِ بزي فلاح من فلاحي تلك البلاد الذين يذهبون الى حوران للتعيش فيها ولم يأخذ عبده ُ معهُ لئلاّ يعرف بهِ بل امره ُ بالعودة الى الشويفات ليخبر امهُ بسلامتهِ وبانهُ صار في بلاد الامان. وقد كان معتاداً المشي مسافات طويلة يخرج الى الصيد في الصباح فلا يعود الا بعد الظهر وقد يقضي النهار كله ُ ماشياً على قدميهِ يصعد في التلال وينزل الى الاودية ولا يشكو تعباً لا لانهُ لا يتعب من المشي بل لان خفة روحهِ كانت تنسيهِ التعب اما الآن فكان الهم قد انهك قواه ُ واشتد لومهُ لنفسهِ

لانهُ ما فعل حسب مشورة امهِ وانتقل الى بيروت وانقطع عن مجاراة قومهِ لا سيما وانهُ كان يعتقد انهم مخطئون في عملهم وكانت صورة ابنة خالتهِ الاميرة سلمى لا تزال امام عينيهِ وقد انقطعت اخبارها عنهُ بعد ان رحل بها ابوها عن حاصبيا ووصلهُ نعيهُ ولكنهُ لم يصلهُ من مصدر يوثق بهِ ولا كتبت اليهِ خالتهُ في هذا الشان . ورأى المستقبل كلهُ مظلماً امام عينيهِ فجلس على عين ماء في ظل صخر وغسل يديهِ ووجههُ وكان التعب قد اخذ منهُ كل مأخذ فاتكأَ على الصخر وران سلطان الكرى على جفنيهِ وحلم انهُ وصل الى بلاد حوران فاحلهُ شيخها على الرحب والسعة وصار يركب مع قومهِ ويغزو العرب المجاورين لهم فوقع في ايديهم اسيرًا ووضعوا القيود في يديهِ ورجليهِ وضيَّقوا خناقهُ ورأى الاميرة سلمى وهو على تلك الحالة فاذا هي مع الجواري تحلب البقر وعليها ثياب اسمال وسيدتها تشتمها وتضربها فهبَّ لكي ينقذها منها ونسي قيودهُ وسلاسلهُ فوقع واصاب جبينهُ الصخر فشدخهُ فنهض من نومهِ والدم ينزف من جبهتهِ فقال هو حلم ولكن ما اقبحهُ وعاد يغسل جبينهُ الى ان انقطع الدم

شمعون — قللوا التعويضات حتى لم يبقَ منها شيءٌ يذكر . قدَّروا تعويضات الشام بثلاثمئة الف كيس وانزلوها الى مئة وخمسين الفًا والآن مراد الوزير ان ينزلها الى خمسة وسبعين الفًا فما عادت تحرز

بخور — ان الدولة لا تدفع نقودًا بل تعطي سندات عليها بالمبالغ التي يلزم دفعها ويمكننا ان نشتري هذه السندات باقل من ثمنها الاصلي عشرين او ثلاثين في المئة وهذا باب واسع للربح يجب ان لا نتغاضى عنهُ

شمعون — كلاَّ وليس لنا مناظر الآن فيهِ ولكن بلغني ان مرادهم ان يفتشوا عن المسلوبات كلها ويستردوها فماذا فعل يوسف بالصيني الذي اشتراهُ وبسائر الامتعة المنهوبة

بخور — صرَّف بعضها وارسل البعض الآخر الى مصر وهي مطلوبة هناك

شمعون — لقد احسن في ما فعل لانهُ بلغني ان القناصل والمعتمدين يشددون لاسترجاع كل المنهوبات . وهل تظن ان العساكر الفرنسوية تبقى هنا

بخور — لا اظن ويظهر من المكاتيب التي اتتني اول امس انهم يرحلون في اوائل الصيف وكانت فرنسا طلبت ان يعين والي الجبل من بيت شهاب ولكن انكلترا اعترضت على ذلك والدولة معها ولا يبعد ان يعين الوالي من الخارج وعلى كل حال الله آبائنا معنا وهو يدبر كل الامور لخيرنا

الفصل الثامن والثلاثون

السلطان عبد العزيز

"ما هذه المدافع يا امي فقد عددتُ منها اكثر من تسعين مدفعاً ولم ابتدئ من الاول" هذا ما قالتهُ فتاة جالسة امام منصبين من الطين فيهما قصب قائم عليهِ قفل من الحرير حسب اتساع الدواليب البلدية التي كان الحرير يحلّ ويلف عليها و بيدها كوفية تكبهُ عليها حتى يصير اقفالاً صغيرةً . وهي في نحو العاشرة من عمرها وليس في الغرفة التي كانت فيها غير صندوق عليهِ فرش ولحف مطوية وبعض آنية الطبخ من كانون وقدور وصحاف — غرفة حقيرة ولكنها نظيفة لا ترى فيها ذرة غبار ولا رائحة خبيثة بل بالضد من ذلك ترى امامها خميلة فيها الرياحين العطرية والازهار الجميلة الالوان من الريحان والافسنتين والقرنفل والفل والياسمين وقد تضوع ارجها في الغرفة وامتزج بهوائها امتزاج الراح بالماء . وهناك ورد جوري ولكن ازرارهُ تقطف قبلما تفتح لكي يخرج منها ماء الورد فان صاحب البيت بنّاء واجرتهُ كافية لمعيشة بيتهِ ولا سيما في ذلك الوقت اذ ارتفعت الاجور لكثرة المباني التي كانت تبنى بمال الاحسان تشغيلاً للناس ولكنهُ كان يتقاضاها يوم السبت ويسكر بها يوم الاحد و يقضي يوم الاثنين نائماً من اثر السكر وهذا دأبهُ فتضطر زوجتهُ ان تسلك الحرير وتخرج ماء الورد لمعيشة بيتها وكانت تكتسب هي وابنتها ما يكفيهم

فقالت لها امها سمعت المدافع وانا آتية وسمعت الناس يقولون انهُ مات السلطان عبد المجيد . والتقيت بالخوري عند مدخل البستان فبست يدهُ وسألتهُ عن الخبر فقال انهُ صحيح وقد سمعهُ في البطركخانة ولكنهُ طمن بالي

فنظرت الابنة الى امها مدهوشة وقالت "مات السلطان" وحاولت ان تدرك معنى هذا الكلام فلم تدركهُ فانها تذكرت ايام الخوف الماضية حينما قُتل رجل واحد وكيف انها هربت مع امها واخوتها الى بيت خالها وتأخر ابوها عن الرجوع الى نصف الليل فقلقوا عليهِ . لكنها فهمت من قول امها ان الخوري طمنها وقال لها انهُ ليس هناك ما يخشى منهُ . وهو رجل صالح وكل الناس يقبلون يدهُ ويحترمونهُ لكبر سنهِ ولصلاحهِ فصمتت ولم تقل شيئاً ولكنها بقيت تنظر الى امها من وقت الى آخر لترى ما اذا كانت مطمئنة او مضطربة

وسمع كل اهالي بيروت صوت اطلاق المدافع وكان جرجس يكيل ثوباً من القماش لامرأة اشترت منهُ عشر اذرع وهو جالس متربعاً في دكانهِ بسوق البزركان والدكان مرتفعة

عن ارض السوق قدر متر وبابهُ غلقان احدهما يرفع الى اعلى ويسند بعصوين فيصير مثل مظلة فوق الدكان تقي الواقفين امامهُ من الشمس والمطر والآخر ينزل الى اسفل فلا يكاد يصل الى الارض وارتفاع الدكان عن ارض السوق مترًا يقيهِ من السيل الذي يجري في اسواق بيروت كلما اشتد وقوع المطر فيها. فلما سمع اصوات المدافع ارتجفت يداهُ وابطل الكيل ورد الثوب الى مكانهِ وخافت المرأة فسدلت منديلها على وجهها وسارت في طريقها مسرعة واتفق ان مرَّ رجل من التجار الكبار في تلك اللحظة وكان جرجس يعرفهُ فاستوقفهُ وسألهُ عن سبب اطلاق المدافع فاسرَّ في اذنهِ قائلاً مات السلطان عبد المجيد ونصبوا السلطان عبد العزيز. فسألهُ جرجس هل من خوف علينا فرفع التاجر راحتيهِ واشار بشفتيهِ اشارة من يقول لا اعلم ولكن الامر لا يخلو من الخطر. وكانت اعناق اصحاب الدكاكين المجاورة قد تطالت كلها ليسمعوا ما يقولهُ التاجر ولم يكد جرجس يرى اشارتهُ حتى نزل من دكانهِ ونزع الدروندين وانزل الغلق الاعلى ورفع الاسفل واقفل الباب فاقتدى بهِ اكثر اصحاب الدكاكين ولم تكن الاَّ دقائق قليلة حتى لم تعد ترى دكانًا مفتوحًا في تلك السوق واقفل كثيرون دكاكينهم في سائر الاسواق واسرعوا الى بيوتهم وجعل الناس يتكلمون همسًا ولا يجترئ احد ان يرفع صوتهُ كأن آثار الجور والظلم رسخت في نفوسهم رسوخ الطبائع وتوارثوها خلفًا عن سلف فلا يحدث حادث حتى تراهم يذعرون ويهربون الى بيوتهم كأنهُ بفعل عصبي منعكس لا دخل للادارة فيهِ ولا لقوة اخرى من قوى العقل

وكان نساءٌ مسلمات ومسيحيات في مار الياس يفين بنذورهنَّ فذعرن لما سمعنَ اصوات المدافع وجعلنَ يضرعن الى مار الياس او الخضر ليلطف بهنَّ ويقي عيالهنَّ وهنَّ في ذلك سواءٌ كانهنَّ من مذهب واحد لا فارق بينهنَّ

وخرج ابو فخر من بيتهِ ليسأل عن سبب اطلاق المدافع فالتقى بالشيخ مصطفى صاعدًا من المدينة فاخبرهُ بموت السلطان عبد المجيد وتنصيب السلطان عبد العزيز فقال الحمد لله فقد نجانا الله من احتلال الفرنسوية لبلادنا واعطانا سلطانًا لا يفضل الافرنج علينا

فقال لهُ الشيخ مصطفى ومن قال ان السلطان عبد المجيد كان يفضل الافرنج علينا. فاجابهُ الظاهر انك غائب عن البلد ألا تعلم ان كل هذه الحركات والقلاقل مسببة عن ذلك ولكن هذا سر لا يعرفهُ غيري اطلعني عليهِ الوالي لما زارني في رمضان الماضي

والتقى مارون بنقولا وقال لهُ لم نستفد فائدة تذكر من مجيء الفرنسوية ولم نكد نفرح بمجيئهم حتى خرجوا عن آخرهم واخاف ان تهبط اسعار العقارات التي اشتريناها

فقال نقولا من كان يظن ان سياسة الانكليز تغلب سياسة الفرنسويين

فأجابهُ مارون لو عرفت من الاول ان الانكليز غير راضين عن مجيء العساكر الفرنسوية ما كنت خاطرت بقرش واحد لان سياسة الانكليز دائماً غالبة ألا تتذكر ما فعلوهُ بابرهيم باشا فان فرنسا كانت معهُ ولكنهم قوَّموا اوربا كلها عليهِ حتى ألزموهُ ان يخرج من البلاد ويرجع الى مصر

فقال نقولا ومع ذلك لا أرى ان الاسعار هبطت ولا هي مائلة الى الهبوط واسعار الحرير لا تزال في ارتفاع ولا بدَّ ما تصطلح الاحوال في ايام السلطان الجديد

وتذاكر بخور وشمعون في الاحوال الحاضرة فقال شمعون كتب اليَّ ابن خالتي من استانبول ان السلطان الجديد سيستدين اموالاً كثيرة فتروج الاشغال وتكثر المكاسب في زمانهِ . فقال لهُ بخور متى كتب لك ذلك والسلطان لم يجلس الَّا امس . فاجابهُ شمعون انهُ كتب لي مع البوسطة الماضية . ولكن ابن خالتي وكل اصحابنا في فينا وباريس ولندرا كانوا عارفين اميال السلطان عبد العزيز من قبل ان يتولَّى وامور مثل هذه لا تخفى عليهم

واجتمع وكلاء الدولة والعلماء في دار رشيد افندي وهنَّأ بعضهم بعضاً بانفراج الازمة فقد تمَّ كل شيء على ما تمنوا وخرجت الجنود الفرنسوية من بلاد الشام وجلس السلطان عبد العزيز على كرسي السلطنة بعد ان وعدهم المواعيد الوثيقة انهُ يكف ايدي اوربا ولم يتسع نطاق الفتن اكثر مما قدَّروا . واعترض احد العلماء على ذلك بان الجنود اسرفت في ما فعلت فأُجيب انهُ لم يكن في الامكان ان يفعلوا غير ذلك . واجمعوا على تقديم الشكر لفؤاد باشا لنجاحهِ التام في العمل الذي انتدب لهُ

وتلي خطاب الملكة في البارلمنت الانكليزي فاشارت الى وفاة السلطان عبد المجيد وتنصيب السلطان عبد العزيز وذكرت الاول بفضائلهِ واشارت الى اسف الامة الانكليزية عليهِ وذكرت الثاني بما يرجى من النفع منهُ لبلادهِ وشكرت فرنسا على ما أبدتهُ من الغيرة بارسال جنودها الى سورية والى حفظها لوعودها واخراج جنودها منها حالما استتبَّ الامن فيها لئلاَّ تزيد المسألة الشرقية تعقيداً

وأُشير الى سورية في مجلس النواب بفرنسا فاعترض زعيم الراديكاليين على خروج الجنود من سورية بهذه السرعة ولمح الى ارتشاء قائدهم فانتهرهُ رئيس المجلس واشتدَّ الجدال حتى كاد يفضي الى الخصام واخيراً طلب الرئيس الاقتراع على الثقة بالوزارة فكانت الاغلبية لها . واشير الى هذه المسألة في مجلس الشيوخ فلم تلقَ من الاهتمام ما لقيتهُ في مجلس النواب

الفصل التاسع والثلاثون

زيارة الوالي

جلس الكولونل روز في مكتبتهِ وتطلّع من الشباك الشرقي المطل على حديقة المنزل فوقع نظرهُ على اشجار التفاح والخوخ (الدراقن) والرمان وقد كادت اغصانها تتكسر من ثقل حملها ورأى البستاني يجول بينها يتفقد ما يقع منها و يلتقطهُ ورفع نظرهُ الى الجبل فرأى الظلال تمرُّ عليهِ مرَّ السحاب فتذكر العام الماضي حينما كان الدخان مسردقاً عليهِ من احتراق بيوتهِ وشكر الله على انقضاء ايام الشدَّة

وكان فؤاد باشا قد ارسل اليهِ في الصباح يقول انهُ قادم لزيارتهِ عصر ذلك النهار اذا كان مستعدًّا لاستقبالهِ حينئذٍ فجلس الآن في انتظارهِ و بعد هنيهة دخل السر هنري وقال حان الوقت فالتفت الكولونل الى ساعة كبيرة دقاقة قائمة في زاوية الغرفة وقال نعم يصل بعد عشر دقائق وهو يمتاز على غيرهِ من ولاة الاتراك بشدة تدقيقهِ في الوقت . ثم التفت الى السر هنري وقال على ماذا اجمع رأيك

فقال السر هنري لا بدَّ لي من الذهاب بنفسي فقد اتاني كتاب من الامير احمد ارسلان انهُ قائم مع الشيخ اسمعيل الاطرش لمعاونة الامير عمر الفاعور على بني صخر ولا ادري على مَن تدور الدائرة فان الامير حسانًا امير بني صخر فارس مغوار لا يصطلى لهُ بنار والاميرة سلمى في اسرهِ تتجرَّع مرارة الذل فاذا رأى ان لا قبَلَ لهُ بمجارية العرب والدروز رحل بقومهِ جنوبًا او شرقًا وزاد في اذلالها الى ان ترضى بهِ زوجًا لها او تموت حسرةً

فقال الكولونل وكيف تذهب بنفسك اذا كانت الحال على ما ذكرت واي فائدة من ذهابك

السر هنري — يا حبذا لو امكنني ان آخذ فرقةً من الجنود البحارة الذين في البارجة فاني اقدّر كل واحد منهم بمئة من البدو الذين اسلحتهم السيف والرمح او البنادق القديمة ذات الزناد

الكولونل روز — ان ذلك غير ميسور لانهُ لا يجوز لنا ان نرسل جنودًا في بلاد الدولة الّا بقرار دولي خاص . ولا يزال البارلمنت مجتمعاً فاذا سمع الاحرار اننا اخرجنا جنودنا الى البر اقاموا الدنيا واقعدوها متخذين ذلك حجّةً ضد المحافظين لاسقاطهم من الوزارة . ولكن قد نستطيع ان نطلب من الوالي فيعطينا فرقةً من الجنود التركية

السر هنري . وما ادرانا انهم لا ينضمون الى بني صخر فنخرج من شر ونقع في شرين

الكولونل — هذا بعيد الاحتمال لانهم اميل الى الدروز منهم الى البدو وليس لهم مصلحة

خصوصية في الانضمام الى هذا الفريق او ذاك ولا بدَّ ما يفعلون بامر الوالي

فصمت السر هنري وفكَّر في الامر هنيهة ثم قال اظن ان هذا هو الرأي الصواب فنطلب من الوالي مئتي فارس وانا اقوم بنفقاتهم

فقال الكولونل ولا اظن انهُ يمانع اذا ذهب معك عشرة من الجنود البحَّارة لحمايتك

ووصل فؤاد باشا في الميعاد وكان راكبًا جوادًا مطهمًا وامامهُ ووراءهُ كوكبة من الفرسان فلاقاهُ الكولونل الى باب المنزل وتصافحا وسلم على السر هنري مصافحةً لانهُ كان قد رآهُ مرارًا في المخابرات السابقة وجلس الثلاثة في غرفة الاستقبال يدخنون التبغ الجبيلي ويتجاذبون اطراف الحديث باللغة الفرنسوية فابان فؤاد باشا ان مهمتهُ قد انتهت ولا يبعد ان يعود من سورية قريبًا وشكر للكولونل روز وللسر هنري ما ابدياهُ من المساعدة لهُما وحكومتهما . واستطرد الكولونل روز الحديث الى احوال الدروز في جبل حوران واحوال البدو المجاورين لهم . فرآهُ عارفًا بما بينهم من الضغائن وبنشوب الحرب بين عرب الفضل وبني صخر وبانحياز الدروز الى عرب الفضل وحاسبًا ان هذه الحرب ستضعف الفريقين فيسهل كبح جماحهما والتسلُّط عليهما فاخبرهُ الكولونل ان في اسر بني صخر اناسًا يهمُّ السر هنري انقاذهم منهم ويودُّ ان يذهب اليهم بحامية من الجنود العثمانية

فاستحسن فؤاد باشا ذلك وعرض عليهِ خمس مئة فارس يرسلهم مع السر هنري فشكرهُ السر هنري على ذلك وانتقلوا الى الكلام على حكومة لبنان وغرض فرنسا من رد ولايتهِ الى الامراء الشهابيين واعتراض اللورد دفرن على ذلك فابان فؤاد باشا انهُ كان يفضل ان يقسم الجبل الى قسمين يضاف قسم منهما الى ولاية دمشق وقسم الى ولاية بيروت . فبيَّن لهُ الكولونل ان الدول الاوربية لا توافق على ذلك فليس من الحكمة محاولتهُ اما البقاع فلا بأس بضمهِ الى ولاية دمشق لان اكثر سكانهِ من غير المسيحيين

ولما انتهت الزيارة قام فؤاد باشا فوُدّع بما قوبل بهِ من الاكرام

الفصل الاربعون

فصل الخطاب

مرَّ على الامير احمد ايام لم يرَ اشد منها الى ان خرج من حدود الشام ودخل بلاد حوران ولم يكد يصل الى تلك البلاد حتى التقى بجماعة من دروز لبنان فعرفوهُ وساروا بهِ الى الشيخ اسمعيل الاطرش فرحب بهِ واكرم وفادتهُ وانزلهُ في افخر بيوتهِ واقام جماعة من رجالهِ على

خدمتهِ والتفَّ حولهُ كثيرون من دروز الجبل ومشايخهم الذين هربوا من لبنان وكانت عيون الشيخ اسمعيل تتسقط الاخبار وتأتيهِ بها من كل ناحية فلا يجري شيءٌ في دمشق ولا في لبنان ولا في بيروت ولا في بلاد الجولان كلها الاَّ ويأتيهِ خبرهُ وكان لهُ اصدقاء في بيروت يرسلون اليهِ بما يبلغهم من اخبار الاستانة واخبار البلدان الاوربية فيقف على اهم الاخبار السياسية. وقد بلغهُ كل ما حدث في مؤتمر بيروت وما قرَّ عليهِ قرار اعضائهِ من اختيار والٍ مسيحي للجبل من غير طوائفهِ فاخذ يتداول مع الامير احمد في طريقة لارجاع دروز الجبل الى بيوتهم فقرَّ رأيهما على ان الامير احمد يكتب الى قنصل الانكليز الجنرال في بيروت يطلب منهُ ان يتوسط امرهم عند ولاة الامور فكتب اليهِ واخبرهُ عن احوال بلاد حوران وما جاورها

ولما بلغ الامير احمد ما حلَّ بخالتهُ واولادها بعث رسلاً الى الامير حسان امير بني صخر يتودَّد اليهِ ويخبرهُ ان الاميرة هند خالتهُ ويطلب منهُ ان يطلق سبيلها وسبيل اولادها وارسل مع الرسل هدايا فاخرة من منسوجات دمشق واسلحتها. وكان الامير حسان غائباً في بعض مغازيهِ فانتظرهُ الرسل الى ان عاد وقدموا اليهِ الهدايا وسلموهُ كتاب الامير احمد فلم يحفل بهِ ولا قبل الهدايا لان الاميرة هند واولادها كانوا يسمعونهُ مر الكلام فاضطر الرسل ان يعودوا فارغين ثم اوعز الى بعض اعوانهِ فاقتفوا اثرهم وقتلوا واحداً منهم وسلبوا ما معهم فعادوا واخبروا بما جرى لهم فارغى الشيخ اسمعيل وازبد وكتب الى الامير عمر امير عرب الفضل انهُ ينجدهُ بخمس مئة من فرسان حوران اذا قام لمحاربة بني صخر ودارت المراسلة بينهما ثم اجتمع الاثنان واجتمع الامير احمد معهما وقرروا خطة الهجوم

وفي الوقت المعين خرج فرسان الدروز من حوران وواصلوا السير الى ان بلغوا جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر وانزلهم على الرحب والسعة واولم لهم الولائم ثلاثة ايام حسب عادة الضيافة عند العرب وقاموا في اليوم الرابع وساروا اربعة آلاف فارس ومعهم الجمال تحمل الزاد والماء وقصدوا البلقاء وكانت اخبارهم قد وصلت الى الامير حسان فجمع رجالهُ واحلافهُ وخرج للقائهم في سهل فسيح يبعد عن الجبل الذي كان ممتنعاً فيهِ نصف مرحلة

ونام الفريقان تلك الليلة في السهل يفصل بينهما غدير صغير وخرائب مدينة قديمة . نام الخليون واما الشجيُّون فاحيوا الليل بين احلام مرعبة وهواجس مزعجة - الامير حسان متطير من تلك الواقعة لان غراباً مرَّ عن يسارهِ حالما خرج من مضربهِ وزجرهُ فلم يزدجر والشاعر الذي غنَّاهُ بالامس ابتدأ نشيدهُ بقولهِ "يا دار غيَّركِ البلى" واليوم الذي اضطرَّ ان يخرج فيهِ

يوم الثلاثاء وهو من نحوسهِ وقال في نفسهِ ان دارت الدائرة على رجالي عدت الى المضارب وقتلت سلمى وامها واخويها ولو عيرني العرب ابد الدهر لانهم سبب هذه البلية . ثم اغمض جفنيهِ وكانت يدهُ على مقبض سيفهِ فارتخت اصابعها ووقعت فحلم ان جوادهُ عثر بهِ في حومة الوغى فسقط عنهُ ونهض مذعوراً . ثم عادت بهِ الهواجس الى فيافي الخيال ففكَّر بالاميرة سلمى كما رآها آخر مرة تحلب النياق والدمع قد قرَّح جفنيها فادارت وجهها عنهُ خجلاً منهُ او غيظاً فشمت بها كما يفعل اللئام اذا رأوا الضعيف ذليلاً بين ايديهم وفكَّر باخويها وقد صارت ثيابهما اخلاقاً فلم تأخذهُ شفقة عليها ولا رثى لحال امهما بل احتدم غيظاً على زوجتهِ لانهُ كان يعلم انها ترسل اليهم من طعامها

وبات الامير عمر لا يفكر الاَّ باخذ الثار وكشف العار وتخطر ببالهِ الاميرة سلمى فيردد في نفسهِ قول مَن قال

هي الشمس مسكنها في السماء فعزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع اليها صعوداً ولن تستطيع اليك نزولا

فان الطالبين لها اقرب منهُ اليها ابن خالتها وذلك الامير الانكليزي الذي اخبرتهُ عنهُ ام يوسف . وهو يلوم طالعهُ لانهُ اوقعهُ في حب فتاة لا يستطيع الوصول اليها وعزم ان يستدعي طبيب الجزيرة فيسقيهُ دواء السلوان(١)

وكاد فؤاد الامير احمد يطير فرحاً لان التقادير يسَّرت لهُ ان ينقذ خالتهُ واولادها من الاسر وقال في نفسهِ ان ذلك لا بدَّ وان يلين قلب سلمى ويزيل منهُ كل اثر من حب ذلك الرجل الانكليزي الذي تخلَّى عنها وقت الشدَّة مع انهُ من اقدر الناس على نجاتها كيف لا واساطيل الانكليز مالئة البحر وكلمة واحدة منهُ للوالي تقيم البلاد وتقعدها ولا بدَّ لي من ان ابيّن ذلك لسلمى ان كانت تجهلهُ

اما الشيخ اسمعيل فلم يكن يفكر الاَّ بتحالُف رجالهِ مع عرب الفضل حاسباً ان ذلك يعزز مقامهُ لدى الدولة ويمنعها من تشديد الوطأة في طلب المتأخر من الاموال الاميرية . وكان قد بلغهُ انها اكتفت بقصاص نفر قليل من رجال الجبل وعفت عن الباقين فلم يبقَ لهُ همٌّ الاَّ ان تعفيهُ من الاموال الاميرية وودَّ ان تنتهي هذه الواقعة باسرع ما يكون حتى يعود رجالهُ الى حصد زروعهم

(١) تزعم العرب انهُ دواء يسقاهُ العاشق فيموت حبهُ

ولم يكد ذنب السرحان يعلو فوق الافق حتى ماج المعسكران وعلا صهيل الجياد وهدير الجمال واشتدت الضوضاء وجعل الفريقان يتأهبان للهجوم فانقسم كل فريق الى اقسام وكان كشافة الامير عمر والشيخ اسمعيل قد طافوا في البقاع التي حولهم وعادوا فاخبروا بما رأوا فنقح القائدان خطة الهجوم · اما الامير حسان فان رجاله كانوا يعرفون كل شعبة من تلك الشعب وكل بقعة ومنهل فاستدعى مشايخهم وكرَّر عليهم بيان الخطة التي يقابلون بها عدوهم وموضع الكمين الذي اقامهُ لهم ولم تكد الشمس تبزغ من وراء الافق حتى اصطفَّ الجيشان وابتدأ اطلاق البنادق واخذوا في الكر والفر والالتحام والانفصال وعلا العثير فسدَّ منافس الفضاء وصاح الابطال واصطدم الشجعان وتثلمت البيض الصفاح وتكسرت عوالي الرماح وحلقت العقبان والقشاعم ووقفت الضباع في اوجارها تستروح رائحة الملاحم وقام ملاك النقمة على رابية متهلل الجبين وهو يقول لا تطهر المآثم الا بالدماء ما دامت القلوب مباءة للشحناء · وعلت الشمس واشتدَّ الهجير والحرب سجال والفريقان ككفتي ميزان تعبث بهما الرياح · وهربت الاصلال من وقع سنابك الخيل وتعذَّر عليها الانسياب على الرمضاء فغارت في نوافق اليرابيع · وبينما الجياد تكاد تسبح في عرقها هبت ريح صرصر فجففت ابدانها ويبست جلودها ولم تكد الشمس تميل عن الهاجرة حتى ظهر الوهن في رجال الامير حسان فصاروا يتقدمون خطوةً ويتأخرون خطوتين كمد البحر اذا ابتدأ جزرهُ وعرب الفضل والحوارنة يضربون في وجوههم وفي اقفيتهم الى ان اوصلوهم الى محلتهم وابعدوهم عنها فعلت جلبة النساء والاولاد · وكان الامير احمد اسرع الجميع الى محلة بني صخر يحمي ظهرهُ مئة فارس من فرسان حوران فجعل يفتش عن خالتهِ واولادها حتى وصل الى المضرب الذي كانوا محروسين فيهِ ولم يكد يصل اليهم حتى علت الصيحات وراءهُ وهب رجال الامير حسان في وجههِ لان الكمين ثار من مكمنهِ في تلك اللحظة واندفع وراء عرب الفضل والحوارنة فصاروا بين جيشين جيش الامير حسان المتظاهر بالانكسار امامهم والكمين الذي كمن لهم فارتبكوا في امرهم ولم يروا الا الصبر في ذلك المأزق الحرج فانقسموا فريقين فريقاً وقف في وجه الكمين وفريقاً في وجه الامير حسان ورجالهِ · ويالها من ساعة تكسَّرت فيها البيض الصفاح وبيعت الارواح بيع السماح وتطايرت الجماجم عن الابدان وانتشرت الجثث على الصحصحان وبينما القوم يجرَّعون الموت الزؤام ويحسبون ان لامناص لهم من شرب كأس الحمام وقد زرَّت الربى عليهم جيوبها وادارت المنون عليهم خطوبها علا الغبار من الشمال فظنوهُ اعصارًا وماج السهل بالفرسان فخالوهُ تيارًا · وقال كل لسان الدولة الدولة جنود النظام ببيارقها وفرسان

الحكومة ببنادقها فخار الفريقان في مَن المغنيّ بهذه الغارة ورأوا فرصة للكف عن القتال فكفوا الى ان تنجلي واقعة الحال ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى وصلت الفرسان وقد عقد لواءها لسليم باشا من امراء الجيش العثماني ومعهُ السرهنري بدمونت ونفر من الجنود البحارة فوقعت مهابة الحكومة على الخصمين فانفصلا ووقفا منتظرين الاوامر ولما تم انفصالها نادى سليم باشا الامير عمر والامير احمد والشيخ اسمعيل فاقتربوا منهُ وترجلوا في حضرتهِ فامرهم بالركوب ثانية ثم نادى الامير حسانًا فلم يكن مجيب واخذ رجالهُ يفتشون عنهُ فوجدوهُ ملقى بين صخرين جريحًا استدلوا عليهِ من جوادهِ الواقف امامهُ . فانهُ اصيب برصاصة في صدرهِ فصرعتهُ ولكنها لم تخطف انفاسهُ فحملوهُ الى امام سليم باشا مغمى عليهِ لكثرة ما نزف من دمهِ وبادر الطبيب الى قطع النزف ومواساة الجرح وعادوا بهِ الى مضربهِ فاسلم الروح وهم في الطريق واحضر سليم باشا ابن عم الامير عباس فنصبهُ اميرًا على قبيلتهِ

الخاتمة

ازدانت دار الامير عباس بالرياحين وازهار الخريف وانتظم فيها عقد جمهور منتخب من القناصل الجنرالية والامراء الشهابيين والارسلانيين ثم حضر والي بيروت ومتصرف لبنان والقاصد الرسولي وجماعة من قسوس اللاتين واقتصر الاحتفال على هؤلاء بسبب الحداد وكانت الاميرة صفا قد جرَّبت معيشة الدير فلم تحتملها فعادت الى بيت ابيها وخرجت الاميرة سلمى من خدرها متكئة على ذراع عمها واتت امها وابنة عمها وراءها والدموع تتساقط من اعينهما وتقدَّم السرهنري ووضع يدهُ في يدها فكللهما القاصد الرسولي واهديت اليهما الهدايا وفي جملتها الاسلحة التي وجدها الامير احمد في المغارة

وكتب السرهنري الى امهِ تلك الليلة يصف لها حفلة اكليلهِ وقال انهُ وجد اسلحة جدهِ كونت بدمونت ووجد فيها الوثيقة وعليها ختم الملك ركاردس قلب الاسد فلا شبهة في لقبهِ وهو الوارث الوحيد لهُ وطلب اليها ان تعرض ذلك على جلالة الملكة وتطلب منها ان تلقبهُ بكونت لبنان او امير لبنان

